أثـــر الحـضــارة الإســـلاميـة

عـلـى الـشـرق والـغـرب

جـوسـتـان لـوبـون نمـوذجًا

الدكتور

عبد العزيز عبد المطلب السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٠٧١,٩٦٢
ا . ع

السيد ، عبد العزيز عبد المطلب .

أثــر الحضــارة الأســلامية علــى المشــرق والمغــرب / د. عبــد العزيــز عبد المطلب السيد .- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع .

٢٢٤ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 2 - 417– 308 – 977 – 978

١. تاريخ . أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٥١٦٠-٢٠١٤.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة
هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2014

فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشـركون و القائـل : ﴿...وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة:٢١٧] والصلاة و السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم معلم الناس الخير المبعوث رحمة للعالمين .

و أشهد أن لا آله الا الله وحده لا شريك له شهادة من برئ من التقليد و شرب من كـؤوس التوحيد سلسبيلا .

و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله الذى انشق له القمر و كلمه الحجر فأفحم أهل الكفر و الزور و الإبتداع صلى الله عليه و سلم وعلى أصحابه الغر الميامين صلاة تدوم بدوام ملك الله.

أما بعد ،

فقد كان لانتشار الإسلام و صدق كتابه و عظمتة منهجه ما لفت أنظار المشتغلين بالعلوم النظرية فى العالمين العربي و الغربي ، فانبرى كل منهم يكتب عنه ، و يؤلف حوله إما مثنيا عليه مطريا على شمائله ، و إما مغرضا يكتب عما يكنه فكره و ما وصل إليه تفكيره ، ومن عجيب الأمر هذا الكم الهائل من الكتب المؤلفه عن الإسلام و نبيه و المقالات التى دبجها أصحابها إما مدحًا أو قدحًا فمنهم من إقترب من الإسلام و فهم ما يدعوا إليه و شرح الله صدره له ، و منهم من وقف محايدًا و مع ذلك لم يستطع التخلي عن الفهم الخاطئ فى معالجة بعض أموره و قضاياه .

فكان جوستاف لوبون ممن ينطبق عليهم الوصف الأخير (الحيدة و التحامل) فكان لابد من تحقيق ما كتب ، حتى يكون هناك من ينافح عن الإسلام و نبيه صلى الله



عليه و سلم و قد وقع إختياري على كتاب (حضارة العرب) الذى ألفه (لوبون) و الذى وفقني الله لفهمه و المتابعة عنه إما مؤيدًا لما ذهب إليه و إما معارضًا لما كتب و رده على صاحبه متوخيًا السلوب المنهجي الذى لا يتعدى حدود البحث العلمي و النفع القائم على الصراحة و الوضوح .

التعريف بالمصطلحات :

أولا الحضارة :مفهوم الحضارة في اللغة ، وردت في مختار الصحاح [1] من الفعل " حضر " " حضرة " الرجل قريته و فناؤه و كلمه بحضرة فلان " بمحضرة " فلان بمشهد منه و (تحضر) فلان البدو و (و المُحضر) المسجل و " الحاضر " هذا الباب والحاضرة ضد البادية و هي المدن و القرى و الريف والبادية ضدها يقال له فلان من أهل الحاضرة و فلان من أهل البادية و فلان حضري ، و فلان بدوي ، و فلان حاضر بموضوع كذا أي مقيم به " الحضارة " بالكسر الإقامة في المحضر و الحضور ضد الغيبة " حضر " بالكسر لغة غنة يقال حضر القاضي قال وك؟ أنهم يقولون يحضر بالفم . قلت و في الديوان جعل هذه اللغة من باب فعل يفعل و يقال اللبن محتضر و محضر فنط إناءك أي كثير لآفة و أن الجن تحضره و الكنف محضره و قوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [2] أي تصيبني الشياطين بسوء في القاموس المحيط [3] في مادة " حَضَر " و حضر ضد غاب "والحضرة بالكسرة إذا حضر بخير " ، الحضر و الحضرة و الحاضر و الحِضارة خلاف البادية " الحضارة " الإقامة في الحضر . و في مادة " حَضَر " في المعجم الوجيز [4] حضر الغائب حضورًا قدم و الصلاة حل وقتها و عن فلان قام مقامه في الحضور . و " حاضر " القوم جالسهم و حادثهم بما يحضره و منه فلان حسن المحاضرة و ألقي عليهم محاضرة (حضّر) الشئ أعده يقال حضّر الدواء و حضّر الدرس و حضر الأدوات اللازمة للتجارب (أحتضر)

١- الرازي مختار الصحاح ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
٢- سورة المؤمنون أيه ٩٨ .
٣- القاموس المحيط جـ ٢ ، ص ٦١ .
٤- إبراهيم مدكور ، المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٩٤ ، مادة " حضر " .

حضره الموت . تحضرّ تخلق بأخلاق أهل الحضر و عاداتهم . (استحضره) طلب حضوره والشئ أحضره ، و فلان السائل و المعانى : تتذكرها (الحاضر) و المقيم فى الحضر و يقال فلان حاضر الجواب سريع الإتيان به و حاضر البديهة سريع الخاطر و " الحضرة " خلاف البادية و هى المدن و القرى و الريف و العاصمة و حاضرة الشيء القريبة منه و في القــرآن الكــريم ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ... ﴾ (1) والحاضرة : الإقامة فى الحضر و هى ضد البداوة و مظاهر الرقي العلمي و الإجتماعي فى الحضر. و "الحضر" المدن والقرى و الريف .

مفهوم الحضارة فى الإصلاح:

يقول (ألبرت سفنسر) فى كتابه (فلسفة الحضارة) { إن الحضارة بصفة عامة هى : " التقدم الروحي و المادي للأفراد و الجماهير على السواء " و هذا يعنى أن الحضارة نشاط إنسانى إبداعى يسير فى خطين متوازيين فى وقت واحد وهدفهما فى المحصلة النهائية هو الارتقاء بالإنسان بوصفه يمثل كلاً متكاملاً لا إنفصال فيه بين جانب المادة و جانب الروح }(2) .

وعلى هذا فالحضارة : [نوع من أنواع الحياة البشرية المتقدمة عمادها بصفة أساسية معيشة الحضر و ما تتطلبه من تنظيم و ما تسفر عنه من نتائج و تدابير تتمثل فى الكتابة و التشريع و نظم الحكم و أساليب التجارة و التدين] .

والحضارة على الأساس المتقدم لا يمكن تصورها إلاَّ فى رحاب المعدن فهو تحديد يركز على الجانب المادي للحضارة . و منهم من يركز على الجانب الروحى فيقول : فالحضارة فى جوهرها تقوم على الجانب البشري و على الأشياء المادية و الناس المتحضرين و غير المتحضرين وفقا لبعض مزاياهم القلبية و الروحية ، و تدل كلمة الحضارة على وجود عقلية روحية كما تدل كلمة صحة على جودة طبيعية أو جسدية و منهم أن يركز

١- سورة الأعراف ، آية ١٦٣.
٢- مجلة الأزهر " ثمار من قاعة الإمام محمد عبده " ١٤١٨ هـ.

على الجانب المادي و المعنوي معًا و يقول الدكتور محمد حسنين البطح : [الحضارة هى التقدم الروحي و المادي للأفراد و الجماهير على حد سواء ثم يركز على الجانب الأخلاقى أكثر ، يقول و لما بحثت فى ماهية الحضارة و طبيعتها تبين لي أن الحضارة فى جوهرها أخلاقية] . (١) .

مفهوم الحضارة الإسلامية :

يعنى مفهوم الحضارة فى نظر الإسلام [تقدم المجتمع من الناحية المادية والمعنوية فى جميع نواحى الحياة الإنسانية بروح خيرة و نحو غاية خيرة].

و هذا يعني أن أي تقدم فى أي ناحية لا يدخل فى الحضارة الإسلامية ما لم يتم بروح خيرة أي يبتغي به وجه الله عز وجل و لتحقيق غاية خيرة ، و لو كان فى التقدم الروحى . و لو أن انسانا يقضى ليله و نهاره فى عبادة متواصلة و لم يكن فى عبادته مخلصا بأن كان فى ذلك مرائيا أو منافقا لا يعد متقدمًا روحيًا بل لا يعد عمله عملاً روحيًا على الإطلاق .

فمن سمات الحضارة الإسلامية أن يتم التقدم و التحضر بروح خيرة ، فالتقدم بغير هذه الروح يؤدي فى النهاية الى إنهيار الحضارة و إلى تعاسة البشرية فى النهاية شأن الحضارات البالية التى قامت على أسس مادية و لغات مادية للمتعة الحسية فقط . و ثمة ميزة أخرى للحضارة الإسلامية و هى إستخدام الروح الخيرة فى دفع عجلة التقدم في الميادين المختلفة لأن القوة الروحية طاقة جبارة فإذا دخلت فى النفوس و رسخت فيها تحولت إلى طاقة محركة تدفع عجلة التقدم فى جميع مناحيها بسرعة و لكن لا يمكن تكوين هذه الروح الخيرة فى نفوس إلاّ ببناء الأفراد و المجتمع بالتربية الإسلامية .

عند ذلك يصبح الأفراد الذين يحملون هذه الروح سادة الحضارة لا عبيدها ثم يتحركون بعجلاتها و هم فى مأمن من هذا التحرك لأنهم يتحركون على بصيرة و إلى غاية محددة تنتهى بهم إلى الرفاهية و السعادة ، من أجل رفع مستوى الإنسانية ، و تعميم الخير

١- حولية كلية أصول الدين بالقاهرة ، العدد العاشر ، ١٩٩٣ م، ص ٢٩٥ .



على البشرية ، ولذلك تكون الحضارة التي يقصدها الدين الإسلامى هى أداة السعادة والرفاهية القائمة على الخير.

ويمكننا إجمال الحضارة الإسلامية فى الآتى

أولاً:العناصر المعنوية : وتشمل العناصر الإعتقادية والروحية والأخلاقية والعلمية و الإبداعية.

ثانيا: العناصر المادية : وتشمل التقدم الزراعي و الصناعي و التجاري والعمراني أي المحسوسات والماديات التى يقوم الإنسان بصناعتها بيديه و يتدخل فى تعديلها .

ثالثا : العناصر التنظيمية والتشريعية التى تنظم حياة الفرد و المجتمع والدولة مرتبطًا بجميع جوانب الحضارة ، كما تشمل نظم الدولة السياسية و نظام الأسرة و المجتمع [1].

و كل هذه العناصر السابقة من منطلق التشريع الإسلامى الذى أنزله الله سبحانه و تعالى على رسوله الكريم فى القرآن الكريم و كذلك السنة النبوية المشرفة .

ثانيا : العرب : بلسان العرب [2]:

العرب و العرب ، جيل من الناس معروف ، خلاف العجم ، و هما واحد مثل العجم و العجم ، مؤنث و تصغيره بغير هاء نادر و العريب تصغير العرب . والعرب العاربة : هم الخلص منهم ، و متعربة و مستعربة : دخلاء ليسو بخلص . والعربى منسوب إلى العرب و أن لم يكن بدويا و الأعرابى : البدوي ، و هم الأعراب، و الأعاريب : جمعا للعرب . و جاء فى الشعر الفصيح و الأعاريب وقيل ليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأنباط جمعا لنبط ، و إنما العرب

١- حولية كلية أصول الدين ، العدد العاشر ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨.
٢- ابن منظور ، لسان العرب ، م٤ ، دار المعارف ، مادة " عرب " ص ٢٨٦٣ – ٢٨٦٨.



اسم جنس و النسب إلى الأعراب : أعرابي ، قال سيباوي : إنما قيل فى النسب من الأعراب أعرابي ، و حكا الأزهري : رجل عربي إذا كان نسبه فى العرب ثابتا، و إن لم يكن فصيحا و جمعه العرب ، و رجل معرب إذا كان فصيحًا ، و إن كان عجمي النسب . و رجل أعرابى ، بالألف ، إذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلاء ، و تتبع لمساقط الغيث ، و سواء كان من العرب أو من مواليهم . ويجمع الأعرابي على الأعراب و الأعاريب و الأعرابى إذا قيل له يا عربي فرح بذلك و بش له و العربي إذا قيل له يا أعرابى غضب له . فمن نزل البادية أو جاور البادين و ظعن بظعنهم ، و انتمى بانتمائهم : فهم أعراب ، و من نزل بلاد الريف و استوطن المدن و القرى العربية و غيرها ممن ينتمى إلى العرب : فهم عروب ، و إن لم يكونوا فصحاء و قول الله عز وجل : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ...﴾ [1] فهؤلاء قوم من بوادى العرب قدموا على النبى صلى الله عليه و سلم المدينه طمعا فى الصدقات ، لا رغبة فى الإسلام فسماهم الله تعالى الأعراب ، و مثلهم الذين ذكرهم الله فى سورة التوبة ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ...﴾ [2] و قال الأزهري : و الذى لا يفرق بين العرب و العربي و الأعرابى ربما تحامل على العرب مما يتأوله فى هذه الآية و هو لا يميز بين العرب و الأعراب ، و لا يجوز أن يقال للمهاجرين و الأنصار و أعراب إنما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية ، و سكنوا المدن سواء منهم الناشيء بالبدو ثم استوطن القرى ، و الناشيء بمكة ثم هاجر إلى المدينة ، فإن لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم و اقتنوا نعمًا ، ورعوا مساقط الغيث بعدما كانوا حاضرةأو مهاجرة ، و قيل : قد تعربوا أى صاروا أعرابًا ، بعدما كانوا عَرَبًا والأعراب ساكنوا البادية من العرب الذين لا يقيمون فى الأمصار ، و لا يدخلونها

١- سورة الحجرات ، آية ١٤.
٢- سورة التوبة ، آية ٩٧.

إلاَّ لحاجـة ، و فـى الحـديث الشـريف : " ثـلاث مـن الكبـائر ، مـنهم التعـرب بعـد الهجـرة " و هـو أن يعـود إلـي الباديـة و يقـيم مـع الأعـراب ، بعـد أن كـان مهـاجرًا وكانوا يعتبرونه كالمرتد .

و العربيـة : هـى لغـة العـرب . و اختلـف النـاس فـى العـرب لِمَ سُمُّوا عربـاً . فقـال بعضهم : أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان ، و هو اليمن كلهم ، و هو العـرب العاربـة و نشـأ إسماعيـل بـن إبـراهيم عليـه السـلام معهـم فهـو و أولاده العـرب المستعربة: (العـرب المستعربة و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قـال : " خمسة أنبياء من العرب و هم : محمد و إسماعيل و شعيب و صالح و هود و صلوات الله عليهم) وهذا يدل على أن لسان العرب قديم ، و هؤلاء الأنبياء كانوا يسكنون بلاد العرب .

و العرب المستعربة هم الذين دخلوا فيهم بعد فستعربوا . قال الأزهري : المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا فى العرب ، فتكلموا بلسانهم و حكوا هيئاتهم وليسوا بصرحاء فيهم .

وَعَرَّبَه : أي علمه العربية .

وفـى المعجـم الـوجيز [1]: " عَرُب " عروب و عروبه و عروبية : فصح . (أعرب) الكـلام بنيـة و طبـق عليـه قواعـد النحـو و بمـراده أفصـح بـه و لمـن يوارب و عن حاجته أبان .

(**عـــرَب**) : الاسم الأعجمي: نطق به على مناهج العرب .(تعرب) : تشبه بالعرب و أقام بالبادية .

(**استعرب**) : سار دخيلًا فى العرب و جعل نفسه منهم .

(**الأعراب**) : من العرب سكان البادية خاصة يتتبعون مساقط الغير و منابت الكلأ . و الواحد أعرابي .

(**التعريب**) : صوغ الكلمة عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربية.

١- المعجم الوجيز ، ص ٤١١ ، ٤١٢.



(**العاربـة**) : عرب عاربة صرحاء خلص و قبائل بادت و درست آثارهم كعاد وثمود و هم العرب البائدة .

(**العـــرب**) : أمة من الناس سامية الأصل كان منشؤها شبه جزيرة العرب . ويقال رجل عربي و لسان عربي .

(**العرباء**) :عرب عرباء صرحاء خلص .

(**العُـروب**): المرأة المتحببة إلى زوجها ، وجمعها (عُرُب) ، و في القرآن الكريم ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (1)

(**المتعربة**) : من العرب : بنوا قحطان بن عامر الذين نطقوا بلسان العاربة وسكنوا ديارهم .

(**المستعربة**) : من العرب أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

ومثل ذلك في كلا من : مختار الصحاح (2)، المعجم الوسيط (3)بنفس المعاني .

العرب في الإستصلاح :

اختلف اللغويون و المؤرخون في تعليل تسمية العرب بهذا الاسم ، فقيل لأنهم لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام و الفصاحة في المنطق و الذلاقة في اللسان والأعراب المقصود فهو من أعرب إذا أبان عما في ضميره ، و منه قوله صلى الله عليه و سلم " و الثيب تعرب عن نفسها " ، و قيل نسبة إلى " يعرب بن قحطان " جد العرب العاربة فإنه أول من نطق بالعربية الفصحة و أخذها عنهم أهل اليمن . و قيل نسبة إلى "عربه" بلدة بتهامة الحجاز قرب المدينة نشأ فيها أولاد إسماعيل ، و أقامت فيها قريش وأسلافهم فنسيبوا اليها ، و يرى آخرون أن المدلول الحقيقي لفظ عرب أنه هو صحراء . (4).

١- سورة الواقعة ، آية ٣٦ ، ٣٧.
٢- مختار الصحاح للرازي ، تحقيق محمود فاطر ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، مادة " عرب ".
٣- المعجم الوسيط ، جـ ٢ ، مادة " عرب " ، ص ٦١٢.
٤- عبد الفتاح شحاتة ، تاريخ العرب و عصر الرسول ، ط ٣ ، ١٩٥٤ ، ص ١٥ ــ ٢٠.

و أذا أطلق هذا اللفظ قبل الإسلام فيراد به : سكان شبه جزيرة العرب فقط وهذه اللفظة فى التاريخ القديم يراد لفظ " بدو " و لما تحضر بعض القبائل قديمًا و أقاموا فى مدن اليمن و الحجاز ، و حوران و غيرها لم يعد " العرب " محسورًا فى " البدو " فتنوع معناه كما تنوع مسماه ، فاضطروا إلى كلمات تميز بين الحالين ، فأستعملوا لفظ " الحضر " لأهل المدن و " البدو " لأهل البادية [1] .

و بلاد العرب فى الجزء الجنوبي من أسيا ، و هى شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات : البحر الأحمر و المحيط الهندي و الخليج الفارسي ، و يطلق على بلادهم اسم جزيرة العرب .

و بلاد العرب فى مجموعها صحراء ، و لكنها ليست ككل الصحاري التي لا زرع فيها و لا ماء .

و مما يلاحظ عليها طبيعة سطحها ، فهو مختلف الأجزاء ، فبعضها مغطى بالكثبان الرملية ، و البعض الآخر بالجبال الأكام ، كما أن بعضهم غور منخفض و بعضه الأخر مرتفع [2] و تنقسم من الناحية الجغرافية إلى :

١ - **تهامة**: و هى الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة الساحل البحر الأحمر من ينبع إلى نجران فى اليمن .

٢ - **الحجاز** : و يقع شمال اليمن و شرق تهامة .

٣ - **نجد** : و يمتد بين اليمن جنوبًا و بادية السماوية شمالاً و العروض و أطراف العراق و سمي نجد لإرتفاع أرضه.

٤ - **اليمن** : ويمتد من نجد إلى المحيط الهندى جنوبًا والبحر الأحمر غربًا . ويتصل به من الشرق حضرموت و الشجر و عمان ، وكانت بلاد اليمن و حضرموت فى الجنوب ميدانا للحروب الداخلية و الفتن الأهلية .

١- د / محمود محمد رسلان ، فجر الدعوة الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٩٢ ، ص ١٩.
٢- حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام . جـ ١ ، ط ٤ مكتبة النهضة العربية ، ١٩٩٦ ، ص ٩.



٥ ـ **العروض** : و يشمل اليمامة و عمان و البحرين و سمي عروضا لإعتراضه بيت اليمن ونجد و العراق . و كانت عمان و البحرين ، منفصلتين عن سائر بلاد العرب بأمرين وأحدهما طبيعي وهو تلك المفاوز والبراري الواسعة و الصحاري الجدبة القفرة التى حالت بينها و بين سائر البلاد والأمر السياسي و هو خضوعها لسيادة الفرس [١] .

ثالثا : الإستشراق:

الإستشراق فى اللغة : من " شَرُقَ " شرقت الشمس تشرق شروقًا . طلعت . و اسم الموضوع الشرق . [٢].

الإستشراق فى الإصطلاح :

يراد بالإستشراق دراسة كل شيء عن الشرق . لغاته القديمة و لهجاته الحديثة وتاريخه و أساطيره ، و طباعه و عاداته ، و معارفه ، وكل شئ يتصل به من الناس والحيوان و النبات و المناخ و التربية و مكوناته الشخصية ، و عوامل الفرقة .

و يراد بالمستشرقين أولئك الذين لهم اهتمامات جادة بهذه الدراسات [٣] .

" و المستشرق عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية " و لابد أن يتوافر فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها فى العالم المتخصص المتعمق حتى ينتج و يفيد البشرية و الحضارة بإنتاجه العلمي . و لا بد أن ينتمي هذا العالم إلى الغرب ، و لو كان هذا العالم يابانيًا أو إندونسيا أو هنديًا لما استحق أن يوصف بالمستشرق لأنه شرقي بحكم بيئته و مولده و حضارته [٤]. و قد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخًا أو فلسفة أو أثارًا أو اقتصادًا و لكنها ترتبط بالشرق ، و ليس من الضروري أن يرحل هذا المستشرق إلى الشرق ليعيش فيه أو ليتطبع انطباعه أو حضارته . فقد يقوم بدراسته

١- حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، جـ ١ ، ط ٤ مكتبة النهضة العربية ، ١٩٩٦ ، ص ٩ ، ١٠.
٢- لسان العرب ، م ٤ مادة " شَرُقَ " ص ٢٢٤٤ ـ ٢٢٤٨.
٣- عبد المتعال الجبري ، السيرة النبوية ، وأوهام المستشرقين ، ص ٩.
٤- المرجع السابق ، ص ٢٥.

فى جامعته الغربية أو فى وطنه و إن كان رحيله إلى الشرق يجعل دراسته أكثر فائدة وأقرب إلى الواقعية و الحقيقة . و ليس من الضروري أيضًا أن يتحدث باللغات الشرق وإن كان الإلمام بها أو إجادتها يعنيه كثيرًا فى دراسته و أبحاثه و حينما بدأ الإستشراق كان غالبًا هواية يهواها بعض الأوربيين الذين جذبهم الشرق بسحره و أسراره و مميزاته الحضارية الخاصة . و اقترن الإستشراق أحيانًا بحب الرحلات إلى الشرق و أصبحت كتب هؤلاء النفر من المستشرقين أقرب إلى الوضعية أو كتب الرحلات فأهتم المستشرق بحشد مؤلفاته بكل ما هو غريب أو عجيب مما يثير تشويق الأوروبي و يدفعه للإطلاع على هذه الصورة من الحياة التى تخالف صورة حياته المألوفة . كما اتجه بعض الأوروبيين أيضًا نحو الإستشراق بدافع من التعصب الديني أو التعصب القومي (١) .

و لكن الإستشرق فى العصر الحديث قد أصبح حرفه و اتخذ الطابع العلمي المنظم و أصبح لـه قواعده و أسسه و المنهجية ، نتيجة التطور العلمي ، و إختلاف الظروف السياسية فى العالم و نهضة الشرق ، و تطور العلاقات بين الشرق و الغرب ، و لذا أصبح المستشرق فى القرن العشرين يختلف تمامًا عن المستشرق فى العصور الوسطى أو فى مطلع العصور الحديثة . و هكذا خضع تحديد مفهوم " المستشرق " لسنة الحياة و التطور ولإختلاف ظروف الزمان و المكان ، و لتطور العلاقات الدولية ، و للتقدم العلمي والحضاري.(٢) .

و قد تسرب الإسلام إلى أوروبا فى نهايات القرن السابع الميلادي " الأول الهجري " عن طريق فتح بلاد الأندلس التى يطلق عليها الآن " أسبانيا و البرتغال " و كان المسلمون قد فتحوا مساجدهم و مجالسهم العلمية لكل من أراد العلم ، والعلم فى عُرف المسلمين الأوائل كان يعنىّ الشرعية و العربية و الإجتماعية و الكونية و التقنية ، و لا يضنون بالفنون الحضارية على أحد من النصارى أو اليهود أو غيرهم من البشر ، باعتبار الإسلام

١- على حسني الخربوطلي ، المرجع السابق ص ٢٦.
٢- نفسه ، ص ٢٦.

رسالة الإرتقاء بالإنسان إلى مستوى أفضل عقليًا و ماديًا . فكان يفد إلى الأندلس كثير من الشباب من كافة أنحاء أوروبا لينهالوا من علوم المسلمين [1] .

و قد استهوت علوم المسلمين و أخلاقهم و عادتهم كثيرًا من هؤلاء الوافدين إلى الإسلام فخشيت الكنيسة الغربية على مستقبلها فعملت على الحيلولة بين الشباب و بين بلاد الأندلس و جامعاتها . و لذلك عمدت إلى إعداد طائفة من الرهبان و القساوسة لدراسة العلوم الشرقية يعنى الإسلامية و غيرها مما يدرسه أهل الشرق – حتى يمكنهم جذب الشباب إلى حلقات مماثلة يكون زمامها الكنيسة . و يمكن من خلالها تشويه صورة الإسلام لدى الدارسين ، و من ثم كان الإرتباط الأول بين العملية الإستشراقية و بين عملية محاربة الإسلام بالكتابة و المحاضرة و القصة و الأغنية و سائر وسائل الإعلام . و لذلك أنشئت الكراسى العلمية لتعليم اللغة العربية فى أوربا و تمت ترجمة القرآن الكريم إلى الاتينية للإنطلاق منه ضد الإسلام و دراسة العلوم الإسلامية و الشرقية [2] .

و نستنتج مما سبق :

أولًا : أن الإستشراق علم يحاول أصحابه دراسة الشرق و كل ما يتعلق به من لغات و آداب و معتقدات و علوم و فنون و ما شاكلها .

ثانيًا : أن المعنى الأصلي لكلمة ((استشرق)) صار شرقيًا و أن صيغة ((المستشرق)) علميا " تطلق على ذلك الذى يشتغل بالعقليات الشرقية عامة و السامية خاصة و العربية بوجه أخص [3].

ثالثًا : أن الإستشراق علم لا يقتصر على دراسة غير الشرقيين فحسب بل أثر الشرق فى تكوين البناء الحضاري و تطوره فى العالم بأسره .

رابعًا: أن الإستشراق علم يشمل طوائف مختلفة تعمل فى مجال الدراسات الشرقية من علوم و آداب تتعلق بالشرق كله .

١- نفسه ، ص ٢٦.
٢- الخربوطلي ، المرجع السابق ، ص ٢٧.
٣- أحمد سمايلوفتش ، فلسفة الإستشراق ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ ، ٣١.

خامسًا : أن الإستشراق علم قائم بذاته له خصائصه التى تدل على إستقلاله و أن أصحابه قد شغلوا فترة طويلة دون أن يهتم أحد بدراستهم دراسة علمية واعية إلاَّ فى أحيان نادرة فى معرض النقد و التقريظ .

سادسًا : أن الإستشراق مهنة أكثر منه علمًا و أنه أقرب منه إلى دائرة التبشير من دائرة العلم و هنا كان الإسلام بيت القصيد للهجوم و النيل منه .

سابعًا : أن الإستشراق فى المفهوم العلمي علم يضم فى رحابه الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن الفكر الإسلامى و حضارته ومنهم القدماء و المحدثون و منهم المادحون و المنتقدون .

ثامنًا : أن المستشرق عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية على الإطلاق .

تاسعًا : أن لفظة ((استشرق)) مولودة و مترجمة عن الشرق أو الشرقية .

عاشرًا : أن الإستشراق كمفهوم علمي حركة علمية تعني بدراسة الشرق بصفة عامة تاريخه و حضارته و علومه و أهله و أديانه (١) .

و للمستشرقين دوافع عديدة للقيام بجدية بهذه الحركة الغربية الإستشراقية فى بلاد الشرق الإسلامي بصفة خاصة و الشرق بصفة عامة منها :

أولًا : الدوافع النفسية : و هى دوافع تكمن فى طبيعة الإنسان نفسها من حيث ما يكون كائن حي ، ومخلوق مفكر ، له خصائصه وآماله وأحلامه و أطماعه و أهدافه و نزواته و احساساته ، كل هذا دفعه الى معرفة أخبار والآخرين ومعتقداتهم و عاداتهم و أساليبهم فى الحياة ، فارتحل الرجل العربي إلى الشرق لتحقيق الدوافع (٢).

ثانيا: الدوافع التاريخية: لقد كانت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة صراع متواصل ملتهبة تارة ، و خامدة تارة ، و تطورت بعد إنطلاق الإسلام و اتساع

١- سمايلوفتش ، المرجع السابق ، ص ٢٧.
٢- سمايلوفتش ، المرجع السابق ، ص ٤٠ – ٤٢.

أراضيه وإرتقاء المسلمين فأصبح صراعًا بالسلاح بقدر ما كان بالأفكار وبعد أن أصبح للإسلام أثر كبير فى العالم ، اضطر علماء الغرب إلى دراسة الإسلام و البحث فى كل ما يتعلق به لفهم مظاهره و أحداثه المعجزة ، وعلى ذلك فالإستشراق قد ولد فى أحضان الواقع التاريخي و أوجهه (١).

ثالثًا : الدوافع الإقتصادية : لقد كان للنواحي الإقتصادية المتمثلة فى التجارة وإلتماس سبل العيش عبر الأراضي والبحار أثر كبير فى حركة الاستشراق حيث كان العالم الإسلامى مجالًا اقتصاديًا ذا أهمية قصوى بالنسبة لعدد كبير من التجار الأوروبيين و تبع ذلك بالضرورة عناية بدراسة علومه و ثقافته و فلسفته (٢).

رابعا : الدوافع الأيديولوجية : كان للدوافع الفكرية و انتشار الأفكار النفعية والبحث عن المصالح الخاصة أثر كبير فى خلق حركة الإستشراق واستقرارها فى الشرق الإسلامى (٣).

خامسًا : الدوافع الدينية : كان للإختلاف الدينى بين الشرق و الغرب أثرًا كبير فى نشأة الإستشراق و خاصة بعد انتشار الدين الإسلامى و سيطرته على العالم فى العصور الوسطى ، مما دفع البابوية فى روما إلى إتخاذ موقف حاد وجاد ضد الإسلام و المسلمين و محاولة زعزعة عقيدة المسلمين و تشكيكهم فى دينهم وخاصة بعد فشل الحروب الصليبية فى الاستيلاء على الشرق الإسلامى و تحقيق أهداف البابوية والغرب الأوروبى، فكانت حركة التبشير و إرسال المبشرين المسيحين لتحويل أبناء الشرق إلى المسيحية ، ثم حركة الإستشراق و دراسة علوم الشرق و لغته و حضارته . (٤).

١- نفسه ، ص ٤٣ – ٤٥.
٢- نفسه ، ص ٤٥ ، ٤٦.
٣- سميلوفتش ، المرجع السابق ، ص ٤٦ – ٤٨.
٤- نفسه ، ص ٤٨ – ٥٠.

سادسًا : الدوافع الإستعمارية : و جاءت هذه الدوافع من منطلق ضـرورة السيطـرة علـى بـلاد الشـرق لتحقيـق الأغـراض الكنيسـية والغربيـة مـن التبشـير والاستشراق عن طريق حياته و مده بالمال والسلطان . ولذلك جاء الإستعمار فى نهايـة كل هذه الـدوافع بعـد أن فشلت كل الطرق و الوسـائل السلمية في تحقيق أغراض الغرب [1] .

وعلى أية حـال فقد تمثلت مقاصد المستشرقين فى معرفة اللغة العبرية عن طريق اللغة العربية ، و لذلك لا نجد مستشرقًا لا يعرف هاتين اللغتين ، و من ناحية ثانية تشكيك المسلمين فى دينهم و زعزعة عقيدة المسلمين [2] و قد مر الإستشراق بأطوار كثيرة منهـا طور التكـوين ، وطـور التقـدم ، و طـور الإنطـلاق ، حتـى وصـل إلى الطـور المعاصـر فـى العصـر الحديث [3] خلال دراسات هؤلاء المستشرقين و موقفهم من الإسلام بدأ واضحًا أنهم ليسوا ليسوا جميعًا على وتيرة واحدة فى موقفهم من الإسلام و المسلمين ، فهنـاك فئة منهم من المنصفين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي و هنـاك من المنصفين و لكنهم لم يعتنقوا الإسلام وهنـاك فئـة ثالثـة و هـم المعـادين للدين الإسـلامى أو المجحفـون الـذين دفعـتهم عـداوتهم للإسلام إلى اللجوء إلى الطعن فى الإسلام و نبيه و كتابه [4] .

وفى نهاية المطاف فقد ترك الاستشراق الكثير من الآثار السلبية و الإيجابيـة فى المجتمعـات الإسـلامية فـى المجـال الـديني و الإجتمـاعي و الإقتصـادي و الثقـافي و الفكـري والعلمي [5] .

١- نفسه ، ص ٥٠ – ٥١.
٢- محمد عزت الطهطاوى ، التبشير و الإستشراق ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٦.
٣- أنظـر التفصـيلات فـى : د / عبـد الله سـمك ، الإستشـراق بـين الجحـود و الإنصـاف ، القـاهرة، ١٩٩٢ ص ١٣ - ٢٢ ، د /عبد الله عبد الحى، التبشير والإستشراق خططا وتطبيقا، ط ١ دار الطباعة المحمدية، ١٩٩٣ ، ص ٢٢ ، ٣٢.
٤- أنظـر التفصـيلات فـى : د / علـى شـاهين ، دراسـات فـى الإستشـراق ، ط ١ ، دار الطباعـة المحمديـة ١٩٩٢ ، ص ٧٣ – ١٢٣.
٥- أنظر التفصيلات في : د / محمد خليفة حسن ، آثار الفكر الإستشراقي في المجتمعات الإسلامية ط ١ دار عين للنشر ، ١٩٩٧.

رابعا : جوستاف لوبون :

الدكتور جوستاف لوبون طبيب و اجتماعى مربي وقف نفسه على خدمة العلم وتقرير حقائقه حتى تجاوز عمره الثمانين . ولد فى بلدة نوجان لى زيرو سنة ١٨٤١ م . وتولى فى حرب السبعين رئاسة أطباء فرقة التنقلات العسكرية المتحركة . و فى سنة ١٨٨٤ م سافر الى الهند مكلفًا من الحكومة بمهمة درس هندسة الآثار البوذية ، و ساح فى أفكار أخرى منها هذا الشرق الإسلامى .

و رغم أن جوستاف لوبون طبيبًا إلاَّ أنه عني بالتاريخ للحضارة الشرقية ، فله فى ذلك كتب و مؤلفات منها : آثار الحضارة العربية ، و حضارة العرب فى الأندلس وله كذلك بالحضارات الأولى :

- حضارات الهند .
- آثار الهند .
- رحلة إلى جبال نتراس .
- رحلة إلى نبال .
- روح السياسة .
- روح التربية .
- جوامع الكلم العصرية .
- أمس و غد.
- الثورة الفرنسية.
- النتائج الأولى للحرب.
- أسلوب التخطيط والآلات المدونة .
- التعاليم النفسية للحرب الأوروبية .
- الإنسان و الجماعات .
- تطور الأمم .



- روح الإشتراكية .
- أسلوب الخطط الفرعوني .
- أصول الحضارة الفارسية .
- مذكرات فى الطبيعة .
- حياة الحقائق .
- دخان التبغ " بحث كيماوي " .
- أبحاث تشريحية و رياضية فى سر تطور حجم الجمجمة .
- تطور المادة .
- تطور القوى .
- بحث في الأمراض التناسلية الدولية .
- علم الصحة العمل للجندي و الجرحى .
- الحياة فسيولوجية بشرية .
- الموت الظاهري و العروض قبل الموت .
- فسيولوجيا أصل البشر و أهم الكائنات الحية .
- فلسفة التاريخ .
- الآراء و المعتقدات .
- روح الإجتماع .
- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى .
- السنن النفسية لتطور الأمم [١].

و يعتمد لوبون فى تأليفه لهذه المؤلفات على ما لاحظه فى رحلاته و ترصده ، و من تلك الكتب على الخصوص يستنبط على ما بدأ له من سنن الإجتماع فيضع سنة ١٨٩٤ م كتاب السنن النفسية لتطور الأمم ، ثم كتاب روح الجماعات سنة ١٨٩٥ . و يعد لوبون

١- جوستاف لوبون ، مقدمة الحضارات الأولى ، ترجمة : محمد صادق رستم ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

مجددًا في علم النفس و الإجتماع و إمامًا و موجهًا إليهما . فعالج جميع الموضوعات التى تناولها بدقة . فوصل إلى الحقائق الرائعة . فظهر فى كل ما كتب عبقريًا مبتكرًا حر التفكير . مستقلًا لبقًا إلى الغاية . ولذلك كان من الصواب أن نقول أن لوبون أعظم عالم نفسي فرنسي فى الوقت الحاضر بما تزرع به من صبر و ما اتفق له من بصيرة نقد روح العصر (١).

النقد فى الاصطلاح : مأخوذ من نقد الكلام يقال نقد الكلام ناقشه و هو من نقده الشعر و نقاده و انتقد الشعر على قائله . وهذا معنى معهود عند العرب استعمله المحدثون فى المهمة التى تصدروا لها فى دراسة الأحاديث و ناقلها (٢).

ويختلف التعريف الاصطلاحى للنقد تبعًا للمجال المستخدم فيه ، إذ أن أنواع النقد تعددت لتعدد مجالاته ، فهناك النقد الأدبي ، الفني ، العلمي ، و الرياضي ٠٠٠٠٠٠ إلى غير ذلك من أنواع النقد الذى ينبع جميعها من منبع واحد و هو " تمييز الجيد من الردئ " و ليس أدل على ذلك مما ذكره الدكتور محمد السعدي فرهود فى تعريف النقد الأدبي بأنه تمييز الأدب أو تمييز النص الأدبي٠٠٠ فهو لا يخرج عن أمرين : التحليل و التقويم(٣) .

خامساً : مصطلح الميزان :

الميزان فى اللغة : و تجمع على موازين : و هو آلة يوزن بها الشئ و يعرف مقداره بطريقة حسابية كالجمع و الضرب (٤)وفى القاموس المحيط : الميزان و العدل و المقدار

١- جوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم.
٢- أحمد محمد نور يوسف : كتاب حجى بين معين و كتابه التاريخ دراسة و ترتيب و تحقيق ، حـ١ ، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٥ ، ٦.
٣- د./ ياسر أبو شبانة : جهود علماء المسلمين فى نقد الكتاب المقدس من القرآن الأول حتى القرن السابع الهجرى(عرض و نقد) ، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية أصول الدين بالمنصورة ، ٢٠٠٠ م ص٣.
٤- لويس المعلوف ، المنجد فى اللغة و الأدب و العلوم.

وازنـه عادلـه وقابلـه وحـازاه [1]. ويعـرف أيضـا بأنـه العـدل والقسـط فـى الأحكـام والمعاملات. وهو الشريعة التى يتناصف بها الناس وبها يقوم العدل بينهم والميزان [2].

تعريف الميزان فى الإصطلاح :

يعرف الميزان بأنه الآلة المعروفة التى يوزن بها الأثقال والمحسوسات .

وفى المعنويات هو الذى توزن به أعمال العباد من خير وشر وقبيح وحسن ومثوبة وذنب .

ويقول المرحوم الشيخ حسنين مخلوف فى تفسير ﴿...وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمن:من الآية ٧] شرع العدل أمر به ليستقيم أمر العالم أو خلق الآلة المعروفة التى تعرف بها مقادير الأشياء ليتوصل بها الناس فى الأرض إلى الإنصاف فى المعاملات وفى قوله تعالى ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [سورة الرحمن:٨] قال : أي لئلا تتجاوزوا الحق فيه ، وقال في : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ...﴾ [سورة الرحمن:٩] أى قوموا وزنكم بالعدل . المراد حث الناس على مراعاته فى جميع أقواله وأفعاله ﴿...وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴾[سورة الرحمن:٩] أى لا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى فلقد أمر الله تعالى " بالتسوية " ونهى عن الطغيان فيه الذى هو إعتداء وزيادة عن الخسران فيه الذى تطفيف ونقصان وكلاهما ظلمة ... إلخ [3] .

سادسًا : الدعوة فى اللغة :

جاء فى لسان العرب فى مادة " دعا " دعا الرجل دعوًا ودعاه ناداه والاسم الدعوة ودعوت فلان صحت به واستدعيته ودعوة شهادة أن لا إله إلا الله ، وتداعى القوم دعا

١- الفيروز أبادى ، القاموس المحيط ، ص ٢٧٥.
٢- د./ احمد محمد صبرة ، الكيل والميزان فى القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية أصول الدين بالمنصورة ص ٤١.
٣- جوستاف لوبون ، تاسنن النفسية لتطوير الأمم.



بعضهم بعضا حتى يجتمعون ، و الدعاة قوم يدعون إلى هدى أو ضلال ، ورجل داعي إذا كان يدعو الناس إلى دين ، و النبى داعى الله و كذلك المؤذن [١] .

و فى مختار الصحاح مادة " دعا " الدعوة إلى الطعام و هما مصدران و الدعوة بالكسر و النصب و تداعت الحيطان أى تهدمت و دعاه صاح به [٢] و فى القاموس المحيط الدعاة الرغبة إلى الله يقال دعا دعاة و تداعوا عليه تجمعوا و دعاه ساقه و النبى دعى اللهو ويطلقه على المؤذن ودعوته سميته [٣] ﴿ ...أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... ﴾ [٤] .

و الدعوة المرة الواحدة من الدعاء ، و فى الحديث : " فإن دعوتهم تحيط من ورائهم" [٥] أي تحوطهم و تكنفهم و تحفظهم ، يريد أهل السنة دون البدعة ، و تداعى القوم : دعا بعضهم بعضا حتى يجتمعوا ، و دعاه إلى الأمير أى ساقه ، فقوله تعالى ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [٦] . و معناه داعيًا إلى التوحيد و ما يقرب منه و الدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة ، و أحدهم داع ، و رجل داعية إذا كان يدعوا الناس إلي بدعة أو دين ، أُدخلت الهاء فيه للمبالغة [٧] و الدعاء إلى الشئ بمعنى الحث على قصده والدعوة إلى قضية يراد إثباتها أو الدفاع عنها سواء كانت حقًا أو باطلًا و فى ذلك حكاية القرآن عن سيدنا يوسف عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ... ﴾ [٨] ، أى من طاعة النسوة و الوقوع فى الإثم ، و كما ورد فى قول الرسول الرسول صلى الله عليه و سلم للأوس و الخزرج حين اصطفوا للقتال " أبدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم " ومن الحق قوله تعالى ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ... ﴾ [٩] و قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ

١- ابن نظور ، لسان العرب ، جـ٣ ، دار المعارف ، مادة " دعا " ، ص ١٣٨٥ ــ ١٣٨٩.
٢- مختار الصحاح ، مادة " دعا " ، ص ٢٠٥.
٣- القاموس المحيط ، حـ ٤ ، مادة " دعا " ص ٣٢٩.
٤- سورة الإسراء ، آية ١١٠.
٥- أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، حـ ٣ ، ص ٢٢٥ من حديث أنس رضى الله عنه.
٦- سورة الأحزاب ، آيه ٤٦.
٧- لسان العرب ، جـ٢ ، ص ١٣٨٧ ــ ١٣٨٩.
٨- سورة يوسف ، آية ٣٣.
٩- سورة الرعد ، آية ١٤.

يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ...﴾[1] و فى كتابه صلى الله عليه و سلم إلى هرقل " أدعوك بدعاية الإسلام "[2] أى بدعوته ، وهى كلمة الشهادة و إتباع منهج الله ، و لذلك قال مؤمن فرعون ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[3] . فاستبان لنا أن هنا هنا كدعوة إلى الجنة و أخرى إلى النار.

و الدعوة هى المحاولة القولية أو الفعلية و العملية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة وهى الإبتهال و السؤال[4]. فجاء فى المصباح المنير ، دعوت الله أدعوه ، و أدعوه دعاءً أي أبتهل إليه بالسؤال و أرغب فى ما عنده من الخير[5] .

الدعوة فى الإصطلاح :

الدعوة هي حث الناس على الخير و الهدى و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة الآجل و العاجل و تتمثل فى ثلاثة أنواع هى :

الأول : دعوة الأمة المحمدية جميع الأمم إلى الإسلام .

الثانى : دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير و تآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر و يقوم به خاصة الأمة العارفون بأمر الدين و أسرار التشريع .

الثالث : ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض و يستوى فى ذلك الخاصة و العامة بالدلالة على الخير و الترغيب فيه و النهي عن الشر و التحذير منه[6].

١- سورة يونس ، آية ٢٥.
٢- الشيخ محمد الغزالى ، فقه السيرة ، ص ٣٧٧.
٣- سورة غافر ، آية ٤١.
٤- جمعة أمين عبد العزيز ، الدعوة قواعد و أصول ، دار الدعوة ، ص ١٤.
٥- المصباح المنير ، جـ١ ، جـ٢ ، ط ٨ ، القاهرة ، ١٩٣٩ م ، مادة " دعا " ، ص ٢٦٤ – ٢٦٦.
٦- الشيخ على محفوظ، هداية المرشدين، طريقة الوعظ والخطابة، ط ٩، دار الإعتصام، ١٩٧٩، ص ١٧.



وقال أخرون هى : نقل الأمة من محيط إلى محيط ، تلك هى مهمة الداعية ، و فيها يندرج مجمل مناهجه و مفصله و من ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه و رسالته [1]. ويقول فريق ثالث من العلماء :

إنها الحركة الإسلامية فى جانبها النظري و التطبيقي من حيث بناء الدولة و دفاع عن استمرار وجودها [2] أما الفريق الرابع من علماء فيعرفونها بأنها : " برنامج كامل يضم فى أطوائه جميع المعارف التى يحتاج إليها الناس ليبصروا و يستكشفوا معالم الطريق الذى يجمعهم راشدين " [3] . وقام من عنده أهليه الدعوة إلى الله بترغيب الناس إلى فعل الخير و تحذيرهم من الوقوع فى الشر و إنقاذهم مما وقعوا فيه و بيان محاسن الإسلام لغير المسلمين ليدخلوا فيه [4] .

و على هذا فإن الدعوة هى إلتزام بدين الله الذى بعث رسله و أنزل به كتبه و الذين يستجيبون فى هذه الدعوة هم حزب الله ، و يقول بن القيم : " الدعاة جمع داع ، كقاض وقضاة ، ورام و رماة و اضافتهم إلى الله للإختصاص أى دعوة المخصوصين به ، الذين يدعون إلى دينه و عبادته و معرفته و محبته و هؤلاء هم خواص خلق الله عند الله منزلة وأعلاهم قدرًا فالداعى إلى الله هو الذى يدعوا الناس بالقول و العمل إلى الإسلام و إلى تطبيق منهجه و إعتناق عقيدته و تنفيذ شريعته " [5] .

تعريف بالكتاب :ـ

إن الكتاب هو كتاب " حضارة العرب " للمستشرق الفرنسى جوستاف لوبون .

و قد قام بترجمة هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ " عادل زعيتر" و طبع الكتاب بمطبعة عيسى البابى الحلبى و شركاه سنة ١٩٦٩ م .

١- البهى الخولى ، تذكرة الدعاة ، مكتبة وهبة ، ص ٢٧.
٢- د/ رزوف شلبى ، الدعوة الإسلامية فى عهدها المكي : مناهجها و غايتها ، ط ٢ ، دار القلم بالكويت ١٩٨٢ ، ص ٣.
٣- الشيخ محمد الغزالى ، مع الله ، ط٥ ، دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨١ م ، ص ١٧.
٤- د./ محمد رجب الشتوى ، الدعوة الإسلامية فى ضوء الكتاب و السنة، ط ١، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٦.
٥- جمعة أمين عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص ١٤ ، ١٥.

و الأستاذ عادل زعيتر من الأساتذة الذين عكفوا على الترجمة إلى اللغة العربية وله باع طويل فى هذا المجال ، فقد كان ضليعًا فى اللغة و أصيلاً فى التعبير بالعربية وفحولة التركيب اللغوي كما قال عنه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن . و قالت عنه الدكتورة بنت الشاطئ " أنه الذى رد للترجمة اعتبارها بعد أن هبط بها المرتزقة والمأجورون و صناع الاستعمار الفكري " .

هذا فضلاً عن أنه كان عالمًا فى السياسة و الأدب و الاجتماع كما يقول عنه كامل الشماوى و لهذا كان جامعة وحدها و مجمعًا وحده و هو ظاهرة لا تتكرر فى كل قرن من الزمان كما يقول وديع فلسطين .

و يشيد به كل المثقفين العرب فى أسلوبه و بلاغته حتى إنهم يعتبرونه إمامًا من أئمة البلاغة العرب فى هذا العصر . و عن ترجمته لكتاب حضارة العرب يقول طه الهاشمي من بغداد " .... و الله لو لم يترجم عادل زعيتر تلك المجلدات العربية من أمهات الكتب بذلك القلم السيال البليغ ، واكتفى بترجمة كتاب " حضارة العرب " لجوستاف لوبون وحده لكفاه فخرًا و خلودًا .... و يقينى أن خدمته للأمة العربية تفوق أضعافًا مضاعفة خدمات رجال السياسة و الأدب من أبناء العروبة " .

الفصل الأول

الملاحظات الإيجابية فى العقيدة و الشريعة

و يحتوى على :-

- الملاحظات الإيجابية فى العقيدة .
- الملاحظات الإيجابية فى الشريعة .
- شمولية الإسلام .

مقدمة

سأتناول فى هذا الفصل الملاحظات التى تُحسب للمؤلف فى حديثه عن الإسلام عقيدة و شريعة و تاريخ الأمة الإسلامية و رسولها الكريم صلى الله عليه و سلم ، و التى أصاب فيها جوستاف لوبون و أعطى للإسلام والمسلمين حقوقهم فيها ، و أنصف الإسلام فيها ، و لا نعدم الحقيقة فى كثير من تلك الموضوعات فقد أصاب المؤلف فى الكثير من النقاط و المباحث التى تناولها مثل العلاقات الأوضاع الاجتماعية و القضائية فى الإسلام ، وحقوق الرقيق فى الإسلام و أوضاع الأجانب فى ديار الإسلام .

المبحث الأول

الملاحظات الإيجابية فى العقيدة :-

أبدأ بملاحظات المؤلف عن العقيدة و فى هذا البحث نبدأ ببيان معنى العقيدة .

و المعنى اللغوي للعقيدة : فى المعجم الوسيط (١): " الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، و فى الدين : ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله و بعثة الرسل و الجمع عقائد " .

و المعنى الاصطلاحى للعقيدة : " هي الجانب النظري الذى يطلب الإيمان به أولاً و قبل كل شئ إيمانا لا يرقى إليه شك ، و لا تؤثر فيه شبهه ، و من طبيعتها : تضافر النصوص الواضحة على تقريرها ، و إجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مع ما حدث بينهم من إختلاف بعد ذلك فيما وراءه ، و هى أول ما دعا إليه الرسول ، و طلب من الناس الإيمان به فى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، و هى دعوة كل رسول جاء من قبل الله ، كما دل على ذلك القرآن فى حديثه عن الأنبياء و المرسلين " (٢)فيقول الله تعالى: تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (٣). ويقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤) و يقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ...﴾ (٥) و يقول تعالى : ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦). و يقول سبحانه :

١- المعجم الوسيط ، حـ ٢ ، ط ٣ ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٨٥ ، ص ٦٣٧.
٢- الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ط ١٣ ، دار الشروق ، ١٩٨٥ ، ص ٩ ، ١٠.
٣- سورة الأنبياء ، آية ٢٥.
٤- سورة النحل ، آية ٣٦.
٥- سورة الأعراف ، آية ٥٩.
٦- سورة الأعراف ، آية ٦٥.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ...﴾ [1].
ويقول تعالى أيضًا : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ...﴾ [2].

و **يشهد جوستاف لوبون** [3] فى حديثه عن العقيدة أن سهولة الإسلام العظيمة تُشتق من التوحيد المحض و فى هذه السهولة سر قوة الإسلام فيقول : " و تشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، و فى السهولة سر قوة الإسلام ، و إدراكه سهل خالٍ مما نراه فى الأديان الأخرى و يأباه الذوق السليم ، غالبًا ، من المتناقضات و الغوامض ولا شئ أكثر وضوحا و أقل غموضا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد بمساواة جميع الناس أمام الله و ببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها و يدخل النار من يعرض عنها . وأنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة ، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول فى بضع كلمات بسهولة ، وهو بذلك على عكس النصراني الذى لا يستطيع حديثا عن التثليث و الاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدال ويركز الدين الإسلامى على عقيدة التوحيد التى هى لب العقيدة الإسلامية وروح الوجود الإسلامي ، المتمثلة فى الإيمان بإله واحد له الخلق و الأمر و إليه المصير ، و هو رب كل شيء ، و مدبر كل أمر ، وهو وحده الجدير بالعبادة و الشكر و الطاعة لا الجحود والكفر والعصيان [4]. و فى ذلك يقول تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [5].

١- سورة الأعراف ، آية ٧٣.
٢- سورة الأعراف ، آية ٨٥.
٣- حضارة العرب ، ص ١٢٥.
٤- د/ يوسف القرضاوي ، حقيقة التوحيد ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٩٨٠ ، ص ٥.
٥- سورة الأنعام ، آية ١٠٢ ، ١٠٣.

و يقول الدكتور يوسف القرضاوي [1] في التوحيد الأمور به : " إنه توحيد اعتقادي علمي ، و توحيد عملي سلوكي ، و بعبارة أخرى هما توحيدان لا يغني أحداهما عن الآخر : توحيد في المعرفة و الإثبات و الاعتقاد ..... و توحيد في الطلب و القصد و الإرادة . فلا يقبل إيمان امرئ عند الله ما لم يقم بتوحيد الله سبحانه : علمًا و اعتقادًا ، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته و صفاته و أفعاله ، لا شريك له و لا شبيه له ، و لا ولد و لا والد له .

وتوحيده كذلك : قصدًا و عملاً ، بأن يفرده عز وجل بالعبودية الكاملة و الطاعة المطلقة ، و الدال له و الإنابة إليه و التوكل عليه و الخشية منه و الرجاء فيه ... إلخ ".

وقد بنى الدين الإسلامي على اليسر و السماحة في تعاليمه التي جاءت تلبية لطبيعة الإنسان على وجه معتدل ،لا إفراط فيه و لا تفريط [2] و هذا واضح من قول الله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴾ [3] ، و قوله كذلك : ﴿ ...يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ... ﴾ [4] و قوله سبحانه : ﴿ ...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ﴾ [5].

و يقول الرسول صلى الله عليه و سلم " يسروا و لا تعسروا و بشروا و تنفروا " [6] وقوله صلى الله عليه و سلم " إن الدين يسر ، و لن يشاد الدين أحد إلاَّ غلبه ، فسددوا وقاربوا " [7].

و يقر بسماحة الإسلام و يسره و عقلانيته المستشرق توماس أرنولد [8] حيث يقول : : " الإسلام في جوهره دين عقلي ، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الإشتقاقية

١- حقيقة التوحيد ، ص ١٧.
٢- محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ط ٨ ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٢١.
٣- سورة البقرة ، آية ٢٨٦.
٤- سورة البقرة ، آية ١٨٥.
٥- سورة الحج ، آية ٧٨.
٦- رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب " الدين يسر " جـ١ ، ص ٩٣ ، رقم ٣٩ عن أبي هريرة.
٧- رواه البخاري في كتاب العلم ، باب " ما كان النبي صلى الله عليه و سلم يتخوله بالموعظة " ، عن أنس رضي الله عنه ، جـ١ ، ص ١٦٣ ، رقم ٦٩.
٨- سير توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٦.

والتاريخية . فإن تعريف الأسلوب العقلي بأي طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المباديء المستمدة من العقل و المنطق ، ينطبق عليها تمام الانطباق .

و الحق أن محمدًا الذى كان متحمسًا لدينه ، كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ، و نار الإقتناع تلك الصفة القيمة التى بثها كثيرًا جدًا فى أتباعه – قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي و إلهام : على أن هذا النوع من الوحي ليس إلاَّ صورة من العرض و التفسير و إن لدينا كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق و العقل . و تتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين فى الإعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلا لا روح فيه ، فنعتقد فى الله وفى الحياة الآخرة . و هذان المبدأن هما أقل ما ينبغى للاعتقاد الديني ، و هما أمران يستقران فى نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل و المنطق ، و يلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن و إن بساطة هذه التعاليم ووضوحها فهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين و فى نشاط الدعوة إلى الإسلام . و مما لا سبيل إلى إنكاره أن كثيرًا من عقائد اللاهوت و نظمه ، و كثيرًا من الخرافات كذلك ، من عبادة الأولياء إلى استخدام المسابح و التعاويذ قد طعم به الجزعة الرئيسى للعقيدة الإسلامية . ولكن على الرغم من التطور الخصب ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى لتعاليم النبي، حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل ، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة .

وقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية فى عظمة و جلال و صفاء لا يعتريه الذبول . ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ، و إن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسى ، و البساطة الجوهرية فى الصور التى يصاغ فيها هذا الدين و الدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة و غيرة ، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين و كان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد خالية من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هى تبعًا لذلك فى



متناول إدراك الشخص العادي ، أن تمتلك – و أنها لتمتلك فعلاً – قوة عجيبة ، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس.

و قد أصاب المؤلف كذلك حينما أقر صراحة أنه من دواعي انتشار الدين الإسلامى و اقتناع الناس به ليس فى البلاد المفتوحة فحسب ، بل كل من عرف أصول الدين الإسلامى ، و خاصة أنه يدعوا إلى العدل و الإحسان فيقول : " و ساعد وضوح الإسلام البالغ و ما أمر به من العدل و الإحسان كل المساعده على إنتشاره فى العالم ، و نفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام كالمصرين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الدين الإسلام ، كما نفسر السبب فى عدم أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينا ، سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة (١).

و الإسلام من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العالم ، و من أظمها تهذيبًا للنفوس و حملاً على العدل و الإحسان و التسامح ، و إن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة ، تراها مضطرة أن تتحول تحولات ما لتستمر بها الجموع ، و هى لا شك ،دون الإسلام فى شكلها المعدل هذا " (٢).

فمن الأسس التى قام عليها الإسلام الحنيف و حض المسلمين على نشرها و العمل بها " العدل " و قد عرفه ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق : " بأنه فضيلة للنفس تحدث من إجتماع الفضائل الثلاث : الحكمة و العفة و الشجاعة ، و ذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض و استسلامها للقوة المميزة ، حتى لا تتغلب و لا تتحرك نحو مطالبها على سوم طبائعها ، و يحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبدا الإنصاف من نفسه على نفسه أولا ، ثم الإنصاف من غيره له (٣).

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١٢٥ .
٢- نفس المرجع ، ص ١٢٦.
٣- د./ أحمد محمد الحوفي ، من أخلاق النبى صلى الله عليه و سلم ، دار نهضة مصر ، ص ١٠٦.

و هذا يعني إعطاء كل ذي حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ، و مؤاخذة المسيء أو المقصر على قدر إساءته و تقصيره بدون إعنات أو محاباة" (1) و قد حث الله تعالى المسلمين على الأمر بالعدل و الحكم به فيما بينهم : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (2).

ولم يأمر الله سبحانه بالعدل بين المسلمين فحسب ، بل أمر بإقامته أيضا بين الأعداء فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (3) وحتى بين أهل الكتاب كذلك فيقول تعالى: ﴿ ...وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ

١- نفسه.
٢- سورة النساء ، آية ٥٨.
٣- سورة المائدة ، آية ٨.

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ... ﴾ (١).

وقد سار الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا النهج القويم فى إقامة العدل بين المسلمين وغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، و يظهر هذا من موقفه من الأسرى فى غزوات المسلمين ، و موقفه من المخزومية التى سرقت فأقام الحد عليها ، و كذلك موقف الخلفاء الراشدين و الحكام المسلمين فى البلاد المفتوحة ، ووصايا الخلفاء لهؤلاء الولاة لإقامة العدل بين المسلمين ، و لسنا بصدد تفصيل هذه المواقف (٢).

وأما " الإحسان " فهو يعنى الإنعام و التفضل ، و هو الفعل الحسن الذى هو ضد الإساءة(٣). و يقول صاحب منهاج المسلم فى الإحسان : "المسلم لا ينظر إلى الإحسان ، وإنه خلق فاضل يجمل التخلق به فحسب ، بل ينظر إليه و إنه جزء من عقيدته ، و شق كبير من إسلامه ، إذ الدين الإسلامى مبناه على ثلاثة أمور و هى الإسلام و الإيمان و الإحسان ، كما جاء ذلك فى بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم لجبريل عليه السلام فى الحديث المتفق عليه لما سأله عن الإسلام و الإيمان و الإحسان و قال عقب انصرافه ، هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم ، فسمى الثلاثة دينا " (٤).

وفى الحديث الكريم يقول الرسول صلى الله عليه و سلم : " ... قال فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فأن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال: صدقت ..."(٥).

١- سورة المائدة ، آية ٤٢ - ٤٨.
٢- د./ أحمد محمد الحوفي ، من أخلاق النبى ، ص ١٠٧ – ١٠٨ ، على عبد الواحد وافي ، حقوق الإنسان فى الإسلام ، نهضة مصر ص ٦ ، - ١٢.
٣- د./ عفيف طبارة ، روح الدين الإسلامى ، ص ٢٠٧.
٤- أبو بكر الجزائري ، منهاج المسلم ، ص ١٥٢.
٥- الحنبلي البغدادى ، جامع العلوم و الحكم ، ط ٥ ، القاهرة ، دار الحديث ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧ أخرجه الإمام مسلم فى أول كتاب الإيمان باب الإيمان و الإسلام و الإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه و تعالى ، و هذا الحديث من حديث عمر بن الخطاب ٣٦/١ رقم ١ و أخرجه البخاري فى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه و سلم عن الإيمان و الإسلام و الإحسان عن حديث أبى هريرة ١١٤/١ رقم ٥٠.

وقد جاء ذكر الإحسان فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة، فجاء منها مقرونا بالإيمان وتارة مقرونا بالإسلام، وتارة مقرونا بالتقوى أو بالعمل الصالح (1). فالمقرون بالإيمان كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾ (2).

أى بالعودة على المحتاج، وقيل أحسنوا الظن بالله، وأحسنوا فى أعمالكم بامتثال الطاعات ولعله أولى (3) وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (4) وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ...﴾ (5) أى أى أعمالكم سواء كانت لازمة لأنفسكم أو متعدية للغير أى عملتموها على الوجه المستحسن اللائق أو فعلتم الإحسان وما يترتب عليه من ثواب (6) والقرون بالإسلام كقوله كقوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ...﴾ (7) والمقربون بالتقوى فى قوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ...﴾ (8) و تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى فى الجنة، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان (9). ويقول الله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ...﴾ (10) أى إحسان الأعمال والعبادة أي الإتيان بها على الوجه اللائق (11) و وكذلك قول الله تعالى عن المحسنين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ

١- نفسه، ص ٤٢.
٢- المائدة، آية ٩٣.
٣- الألوسي، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، جـ ٢، دار الفكر، ١٩٩٧، ص ١١٨.

٤- سورة الكهف، آية ٣٠.
٥- سورة الأسراء، آية ٧.
٦- الألوسي، روح المعانى، جـ٩، ص ٢٧.
٧- سورة البقرة، آية ١١٢.
٨- سورة يونس، آية ٢٦.
٩- الحنبلي البغدادى، جامع العلوم و الحكم، ص ٤٣.
١٠- سورة النحل، آية ٩٠.
١١- الألوسي، روح المعانى، جـ ٨، ص ٣٢١.

﴿١٢٨﴾ [1] والإحسان هنا بمنزلة السير والسلوك فى الأحوال والمقامات إلى أن ينتهى إلى محو الرسم والوصول إلى مخدع الأنس [2] وقوله تعالى :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3] أي المخلصين فى كل ما يأتون و يزرون يزرون فى أمور دينهم ، وعن ابن عباس هم الموحدون [4] .

وعن الأخلاق فى القرآن يتحدث جوستاف لوبون [5] بموضوعية فائقة وقد أصاب أصاب فى قوله معترفًا بأن الدين الإسلامي يدعوا إلى مكارم الأخلاق التى دعت إليها الديانات السابقة كاليهودية والمسيحية ، ولكن الإسلام فاق هذه الديانات لأن أهله طبقوا هذه الأخلاق وتمسكوا بها على عكس الديانات الأخرى ، فيقول : " أصول الأخلاق فى القرآن طيبة ، فالقرآن يأمر بالصدقة والإحسان والقرى والاقتصاد فى الرغائب والوفاء بالعهد وحب الأقربين واحترام الوالدين وحماية الأيامى واليتامى وبما نجده مكررًا فيه من درء السيئة بالحسنة ، وتتطابق أصول الأخلاق فى القرآن ما ورد فى الإنجيل تقريبًا : بيد أنه لا أهمية كبيرة لدراسة ما في أحد الكتب من أصول الأخلاق ما كانت مبادئ الأخلاق فى كل دين طيبة ، وليست مكارم الأخلاق التى تؤمر بها الأمم، إذًا هى التى تجب معرفتها عند البحث فى شئونها ، بل ينظر إلى ما عملت به منها ، ولا عجب ، فقد دلت المشاهدة على أن مطابقة الأعمال للأقوال ضعيفة جدًا على العموم وقد حاولنا فى الفصل الذى خصصناه فى كتابنا الأخير للبحث فى نشوء الأخلاق ، أن نثبت أن نشأة الدين فى تكوين الأخلاق أمر ثانوي على العموم ، وأن الأخلاق وليدة المنفعة والبيئة والرأى وقواعد الحقوق والإنتخاب الطبيعى والتربية والذكاء و

١- سورة النحل ، آية ١٢٨.
٢- الألوسي ، روح المعانى ، جـ٨ ، ص ٣٨٨.
٣- سورة الحج ، آية ٣٧.
٤- الألوسي روح المعانى ، جـ١٠ ، ص ٢٣٥.
٥- حضارة العرب ، ص ٤٢٨ – ٤٢٩.

ما إلى ذلك ، و قد ذكرنا فيه أن أقدم الديانات لم تنص على أصول الأخلاق ، و أن النص على مبادئ الأخلاق لم يكن   فى غير أديان الهندوس و أديان موسى و عيسى و محمد ، و أن هذه الأديان لم تصنع أكثر من تأييدها لما كان معروفًا ، و أن هذا التأييد قام على الأمل فى الثواب والخوف من العقاب فى اليوم الآخر ، و أن خوف العقاب لم يكن مهيمنا على أكثر الناس ما جعلت تلك الأديان غفران الذنوب أمرًا سهلاً .

ومن أفضل المنازل عند الله سبحانه و تعالى و أكرمها حسن الخلق ومكارمها[1] ولذلك وصف الله سبحانه و تعالى نبيه الكريم بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] كما جمع له مكارم الأخلاق فى قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[3] وقال عليه الصلاة و السلام : " حسن الخلق و حسن الجوار يعمران الديار و يزيدان فى الأعمار" [4] وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : " أحبكم إلى أحسنكم أخلاقا ، الموطؤون أكنافا ، الذين يألفون ويلفون " [5] و عن حسن الخلق قال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوأ الأدواء ؟ قالوا بلى . قال : الخلق الدنى ، و اللسان البذيء . و قال بعض الحكماء : من ساء خلقه ضاق رزقه . و قال بعض البلغاء : الحسن الخلق من نفسه فى راحة ، و الناس منه فى سلامة ، و السيء الخلق الناس منه فى بلاء ، و هو من نفسه فى عناء و قال بعض الحكماء : عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فإن الثواء فيهم قليل [6] .

و هكذا فالإسلام يهدي إلى الأخلاق الفضلى و المثل العليا ، و القرآن الكريم الذى هو دستور المسلمين المنزل من عند الله تعالى الذى يعلم السر و النجوي و ما هو أخفى [illegible]عليم

١- ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، جـ٢ ، دار البيان العربى ، ص ٢٩٠،٢٩١.
٢- سورة القلم ، آية ٤.
٣- سورة الأعراف ، آية ١٩٩.
٤- رواه الأمام أحمد ، رقم ١ - ٢٦٠.
٥- رواه الترمذي فى كتاب البر و الصلة ، جـ٤ ، ص ٣٢٥ ، رقم ٢٠١٨ ، و قال هذا حديث حسن و غريب و التونة : التمهيد و التذليل ، و فراش وطئ لا يوذي جنب النائم ، و الأكناف الجوانب ، أراد الذين جوانبهم و طينة يتمكن فيها من يصاحبهم و لا يتأذى . ابن الأث[illegible] ، النهايه فى غريب الحديث ، جـ٤ ، ص ٢٣٢.
٦- الماوردي ، أدب الدنيا و الدين ، تحقيق حمزة النشرتي و آخرون ، القاهرة ، ص ٢٩٤.

المبحث الثانى

الملاحظات الإجابية فى الشريعة :-

الشريعة فى اللغة: فى المعجم الوسيط ، ما شرعه الله لعباده من العقائد والأحكام و هى الطريقة . و التشريع هو : سن القوانين [1] و على ذلك فهى المنهج ، و فى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ... ﴾ [2] و كذلك ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ... ﴾ [3].

الشريعة فى الاصطلاح : و الشريعة هى النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه ، و علاقته بأخيه المسلم ، و علاقته بأخيه الإنسان و علاقته بالكون ، و علاقته بالحياه . [4].

وفى تعريف آخر : هى كل ما جاء به محمد صلى الله عليه و سلم عن الله عزوجل سواء ما يتعلق بإصلاح العقيدة لتحرير العقل البشري من رق الوثنية و التقليد والخرافات . . . و ما يتعلق بإصلاح الأخلاق لتحرير الإنسان من زيغ الأهواء ، و فتنة الشهوات .

وما يتعلق بإصلاح المجتمع لتحرير الأمة من الظلم و الفوضى و الإستبداد [5]. ومن أجل هذا كله جاءت الشريعة بنظام مدني ينظم علائق الناس بعضهم مع بعض ، وعلائقهم بالسلطة والحاكمة ، و يصون لهم حقوقهم و يؤمن للجميع مصالحهم ، و يحقق فى الأرض عزتهم و سيادتهم [6].

١- المعجم الوسيط ، جـ١١ ، ص ٤٩٨.
٢- الجاثية ، آية ١٨.
٣- المائدة ، آية ٤٨.
٤- محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ص ١٠.
٥- عبد الله ناصح علوان ، محاضرة فى الشريعة الإسلامية و فقهها و مصادرها ، دار السلام للطباعة والنشر ، ص ٩.
٦- نفسه.

و ممـا سـبق يتضـح أن الشريعة تقـوم علـى ثـلاث دعـائم أساسـية : " عقيـدة عقليـة وعبادة روحية ، و نظام قانونى قضائي " و هذا يدل على أن الإسلام من خلال شريعته دين و دولة [١] .

و سميت الأحكـام الإسـلامية بالشريعة لاستقامتها و لشبهها بمـورد المـاء لأن بهـا حيـاة النفـوس و العقـول كمـا أن فـى مـورد المـاء حيـاة الأبـدان . و الشريعة و الـدين و الملـة بمعنى واحد – على رأى – و هو ما شرعه الله لعباده من أحكام و لكن هذه الأحكـام تسمى شـريعة باعتبـار وضعها و بيانها و استقامتها دينـا باعتبـار الخضـوع لهـا و عبـادة الله بهـا وتسمى ملة باعتبار إملائها على الناس " [٢].

و يفسر فضيلة الإمام محمود شلتوت العلاقات فى الشريعة و التى تربط الإنسـان بربـه و بإخوانـه المسلمين و إخوانـه فـى الإنسـانية بالحيـاة كاملـة بأنهـا تتمثـل فـى : أداء الواجبـات الدينيـة كالصـلاة و الصـوم ، و تبـادل المحبـة و التناصـر علـى الـدوام و الأحكـام الخاصة بتكوين الأسرة و الميراث ، و التعاون فى تقدم الحياة العامة و السلم العام ، و حريـة البحث و النظر فى الكائنـات و استخدام آثارهـا فـى رقـي الإنسـان و التمتـع بلذائذ الحيـاة الحلال دون إسراف أو تقشف [٣].

و فى مجال الشريعة تحدث جوستاف لوبون عن المرأة فى الإسلام و إباحة الإسـلام لمبدأ تعدد الزوجات ، و قد دافع المؤلف بموضوعية عن هذه الأوضـاع التـى أقرهـا الإسـلام وأوضح كيف أن الإسـلام قد صـان كرامـة المرأة و حفظ لها حقوقهـا دون الأديـان الأخـرى فيقول : " إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما فى الأديان الأخرى من الصرامة ، و إن ما أباحه

١- عبد الله ناصح علوان ، محاضرة فى الشريعة الإسلامية و فقهها و مصادرها ، دار السلام للطباعة والنشر ، ص ٩.
٢- د./ عرفة سالم حسن سيف الدين ، " دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى " حولية كلية أصول الدين بالقاهرة ، العدد العاشر ، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م ، ص ٣١٧.
٣- الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ص ١٠ هوامش ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦.

القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبا على الشعوب المسلمة التى عرفته قبل ظهور محمد و أن هذه الشعوب لم تجد نفعا جديدًا فى القرآن لهذا السبب " [1] .

ويقول فى موضع آخر : " . . . و أرجو أن يثبت عند القارىء الذى يقرأ هذا الفصل بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوربية جانبا ، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقى فى الأمم التى تقول به ، و يزيد الأسرة ارتباطا ، و يمنح المرأة احترامًا و سعادة لا تراهما فى أوروبا . و أقول قبل إثبات ذلك ، إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصا بالإسلام ، فقد عرفه اليهود و الفرس و العرب و غيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد ، و لم ترا الأمم التى أعتنقت الإسلام فيه نغمًا جديدًا إذًا ، و لا نعتقد مع ذلك وجود ديانة قوية تستطيع أن تحول الطبائع فتبتدع ، أو تمنع مثل ذلك المبدأ الذى هو وليد جو الشرقيين و عروقهم و طرق حياتهم [2] .

ويدافع عن هذا المبدأ قائلاً : "و بما أن التأقلم المؤقت مما يتعزر فى جو الشرق ولا يلائم مزاج الشرقيين ، كان مبدأ تعدد الزوجات ضربة لازب . . . و لا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوربيين ، و أبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه ، و بهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم و نظرهم إلى هذا الإحتجاج شزرًا . و من السهل أن ندرك علل إقرار الشرائع الشرقية لمبدأ تعدد الزوجات بعد أن نشأ عن العوامل الجسمانية المذكورة آنفا ، فحب الشرقيين الجم لكثرة الأولاد و ميلهم الشديد إلى الحياة الأسرية و خلق الإنصاف الذى يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن يكرهوها " [3] .

ويستطرد فى تبريره ودفاعه عن مبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام فيقول : " يتزوج رب الأسرة صغيرًا على العموم ، و تضعف زوجته الأولى بعد أن تكون ذات أولاد كثير على

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١٢٧.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٧.
٣- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٨.

حين يبقى تام القوة فيضطر للزواج مرة أخرى بتحريض الزوجة الأولى غالبًا و بموافقتها تقريبا . . . و قد يعجب المرء أول وهلة من حمل امرأة زوجها على الزواج بمرأة أخرى ، ولكن العجب يزول حينما نعلم أن النساء الإسلامية الزراعية هن الآئى يقمن بشئون المنزل مهما كانت شاقة .

و من ثم ترى أن الزوجة تشير فى تلك الأحوال على زوجها بأن يبنى بزوجة أخرى و لا سيما إذا ما علمت أنها تصنع ذلك حينما تكون آخذة فى الهرم منهمكة فى واجبات الأمومة " [1].

ويستكمل المؤلف دفاعه وإيراده للأسباب التى تدفع الرجل لتعدد الزوجات قائلاً "حبهم للذرية الكثيرة ، ولا عجب ، فالعقم عند الشرقيين من أعظم ما يصاب به إنسان والشرقي إذا ما رزق بضعة أولاد طمع فى زيادة عددهم ، و تزوج نساء أخر وصولاً إلى هذا الغرض " [2].

ويربط المؤلف حديثه عن تعدد الزوجات فى الإسلام بمدى تأثر الإسلام فى المرأة المسلمة وما كرمها به من حقوق جعلها تفوق كل النساء فى العالم ، و فى هذا الموضوع يتحدث المؤلف بموضوعية فائقة من منطلق الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة ووردت فيها آيات كثيرة فى القرآن فيقول : " لم يقتصر الإسلام على مبدأ تعدد الزوجات الذى كان موجودًا قبل ظهوره ، بل كان ذا تأثير عظيم فى حال المرأة فى الشرق ، و الإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعى و شأنها رفعا عظيما بدلاً من خفضها خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى ، و القرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية . . أجل أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوروبا التى قالت به ، ولكنه اشترط أن يكون "للمطلقات متاع بالمعروف " [3].

١- نفسه ، ص ٤٠٠.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٠٠.
٣- نفسه ، ص ٤٠١.

ويقارن المؤلف بين وضع النساء فى المجتمع العربي قبل الإسلام و ما أصابهن من وأد ، و انظر إليهن على أنهن مثل البهائم ، و كذلك فى أوربا العصور الوسطى ، و بين وضعهن فى ظل الإسلام فيقول : " أن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية و ما اقتضته من إحترام المرأة ، و الإسلام ، إذاً لا النصرانية ، هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، وذلك خلافا للإعتقاد الشائع ، و إذا نظرت إلى سنيوارت الأنصاري الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئا من الحرمة للنساء ، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك فى هذا الأمر ، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى و من ذلك ما جاء فى تاريخ غاران لولو هيران عن معاملة النساء فى عصر شارل مان و عن معاملة شارل مان نفسه لهن كما يأتى : " انقض القيصر شارل مان على أخته فى أثناء جدال و أخذ بشعرها وضربها ضربا مبرحا وكسر بقفازه الحديدي ثلاثا من أسنانها " ، فلو حدث مثل هذا الجدل مع سائق عربة فى الوقت الحاضر لبدا هذا السائق أرق منه لا ريب " [1].

و يصل جوستاف لوبون فى حديثه عن تكريم الإسلام للمأة أدى ذلك إلى إشتهار كثيرات منهن فى العالم بكافة فروعه و خاصة فى بلاد الأندلس فيقول : " إن نساء ذلك الزمن – الذى كان للعلم والأدب شأن عظيم فيه ببلاد الأندلس – كن محبات للدرس فى خدورهن ، و كان الكثير منهن يتميزن بدماثتهن و معارفهن ، وكان قصر الخليفة يضم لبنى أى هذه الفتاة الجميلة العالمة بالنحو و الشعر و الحساب و سائر العلوم ، و الكتابة البارعة التى كان الخليفة يعتمد عليها فى كتابة رسائله الخاصة . . . وكانت فاطمة تكتب بإتقان نادر ، و تملك مجموعة شينة من كتب الفن و العلوم ، و كانت خديجة [2]تنظم الأبيات الرائعة وتنشدها بصوتها الساحر ، وكانت مريم تعلم بنات الأسر الراقية فى أشبيلية

١- جوستاف لوبون حضارة العرب ، ص ٤٠٣ .
٢- خديخه المذكورة هنا ليست خديجة بنت خويلد وإنما هى إحدى جوارى عبد الرحمن الثالث فى الأندلس وكانت شاعرة تقرض الشعر .

وكانت راضية نابغة عصرها فى القريض . . . " [1] وغيرهن كثيرات . ولكى يثبت المؤلف بالدليل القاطع أن الإسلام قد كرم المرأة تكريمًا عظيمًا فيقارن بينها وبين النساء فى المجتمعات الأخرى ، فى أسبرطة فى اليونان ، وفى أسبانيا وغيرها من المجتمعات الأخرى التى تحتقر شأن المرأة [2].

ويختم المؤلف حديثه عن المرأة فى الإسلام وتأثير الإسلام على أوضاعها على عكس وضع المرأة فى المجتمعات الأخرى فيقول : " . . . إن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب وأن حب الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع أكثر نموًا فى الأمم القائلة به مما فى غيرها على العموم ، وأن الإسلام حسن حال المرأة كثيرًا ، وأنه أول دين رفع شأنها ، وأن المرأة فى الشرق أكثر احترامًا وثقافة وسعادة منها فى أوربا على العموم تقريبا " [3].

ويتطرق المؤلف بعد ذلك للحديث عن نظام الميراث فى الإسلام ، وقد أصاب حين وصف هذا النظام بالعدل والإنصاف فيقول " وتعد مبادئ المواريث التى نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف ، ويمكن للقارئ أن يدرك هذا من الآيات التى أنقلها منهم ولم يبصر فى القرآن جميع الأحوال التى عالجها المفسرون فيما بعد وإن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى روحها العامة ، ويظهر من مقابلتى بينها وبين الحقوق الفرنسية ، والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات ، اللائي يزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف حقوقا فى المواريث لا تجد مثلها فى قوانيننا " [4].

وفى حقيقة الأمر أن نظام الميراث يعد من النظم التى ينفرد بها الإسلام دون سائر النظم سواء كانت وضعية أم سماوية ، لأنه أعطى سهما لكل وارث من الأهل وكذلك

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٠٤.
٢- نفسه ، ص ، ٤٠٦ – ٤٠٩.
٣- نفسه ، ص ، ٤١٥.
٤- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٣٨٩.

قرر لأجل توزيع التركات نظاما يكاد يكون فريدًا فى نوعه ، و أيضًا لأنه منح الأنثى نصيبا عظيما فى هذا الميراث [1].

وقد بنى الميراث على قواعد أساسية فى الشريعة الإسلامية تتمثل فى :-

أولاً : علاقتى القرابة و الزوجية ، فالقرابة تشمل الآباء و الأبناء و الأخوة والزوجية تشمل الزوج و الزوجة .

ثانيا : إلغاء صفات الذكورة و الأنوثة ، و الصغر ، و الكبر ، فالكل منهم حق الميراث.

ثالثا : أن الأصول والفروع لا يسقطون فى أصل الإستحقاق بحال ما ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية النصيب .

رابعًا : لا إرث للإخوات مع وجود الأبوين و إن كانوا ينزلون بنصيب الأم من الثلث الى السدس.

خامسا : أنه متى اجتمع فى الوارثين ذكور و إناث أخذ الذكر ضعف الأنثى [2] .

وقد فصل القرآن نظام الميراث بين الأهل و الأقرباء فيقول الله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [3]

١- مصطفي الرافعي ، الإسلام نظام إنساني ، ص ٨٢ . فالواضح أن التفاوت فى الميراث بين الرجل والمرأة ، جاء نتيجة للتفاوت بينهما فى الأعباء المالية المفروضة على كل منها شرعا . فلو افترضنا أبا مات و ترك ابنا و بنتا فالأبن يتزوج و يدفع مهرا أو يدخل بالزوجة فيدفع نفقتها على حين تتزوج البنت فتأخذ مهرا ، ثم يدخل بها زوجها فيلتزم بالنفقة و لا يكلفها شيئا و إن كانت من أغنى الناس فإذا كان قد ترك لهما مائة و خمسين ألفا مثلا . أخذ الإبن منها مائة الف و أخته خمسين ، فعندما يتزوج الابن قد يدفع مهرا و هدايا نقدرها بخمس وعشرين ألفا فينقص نصيبة إلى خمسة و سبعين ألف ، فى حين تتزوج البنت فتقبض مهرا و هدايا نقدرها بما قدرنا به ما دفع أخوها لمثلها فهنا يزيد نصيبها خمسة و سبعين ألف فيتساويا .

٢- محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ص ٢٤٢.

٣- سورة النساء ، آية ١١.

ويقول تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١) ويقول سبحانه : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) .

وهكذا وكما يقول الدكتور على عبد الواحد وافي (٣) : " ووضع الإسلام للميراث نظامًا حكيمًا يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا ، ويحول دون تضخمها وتجمعها فى أيد قليلة ، ويفتت رءوس الأموال إلى ملكيات صغيرة ، وذلك أنه يقسم التركة على عدد كبير من أقرباء المتوفى فيوسع بذلك دائرة الإنتفاع بها من جهة و يحول من جهة أخرى دون تجمع ثروات كبيرة فى يد فئة محدودة من الناس . فبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروات الكبيرة التى يتفق تجمعها فى يد بعض الأفراد أن تتوزع ملكيتها بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس وتستحيل إلى ملكيات صغيرة وهذه هى أمثال طريقة لتقليل الفروق بين طبقات الناس وتقريبها بعضها من بعض " .

وقد حذر الله من الأخلال بهذه القواعد فيقول ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

١- سورة النساء ، آية ١٢.
٢- سورة النساء ، آية ١٧٦.
٣- حقوق الإنسان فى الإسلام ، مكتبة نهضة مصر ، ص ٢١ ، ٢٢.

فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[١].

ومن النظم الحضارية التى تحدث عنها المؤلف بموضوعية تامة و أصاب فى تحليله للوضع أو النظام القضائى فى الإسلام القائم على العدل و الإنصاف فيقول : " و نظام القضاء و المرافعات عند المسلمين بسيط إلى الغاية ، أى أنه يقوم بالقضاء قاض منفرد معين من قبل ولي الأمر ، و لا تستأنف أحكام القاضي ، و يحضر الخصوم أمام القاضي بدعوة ، و يترافعون إليه مشافهة ، و يعرضون عليه بيناتهم التى قد تكون على الإقرار أو الشهادة أو التحليف ، فينطق بالحكم حالا ، و قد أتيح لي في مراكش أن أشاهد إصدار هذه الأحكام المختصرة ، فرأيت القاضى جالسا فى الساحة التى هى أما قصر الوالي والخصوم و الشهود حوله جثيا موجزين قضاياهم ، و أحكام القاضى تنفذ فورًا حينما يكون ذلك ممكنا كأن يأمر بجلد المذنب بضع جلدات . أجل قد لا تضمن تلك الطرق البسيطة العدل كما تضمنه طرقنا الأوروبية المعقدة ، ولكنها لا تضيع وقت المتقاضين الثمين على كل حال ، و لا تثقلهم بالنفقات القضائية التى تدفع فى العالم فتخرب بيوتهم غالبا . و تكون أحكام أولئك القضاة عادلة على العموم مع بساطة تلك الطرق ، فروح العدل و الإنصاف نامية كثيرًا فى العرب و يرجع نموها فيهم إلى أن العدل أساس الحياة فى تلك المجتمعات التى لا تزال على الفطرة ، لا إلى أمر القرآن وحده بالعدل على أن العدل من أحسن الفضائل "[٢].

وحديث جوستاف لوبون يتطابق تمام التطابق مع بداية النظام القضائي فى الإسلام ، ففى بدء عهد الإسلام ، لم يكن لجماعة المسلمين من قاض غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كانت الطريقة التى يعتمدها فى القضاء طريقة وجدانية صرفة لا تعقيد فيها و لا فخامة ، بل هى تنحصر فى تنفيذ قول الله تعالى: ﴿... فَٱحْكُم

١- سورة النساء ، آية ١٣ ، ١٤.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١.

بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ (1) وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (2).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحكم بين الناس بما ينزل الله عليه من الوحي ويحضر التخاصمان إليه مختارين ، فيسمع كلام كل منهما ، وكانت طريقته هي الإثبات بالبينة وباليمين وبشهادة الشهود ، وبالكتابة وغيرها (3)، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :"البينة على من إدعى واليمين على من أنكر" (4) ويقول كذلك صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر (5).

ويقول عليه السلام :"إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر(6).

وكان عليه الصلاة والسلام لا يحابي أحد من المتخاصمين ، فأثر عنه عليه السلام أنه قال . . . فإذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فأنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء (7).

والدليل على هذه الأسس التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم للقضاء ، أنه جاء رجلان يختصمان فى مواريث بينهما قد درست ، وليس بينهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلى رسول الله وإنما أنا بشر ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم على ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار . . . فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقي

١- سورة المائدة ، آية ٤٨.
٢- سورة النساء ، آية ٦٥.
٣- مصطفى الرافعي ، الإسلام نظام إنساني ، ص ١٥٨ ، ١٥٩.
٤- رواه الإمام النووي فى الأربعين النوويه ، رقم ٣٣.
٥- رواه ملا على قارى فى الأزرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة ، ص ١٣٤.
٦- رواه البخاري فى كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا أصاب أو أخطأ ، جـ١٣ ، ص٣١٨ ، رقم ٧٣٥٢.
٧- أخرجه أبو داود فى كتاب الأقضية باب "كيف القضاء" جـ ٣،ص٣٠٠، من حديث على رضى الله عنه.

لأخي ! فقال لهما النبي : أما إذًا فقوما فاذهبا فلتقتسما ، ثم توخيا الحق ، ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه " [1].

ومن هذا المنطلق تم وضع الشروط الفقهية و الصفات التي يجب توافرها في القاضي المسلم و خاصةً بعد اتساع رقعة الدولة العربية و الإسلامية و الفتوحات الإسلامية و تمصير الأمصار التي فتحها المسلمون ، و من هذه الشروط :-

[أن يكون القاضي حرًا مسلمًا بالغًا عاقلاً عادلاً عالمًا مجتهدًا] و إلى جانب هذه الشروط اختلفوا في كونه أن يكون قاضيا واحدا في الإقليم أو اثنين ، فاشترط مالك أن يكون واحد ، أما الشافعي فيرى أنه من الجائز أن يكون هناك قاضيان في المصر " إذا رسم لكل واحد منهما ما يحكم فيه [2] كما اشترط البعض الآخر الكفاية الجسدية فلا يكون قد أصابه العمى أو الخرس أو قطع أحد الأطراف [3].

رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في القضاء :-

وقد وضع عمر بن الخطاب في رسائله للقضاة في الأمصار الإسلامية الدستور الذي يسيرون على هديه في الأحكام و يعتبر أساس علم المرافعات في القضاء ، فيقول فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك: أما بعد فالقضاء فريضة محكمة ، و سنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . و سو بين [4] الناس في وجهك و مجلسك و عدلك حتى لا يطمع شريف في حقك و لا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى و اليمين على من أنكر

١- مصطفى الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ . " ألحن بحجته " اللحن الميل عن جهة الاستقامة ، يقال لحن فلان في كلامه اذا مال عن صحيح المنطق ، و أراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجة و أفطن لها من غيره ، و يقال لحنت لفلان اذا قلت له كلام يفهم و يخفى على غيره لأنك تميله بالتورية عن الواضح المفهوم ، و منه قالو لحن الرجل فهو لحن اذا فهم و فطن لما لا يفطن له غيره . ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، جـ ٤ ، ص ٥٦.

٢- ابن رشد القرطبي الأندلسي ، بداية المجتهد و نهاية المقتصد ، حـ ٢ ، دار الكتاب الحديثة ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ابن حزم ، المحلى بالآثار ، حـ ٨ ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، ص ٤٢٧.

٣- منيب محمد ربيع ، ضمانات الحرية في النظام الإسلامي و تطبيقاتها ، سلسلة البحوث الإسلامية ، السنة الرابعة عشر ، الكتاب الثاني القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٥٩.

٤- اعدل وساوى بينهم.

والصلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك و هديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق . فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي فى الباطل . الفهم الفهم فيما إختلج فى صدرك مما ليس فى كتاب و لا سنة ، ثم أعرف الأمثال و الأشباه و قس الأمور بنظائرها ، و اجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينة أخذ بحقه ، و إلا وجهت القضاء عليه فإن ذلك أجلى للعمى و أبلغ للعذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلود فى حد أو مجرما فى شهادة زور أو ظنينا (متهما) فى ولاء أو قرابة . فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر و درأ عنكم بالبينات ، و أياك و القلق الضجر و التأذي للناس والتنكر للخصوم في مواطن القلق التى يوجب الله بها الأجر و يحسن بها الزخر ، فإنه من يصلح نيته فيما بينه و بين الله و لو على نفسه يكفيه الله ما بينه و بين الناس ، و من تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه [1] .

ولأن القضاء هو الأداة المهيمنة الفعالة لحفظ الحقوق و صيانتها فقد ارتكز على العدل ، و اعتبره الإسلام نوعًا من أداء الأمانات [2] فيقول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ... ﴾ [3] ونستنتج من كتاب عمر بن الخطاب إلى القضاة ، أن القضاء فى الإسلام يرتكز على أمور منها : البساطة و الروحانية و الإعتماد فى الغالب على ضمير القاضي و تدينه ، لا على علمه وتعقله [4]. و قد كان القاضى يحكم بما يوحيه إليه اجتهاده ، و خاصة قبل تبلور المذاهب الأربعة ، حيث كان يرجع القاضي إلى الكتاب و السنة فى الفصل فى الخصومات و لم يكن القضاء متأثرًا بالسياسة فقد كان القضاة مستقلين بأحكامهم ، لا يتأثرون بميول

١- د./ حسن إبراهيم حسن ، تارخ الإسلام جـ١ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧.
٢- محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ص ٤٤٨.
٣- سورة النساء ، آية ٥٨.
٤- الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١٦١.

الدولـة الحـاكمـة [1]. و مـن الواضـح فـى كتـاب عمـر رضـى الله عنـه تركيـزه علـى المسـاواة باعتبارها إحدى أهم الركائز التى يقوم عليها النظام القضائي فى الإسلام ، فلا فرق عند القاضي المسلم بين غني أو فقير ، و لا بين قوي أو ضعيف ، و لا بين صاحب المنصب و آحاد الناس .

كما نراه مهتما أيضا بمسألة التحرى الدقيق فى الحكم ، بحيث إذا راجع القاضي نفسه و لم يطمئن قلبه تمام الاطمئنان إلى الحكم الذى أصدره ، فلا يستنكف و لا يمنعه الحياء أن يعود فى حكمه ، لأن مراجعة الحق – كما قال الفاروق رضى الله عنه – خير من التمادي فى الباطل .

وبالجملة ، فإن هذا الكتاب يعد بحق دستورًا متكاملاً للنظام القضائي فى الإسلام و يحتاج إلى مراجعة دقيقة من أصحاب هذا الشأن ، و لا يتسع المجال هنا لاستعراض كافة ما تضمنه من أسس و ركائز للنظام القضائي .

وعلى مر العصور تطور النظام القضائي الإسلامى و أصبح هناك ديوان للقضاء ويقوم بمساعدة القاضي مجموعة من المساعدين و الأعوان لإقرار العدل بين المتظالمين و هم: الحماة الذين كانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء . و كذلك الأعوان الذين يقومون برد الحقوق إلى أصحابها بعد صدور الحكم . والفقهاء الذين يساعدون المسائل الشرعية التى تشكل عليه . فضلاً عن الكَتبة الذين يسجلون الأقوال ، والشهود الذين يشهدون على ما يصدره القاضي من العد والحق [2].

١- نفسه ، ص ١٦٢

٢- نفسه ص ١٦٨ ، ١٦٩.

كما أصاب و أجاد جوستاف لوبون عند حديثه عن الرق فى بلاد الإسلامية ، و لم تمنعه مسيحيته عن الإعتراف بأن الإسلام قد كفل كل الحقوق و الحريات لهؤلاء الرقيق بدرجة أن الأرقاء أنفسهم بوضعهم الممتاز عند المسلمين لم يكونوا يلجأون بأي حال من الأحوال بالمطالبة بالحرية لأنهم يتمتعون بكافة الحقوق التى منحت لهم أكثر من تمتع الأحرار بحريتهم ، فيقول : "و اعترف جميع السياح الذين درسوا الرق فى الشرق درسًا جديا بأن الضجة المغرضة التى أحدثها حوله بعض الأوروبيين لا تقوم على أساس صحيح وأحسن دليل يقال تأييدًا لهذا هو أن الموالي الذين يرغبون فى التحرير بمصر ينالونه بإبداء رغبتهم فيه أمام أحد القضاة و أنهم لا يلجأون إلى حقهم هذا ، قال مسيو إيبر مشيرًا إلى ذلك :"يجب عد الرقيق فى بلاد الإسلام مبخوتا [١] على قدر الإمكان [٢].

ويستشهد على ذلك بكثير من المؤرخين والمؤلفين الغربيين فيقول مسيو شارم : "يبدو الرق فى مصر أمرًا لينًا هينًــا نافعًا منتجًا ، ويعد إلغاؤه فيها مصيبة حقيقية ، ففى اليوم الذى لا يستطيع وحوش أفريقية الوسطى أن يبيعوا فيه أسرى الحرب ، ولا يرون فيه إطعامهم ، لا يحجمون عن أكلهم ، فالرق ، وإن كان لطخة عار فى جبين الإنسانية ، أفضل من قتل الأسرى أكل لحومهم إذا ما نظر إليه من وجهة نظر هؤلاء الأسراى ، و ذلك على الرغم من رأى محبي الإنسانية من الإنجليز الذين يقولون إنه أجدر بكرامة الزنوج أن يأكلهم أمثالهم من أن يسودهم أجنبي " [٣].

وقال مدير مدرسة اللغات فى القاهرة مسيو دو فو جاني : "ترى الأرقاء الذين يستفيدون من الحرية الممنوحة لهم قليلين إلى الغاية مع أن هذه الحرية تسمح لهم بأن يعيشوا كما يشاءون من غير إزعاج ، فالأرقاء يفضلون حال الرق السالم من الجور على

١- المبخوت أي المحظوظ ، المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ٤٢.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٧٧.
٣- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٧٧.

حال القلق الذى يكون مصدر آلام و متاعب لهم فى الغالب . . . و ترى الأرقاء فى مصر أحسن حالا مما كانوا عليه قبل استرقاقهم بدلا من أن يكونوا من البائسين المناكيد و بلغ الكثيرون منهم – و لا سيما البيض – أرقى المناصب فى مصر، و يعد ابن الأمة فى مصر مساويا لابن الزوجة فى الحقوق ، و إذا كان ابن الأمة هذا بكر أبيه تمتع بكل ما تمنحه البكريه من الامتيازات ، ولم تكن من غير الأرقاء زمرة المماليك التى ملكت مصر زمنا طويلاً ، و فى أسواق النخاسة اشترى على بك و إبراهيم بك و مراد بك الجبار الذى هزم فى معركة الأهرام ، و ليس من النادر أن ترى اليوم قائدًا أو موظفا كبيرًا فى مصر لم يكن فى شبابه غير رقيق ، و ليس من النادر أن ترى رجلا فى مصر كان سيده المصرى قد تبناه وأحسن تعليمه و زوجه ابنته " [١].

ويعترف جوستاف لوبون و غيره بأن الرفق بالأرقاء لم يكن فى بلد دون آخر من بلاد الإسلام ولكنه كان فى كل بقعة من بقاع الإسلام ، و يقول : "و ليست مصر القطر الوحيد الذى يعامل فيه الأرقاء برفق عظيم ، أي ما تراه فى مصر ترى مثله فى كل بلد خاضع للإسلام . . . . . و أن الأرقاء عند العرب من الأبناء المدللين أكثر من أن يكونوا من الأجراء " [٢] وهذا دليل قاطع شهد به غير المسلمين على أن الإسلام نفسه هو الذى جاء بالأسلوب الأمثل لمعاملة هؤلاء الرقيق ، و هذه شهادة حق .

فقد كانت القاعدة قبل الإسلام أن الرق مناف لجميع الحقوق المدنية ، فكانا كالنقيضين لا يجتمعان ، فلم يكن الرقيق أهلاً لإجراء أي عقد ، و لا يتحمل أي إلتزام ولا لتملك عقار و لا منقول ، و كل ما كان يقع فى يده عن طريق ميراث أو هبه أو وصية أو غير ذلك كان ينتقل بطريق آلي إلى مالكه ، فكان الرقيق يعتبر فى مثل هذه الحالات مجرد جسر تعبر عن طريقه الملكية إلى سيده ،. و ما كان يجوز أن تكون له أسرة ولا أن يتزوج بعقد كما يتزوج الأحرار [٣].

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٧٨.
٣- د./ عمر عبد العزيز قريشي ، سماحة الإسلام ، جـ ٣ ، ط ١ ، دار الاستقامة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٨٥.

وليس لهم الحق فى تكوين أسرة بالمعنى القانونى الكامل ، كان الإتصال بين ذكورهم و إناثهم لا يعتبر زواجا و إنما كان يتم باختيار مواليهم ، و فى صورة يقصد منها مجرد التناسل و تكاثر عدد الرقيق كما يحدث بين الأنعام [1].

أما الإسلام فقد عمل تدريجيًا على منع الرق ، رغم أن الرقيق قد كثر عددهم فى بداية عهد الإسلام من كثرة الحروب و ما نتج عنها من أسرى ، و قد اختلفت جنسية الأرقاء فى بدء عهد الإسلام و باختلاف الأمم التى حاربها ، فقد حرم الإسلام :

١ – استرقاق المسلمين رجالاً أو نساءً.

٢ – استرقاق الرجال من العرب و لو كانوا غير مسلمين.

٣ – استرقاق المعاهدين و غير المحاربين .

٤ – استرقاق الرجل الحر أولاده من أمة . [2]

و لم يبق إلاَّ الحرب التى كانت مصدرًا أساسيًا من مصادر الاسترقاق ، و قد قيده الإسلام بعدة قيود ، بعد أن ضيق مجال الرق الوراثى . فقد حدد الإسلام أن تكون الحرب بين طائفتين من المسلمين لأن المسلمين لا يسترقون . و أن تكون شرعية بين المسلمين والكفار أو بين المسلمين و المشركين ، و بهذا ألغي الأسر و السبي بالنخاسة والإختطاف فضيق مجال الأسر . و ألاَّ يكون المسلمون فى الحرب معتدين و إذا ما انتصر المسلمون على الكفار و أسروا منهم ، فهم مخيرون فى أن يمنوا على الأسرى بالإطلاق و التحرير بغير عوض أو فدية ، و هكذا أصبح النظام الغالب فى الإسلام هو المن و الفداء ، و قد طبقه الرسول عليه الصلاة و السلام فى أسرى بني المصطلق و فتح مكة و حنين . [3].

تطبيقا لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ... ﴾[4] .

١- نفس المصدر.
٢- مصطفى الرافعي ، الإسلام نظام إنساني ، ص ١٠٩ ، ١١٠.
٣- د./ أحمد محمد الحوفي ، سماحة الإسلام ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ص ٢١١ ، ٢١٢.
٤- سورة محمد ، آية ٤.

كما سار المسلمون على أنه إذا أسلم أسي فقد عصم نفسه و ضمن حريته ، وكذلك إذا دخل عدو محارب دار الإسلام أمن على نفسه من السبي ، و إذا فقد أبطل الإسلام السترقاق بالخطف و ما يشبهه [١].

وهكذا كما يقول الكتور على عبد الواحد وافى أن الإسلام لم يقر الرق إلاَّ فى صورة تؤدي هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج و ذلك بأن ضيق روافده ، بل لم يسمح ببقائها إلاَّ لأجل معلوم ، ووسع منافد العتق إلى أبعد الحدود . و بذلك أصبح الرق كما قلنا أشبه شئ بجدول مثرت مصباته و انقطعت عنه موارده التى يستمد منها الماء : و خليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف [٢].

و يفسر القول السابق منافذ العتق التى حددها و أقرها القرآن الكريم و تتمثل فى ،-

١) أن يجري على لسان السيد بأي صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده سواء كلن قاصدًا أو غير قاصد .

٢) أن يجري على لسان السيد لفظ يفيد " التدبير " أي يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده .

٣) أن يأتي السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته .

٤) أن يكاتب السيد عبده ، و يتفق معه على مبلغ من المال يدفعه له فى مقابل الحصول على حريته ، و قد كفل الإسلام للرقيق مصادر هذا المال فسمح لهم بالمتاجرة ، وحث جميع المسلمين على مساعدتهم و التصدق عليهم ، و تخصيص مبالغ من الزكاة والصدقات و من عقوبات ارتكاب الذنوب و الجرائم لإفتداء الرقيق و تحرير رقابهم للتكفير عن هذه الأخطاء و الذنوب [٣]. و قد قرر الإسلام هذه المنافذ و المصادر ترتيل آيات كثيرة فيقول سبحانه و تعالى : ﴿...وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن

١- د./ أحمد محمد الحوفي ، المرجع السابق ، ص ٢١٢.
٢- حقوق الإنسان فى الإسلام ، ص ١٣٥.
٣- د./ علي عبد الواحد وافي ، حقوق الإنسان فى الإسلام ، ص ٢١٢.

مَالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ...﴾[1] ويقول تعالى فى التفكير عن القتل ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ...﴾[2].

وللتفكير عن إفطار يوم فى رمضان والحنث فى اليمين يقول سبحانه ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ...﴾[3]. وعن كفارة الظهار يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ...﴾[4] ويقول تعالى فى الصدقات وتحرير الرقيق: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ ...﴾[5] كما أمر الإسلام بحسن معاملة الرقيق. فقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[6] وهكذا قرن قرآن الله سبحانه وتعالى حسن معاملة الرقيق ،- وهم ما ملكت أيمانكم - بوجوب عبادته وعدم الشرك به وبوجوب البر بالوالدين.[7]

وفى هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم"[8]. وقال كذلك صلى الله عليه وسلم: " إخوانكم خولكم (أي خدمكم وعبيدكم)

١- سورة النور آية ٣٣.
٢- سورة النساء ، آية ٩٢.
٣- سورة المائدة ، آية ٨٩.
٤- سورة المجادلة ، آية ٣.
٥- سورة التوبة ، آية ٦٠.
٦- سورة النساء ، آية ٣٦.
٧- د./ على عبد الواحد وافى ، حقوق الإنسان فى الإسلام ، ص ١٣٥.
٨- أخرجه الإمام أحمد فى المسند،جـ١، ص ٧٨، وأخرجة أبو داود فى كتاب الأدب، باب حق المملوك جـ٤، ص ٣٤٢ رقم ٥١٥٦.

جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل و ليلبسه مما يلبس"[1].

ومن الآثار أن عمر بن الخطاب لما سافر مع غلامه إلى بيت المقدس ليتفاوض مع البطريرك فى تسليم البلد عقب حصارها بجيش أبى عبيدة بن الجراح لم يكن معه هو وغلامه إلا ناقة واحدة ، فكانا يتناوبان ركوبها الواحد بعد الآخر إلى أن اقتربا من بيت المقدس ، و كان الدور للعبد ، فلم يستنكف خليفة المسلمين من أن يركبه و يسعى خلفه على أقدامه ، و دخلا بيت المقدس على هذه الحال . و قد مر عمر بمكة فرأى العبيد وقوفا لا يأكلون مع ساداتهم ، فغضب و قال لمواليهم مؤنبًا " ما للقوم يستأثرون عل خدامهم " ثم دعا الخدم فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة [2].

كما نهى الإسلام الموالي عن إيذاء عبيدهم و التمثيل بهم ، فيرى ابن حنبل أن العبد يعتق و يصبح حرًا إذا آذاه سيده بدون حاجة إلى حكم حاكم " و يحصل العتق بالفعل كما لو يحصل بالقول . فمن مثل برقيقه و لو بلا قصد ، فجدع أنفه أو أذنه أو نحوهما ، كما لو خصاه أو خرق عضوا منه كما لو خرق كفه ، أو حرق عضوا منه كإصبعه بالنار ، عتق بلا حكم حاكم [3]. وقد روى عن ابن عمر أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه " [4].

و كذلك حمى الإسلام الرقيق من الإعتداء عليهم من أى شخص آخر غير سادتهم وأنهم فى مثل هذه الحالات من الاعتداء بالضرب أو القتل مثلهم مثل الأحرار ، فقد رأى أبو حنيفة أن الحر يقتل بالعبد [5]، هذا انطلاقا و استدلالا بقول الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا

١- أخرجه البخاري فى كتاب الإيمان ، باب ٢٢ المعاصي من أمر الجاهلية و لا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، جـ١، ص ٨٤ ، رقم ٣٠ عن أبى ذر.
٢- على عبد الواحد وافي ، المرجع السابق ، ص ١٣٦.
٣- على عبد الواحد وافي ، هامش ١.
٤- أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب صحبة المماليك و كفارة من لطم عبده، جـ ٣، ص ١٢٧٨،رقم٢٩ وأخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب حق المملوك ، حـ ٤ ، ص ٣٤٤ ، رقم ٥١٦٨.
٥- علي عبد الواحد وافي ، المرجع السابق ، ص ١٣٦.

عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ...﴾[1] واستنباط الحكم من هذه الآية مبني على قاعدة أن " شرع من قبلنا شرع لنا إلاَّ فيما ورد فيه نص " و هذا هو مذهب طائفة كبيرة من الفقهاء على رأسهم الإمام الأعظم أبو حنيفة و يفسر هؤلاء قوله تعالى في:- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ...﴾[2]، بأن المعنى " أن قتل الحر بالحر و العبد بالعبد قصاص، و هذا لا ينفي أن يكون قتل الحر بالعبد قصاصا كذلك لأن التنصيص لا يدل على التخصيص [3].

و فضلاً عن كل ما سبق قد كفل الإسلام الكثير من الحقوق المدنية لهؤلاء الرقيق مثل:-

١ – **حق الحياة** : حرم الإسلام القتل، لا فرق في ذلك بين حر و عبد، فقد قال الرسول صلى الله عليه و سلم : " المسلمون تتكافأ دماؤهم، و من قتل عبده قتلناه" [4]، وغير ذلك مما يثبت أن حياة العبد مقدسة كحياة الحر [5].

٢ – **الحصانة الجسدية** : منع الإسلام تشويه الجسد أو ضربه ضربا مبرحا، و لم يجز إلاَّ ضربه ضربا خفيفا للتأديب [6]، و قد روى أن عبدًا لزنباع جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم مجروح الأنف فسأله عن خبره فزعم أن سيده هو الذى جدع أنفه، فلما ثبت للنبى صدقه قال له " اذهب فأنت حر " [7].

٣ – **الحصانه العائلية** : لقد منع الإسلام من التفريق بين العبد و عائلته [8].

١- سورة المائدة، آية ٤٥.
٢- سورة البقرة، آية ١٧٨.
٣- على عبد الواحد وافى، المرجع السابق، ص ١٣٧، هامش ١.
٤- رواه أبو داود فى كتاب الديات، باب من قتل عبده أو مثل به، حـ ٤، ص ١٤٧، رقم ٤٥١٥.
٥- مصطفى الرافعي، الإسلام نظام إنساني، ص ١١١.
٦- نفسه.
٧- أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى، حـ ٨، ص ٣٦.
٨- مصطفى الرافعي، المرجع السابق، ص ١١٢.

٤ – **حق النفقة** : فرض الإسلام على السيد أن يقدم لعبده كسوته و طعامه بالمعروف فإن كان السيد بخيلاً مقترا على نفسه راجع العبد القاضى ، فقد يلزم سيده بأن يلبسه أحسن مما يلبس و يطعمه أحسن مما يأكل [١].

٥ – **الرفق بالرقيق** : كان النبي صلى الله عليه و سلم يوصى بالأرقاء فيقول : " لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون ، و أطعموهم مما تأكلون ، و يقول : إن الله ملككم إياهم و لو شاء لملكهم إياكم " [٢].

وقد حافظ الإسلام على كرامة الأرقاء و صيانتها ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عند مخاطبة الأرقاء بكلمتي : "عبد و أمة " وطلب من المسلمين أن يستعملوا فى خطاب أرقائهم كلمات : "فتى و فتاة و غلام" ،أما الأرقاء فكان بينهم أن يخاطبوا أسيادهم بـ "يا ربي" ، فالله ربهم [٣]. فعن عمر : جاء رجل ألى الرسول صلى الله عليه وسلم وسلم فقال : يا رسول الله كم أعفو عن الخادم ؟ قال اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة [٤].
(٤)

وعن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلامًا لى بالسوط فسمعت صوتا من خلفى يقول : اعلم يا أبا مسعود ، فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " اعلم أبا مسعود ، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام فألقيت السوط من يدى ، و قلت لا أضرب مملوكا بعده أبدًا [٥] .

المساواة :

وعن المساواة بين البشر فى الإسلام من النواحى الاجتماعية و السياسية فقد أصاب جوستاف لوبون فى حديثه عنها فيقول:"و نختم قولنا فى نظام العرب الاجتماعية

١- مصطفي الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١١٢.
٢- أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى ، حـ ٨ ، ص ٣٦.
٣- مصطفى الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١١٢.
٤- رواه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب حق المملوك ، حـ ٤ ، ص ٣٤٣ ، رقم ٥١٦٤.
٥- رواه الإمام مسلم فى كتاب الإيمان،باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده،حـ٣، ص١٢٨٠،رقم ٣٤.

بأن نذكر أن العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقا لنظمهم السياسية ، وأن مبدأ المساواة الذى أعلن فى أوربا قولاً ، لا فعلاً ، راسخ فى طبائع الشرق رسوخا تامًا ، و أنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التى أدى وجودها إلى أعنف الثورات فى الغرب و لا يزال يؤدى ، و أنه ليس من الصعب أن ترى فى الشرق خادمًا زوجا لابنة سيده وأن ترى أجزاء منهم قد أصبحوا من الأعيان " [١].

ويستكمل حديثه بقوله "... صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يمس رفاهية طبقات العمال ، و تراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التى يسوي بها الإسلام بين الغنى و الفقير و السيد و الأجير على العموم ، و ليس من المبالغة أن يقال ، إذًا ، أن الشعب الذى يزعم الأوروبيون أنهم يرغبون فى إصلاحه هو خير مثال فى ذلك الأمر الجوهري " [٢].

لقد قرر الإسلام المساواة بين البشر فى كل شيء، فلا القيمة الإنسانية ، وفي الحقوق والواجبات ، و أمام القانون ، وفى المنشأ و المصير ، و فى الشعور و الكرامة و كل هذا واضح جلى من خلال الآيات القرآنية التى أنزلها الله سبحانه و تعالى على رسوله الكريم ليضع القواعد الأساسية و المتينة فى التعامل بين الناس فيقول سبحانه ليرد الناس جميعا إلى أصل واحد و نسب واحد : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [٣] و يقول تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [٤].

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩١.
٢- نفسه و ص ٣٩٢.
٣- سورة طه ، آية ٥٥.
٤- سورة المؤمنون ، آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦.

و يقـول سـبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١). و يقـرر سـبحانه أن التفاضـل بـين النـاس يكـون بـالتقوى فيقـول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢)

ويقول تعـالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٣).

و يقول سبحانه و تعـالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) وقد أكد الرسول صلى الله عليه و سلم فى أحاديثه الشريفة على هذا المنهج القويم بأن التقوى و الإيمان همـا درجتـا المفضلة بين الناس فكلهم متساوون فى كل شئ و أصلهم أصل واحد فقال صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع مؤكد ذلك : " أيهـا النـاس : إن ربكم واحد و إن أباكم واحد ، كلكم لآدم، و آدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على أعجمي و لا لأعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، و لا لأبيض على أحمر ، فضل إلاَّ بـالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فـاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب " (٥).

و تقـاول ذات مـرة أبـو ذر الغفـاري و عبـد زنجـي فـى حضـرة النبـى عليـه الصـلاة و السلام فاحتد أبو ذر على العبد و قال له " يا بن السوداء " فغضب الرسول صلى الله عليه و سلم ، و قال " طف الصاع طف الصاع " أي قد تجاوز الأمر حده " ليس لابن البيضـاء على ابـن السـوداء فضـل إلاَّ بـالتقوى أو بعمـل صـالح " . فوضـع أبـو ذر خـده على الأرض ، وقـال للأسـود " قـم فطأ على خدى " (٦). و هكذا لا يصبح اللـون و لا الثـراء و المال ، و لا العصبية

١- سورة الإسراء ، آية ٧٠.
٢- سورة الحجرات ، آية ١٣.
٣- سورة النساء ، آية ١٢٣ ، ١٢٤.
٤- سورة الحجرات ، آية ١٠.
٥- أخرجه الإمام أحمد فى المسند ،حـ ٥ ، ص ٤١١.
٦- ذكره الزبيدي فى إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، حـ ٨ ، ص ٣٧٥.

و لا يصلح أى منها أن يكون أساسا للمفاضلة بين الناس فكل الأمور من الله سبحانه و تعالى هى الأساس للتفاضل و التمايز بين الناس عند الله [١].

فقد أنكر زعماء العرب على النبي عليه الصلاة و السلام مبدأ المساواة الذى بدأ تطبيقه فقالوا له: كيف نجلس إليك يا محمد و أنت تجلس إلى مثل بلال الحبشي وسلمان الفارسي ، و صهيب الرومي ، و عمار ، و سواهم من العبيد و عامة الناس ؟ اطردهم و نحن نحضر مجلسك و نسمع دعوتك . فأبى الرسول صلى الله عليه و سلم ، فقالوا : فجعل لنا يومًا و لهم يومًا ، فكاد أن يجيب رغبتهم [٢]، فنزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [٣].

كما أن الرسول صلى الله عليه و سلم قد ولى " بلال " على المدينة المنورة و فيها كبار الصحابة ، و بلال كان مملوكا [٤] اشتراه أبو بكر و أعتقه ، كما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ولى " باذان " الفارسى على اليمن ، و لما مات ولى ابنه مكانه [٥].

ومن منطلق المساواة الكاملة بين الناس انطلقت العدالة الكاملة بين الناس دون النظر إلى الجنس أو لون أو دين ، فقد اقتص الرسول صلى الله عليه و سلم من نفسه

١- محمد البهي ، الدين و الدولة من توجيه القرآن الكريم ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ، ١٩٨٠ ، ص٢٧١-٢٧٤.
٢- طبارة ، روح الدين الإسلامي ، ص ٢٩٨.
٣- سورة الأنعام ، آية ٥٢ – ٥٤.
٤- كان بلال مولى أبى بكر ويكنى أبا عبد الله ، وكان من مولدى السراة ، واسم أمه حمامة وكانت لبعض بنى جمع . أنظر : بن سعيد ، الطبقات الكبرى ، حـ٣ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ص ١٢٣ . وقد مر أبو بكر ببلال و هو يعذب فاشتراه من أميه بعبد له أسود فأعتقه و أراحه من العذاب و ذكر مشتراه لجامعة ممن أسلم من العبيد و الإماء . أنظر : ابن كثير ، البداية و النهاية حـ ٣ ، دار الفكر العربي ، ص ٥٨.
٥- طبارة ، المرجع السابق ، ص ٢٩٩.

فى غزوة بدر فقد وجد " سوادا " خارجا عن النصف ، فقال : " استوا يا سواد " وطعنه فى بطنه ، فقال له سواد : " أوجعتنى يا رسول الله " فكشف الرسول صلى الله عليه وسلم عن بطنه ، وقال له : استقدمنى " !! هكذا بلا حقوق مقدسة ، وبلا حصانة ، وبلا هيبة مصنوعة ، فالكل فى مجال الحق سواء [١]. وقد نادى الرسول صلى الله عليه و سلم فى الناس قبل وفاته ، قائلاً : " أيها الناس من كنت له ظهرا فهذا ظهري . . . و من كنت أخذت له مالا فهذا مالي " [٢] .

و يجب أن يكون العدل منطلقا من المساواة ، مع ملاحظة أنه لا يمكن أن يتساوى معهم الكافر ، فإذا كان لهم العزة فله الذلة ، و لكن ليس معنى هذا أن يظلم بل نفى له بما عاهدنا عليه إذا أوفى لنا بما عاهدنا عليه [٣]. و قد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول صلى الله عليه و سلم فى هذا المجال ، فقد شكا يهودى عليًا إلى عمر بن الخطاب فى خلافة عمر ، فلما مثلا بين يدى عمر ، خاطب عمر اليهودي باسمه ، بينما خاطب عليًا بكنيته فقال له : أبا الحسن حسب عادته فى خطابه معه ، فظهرت آثار الغضب على وجه علي .

فقال له عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهوديا و أن تمثل معه أمام القضاء على عدم المساواة . فقال على لا و لكننى غضبت لأنك لم تسو بينى و بينه ، بل فضلتنى عليه إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتنى بكنيتى (و الخطاب بالكنية كان أسلوبا من أساليب التعظيم للمخاطب [٤]و أوصى الخلفاء الراشدون كذلك القضاة و الولاة فى الولايات بإقرارالمساواة و العدل بين الناس جميعا [٥] .

١- د./ توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، ط ١ ، دار الوفاء بالمنصورة ١٩٨٨، ص ٥٤٣، ٥٤٤.
٢- أخرجه الطبراني فى المعجم الكبير، حـ ١٨ ، ص ٢٨٠ ، من حديث الفضل عن العباس رضى الله عنه.
٣- د./ سعيد حوي ، الإسلام ، حـ ٢ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٧ ، ص ٦٨.
٤- د./ علي عبد الواحد وافى ، حقوق الإنسان فى الإسلام ، ص ٨.
٥- نفس المرجع ، ص ٦ – ١٣.

المبحث الثالث

شمولية الإسلام :ـ

وعن شمولية الإسلام و نفوذه السياسي و الديني أصاب جوستاف لوبون فى حديثه فى هذا الصدد ، حيث اعترف بأن الإسلام دين و دولة و شامل لكل شيء فى الحياة الإنسانية ، فيقول : " ولا ريب فى أن نفوذ الإسلام السياسي و المدني كان عظيما إلى الغاية ، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة و قبائل متقاتلة دائما ، فلما ظهر محمد و مضى على ظهوره قرن واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى أسبانية و كانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج فى جميع المدن التى خفقت راية النبى فوقها " [1].

ومن هذا الامتداد العظيم للإسلام فى العالم كان يمثل الدستور السياسى والدينى للمسلمين ، فيقول جوستاف لوبون " . . . ولو كان القرآن دستورا دينيا فقط ما كان هنالك كبير محظور ، ولكن القرآن إذا كان دستورًا سياسيا و مدنيا أيضا ، و إذا كان بطبيعته ثابتا بدت عدم المطابقة بينه و بين الاحتياجات الدائمة التحول فى الأمم الثابتة نظمها ، و حالت هذه النظم دون تقدم تلك الأمم التى قيدت بقيود الماضى " [2].

و يستكمل جوستاف لوبون فى حديثه عن الأعياد الدينية التى شرعها الله سبحانه و تعالى للمسلمين ، لم تكن دينية فقط و لكنها كانت مراسم سياسية لِلَمِّ (الجمع) شمل المسلمين فيقول : " و بلغ تأثير الإسلام فى أدق شئون العرب مبلغا تكون معه جميع مراسمهم أعمالا دينية ، و من تلك المراسم أنكحتهم و ختاناتهم التي و صفناها فى فصل سابق و التى ليست فى الحقيقة سوى أعمالا دينية و مدنية معا " [3].

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ١٢٦.
٢- نفسه ، ص ٣٩٤.
٣- نفسه ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢.

و قد لفت الإسلام نظر الإنسان إلى أن الله قد سخر له هذا الكون كله و أن واجبه أن يستخدم عقله فى توظيف كل شىء من أجل خير الإنسان و عمارة الأرض فيقول الله تعالى : ﴿ ۞ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (1) . و يقول سبحانه أيضًا ليعطي الإنسان الفرصة للتفكير و إعمال عقله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (2) .

فالنصوص الدينية فى الإسلام ملزمة للإنسان المسلم فيما يتصل بالأصول والتشريعات الدينية ، و لكن الإنسان له حرية الاجتهاد فى أمور الدنيا (3) وهذا ما أشار إليه النبى صلى الله عليه و سلم فى قوله " أنتم أعلم بأمور دنياكم "(4) .

و يتضح لنا من آيات القرآن الكريم الذى هو دستور المسلمين أن الإسلام فضلاً عن أنه دعوة دينية إلى الحق ، فهو أيضا دستور للسياسة فى شئون الحكم و كل أمور الدنيا فيقول الله سبحانه و تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (5) و يقول تعالى أيضًا ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (6) وقوله سبحانه ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ (7) .

وكذلك فقد تناول القرآن الوسيلة و الكيفية التى يتعامل بها المسلمون مع غيرهم وكيفية القضاء على الفتن ، ومعاملة هؤلاء الذين يعملون على إثارة الفتنة فى المجتمع الإسلامي فيقول سبحانه ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟

١- سورة هود ، آية ٦١.
٢- سورة الجاثية ، آية ١٣.
٣- د./ محمود زقزوق ، الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك ، سلسلة قضايا إسلامية ، العدد ٣٦، وزارة الأوقاف ، ١٩٩٨ ص ٧٠،٧١.
٤- رواه الإمام مسلم فى وجوب الفضائل ووجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا على سبيل الرأى ، جـ ٤ ، ص ١٨٣٦ ، رقم ١٤١.
٥- سورة المائدة ، آية ١٠٥.
٦- سورة الأنعام ، آية ٦٦.
٧- سورة البقرة ، آية ٢٧٢.

إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾(١). وقد جاء القرآن مفصلاً واضحًا فى تعبيره عن مبادئ الحكم: سواء بين المؤمنين، أو بين الناس جميعا، و أن الوحي به حق، يعلمه أولئكم السابقون على الإسلام من أهل الكتاب، كما يعلمه الذين آمنوا به من أمة الرسول عليه الصلاة والسلام (٢)، و يقول الله تعالى فى ذلك: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٣).

وهكذا شملت العقيدة الإسلامية كل أمور حياة الإنسان الدنيوية، فأحكام العقيدة الإسلامية، و هى تتعلق بأمور العقيدة كالإيمان بالله و اليوم الآخر و هذه الأمور الإعتقادية و أحكام الأخلاق، و هى المتعلقة بما يجب أن يتحلى به المسلم، و ما يجب أن يتخلى عنه كوجوب الصدق وحرمة الكذب. كما أن هناك أحكامًا تتعلق بتنظيم علاقة الإنسان بخالقه، كالصلاة والصيام و غيرها من العبادات (٤).

وهناك كذلك أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم و هذه على أنواع :-

١ – أحكام الأسرة من نكاح وطلاق وإرث و نفقه ... وتسمى فى الاصطلاح الحديث بأحكام الأسرة أو قانون الأحوال الشخصية.

٢ – أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد و معاملاتهم كالبيع و الإجارة و الرهن و الكفالة وهى التى تسمى بأحكام المعاملات المعاملية أو القانون المدني.

٣ – أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى وأصول الحكم والشهادة و اليمين و البينات و هى تخل فيما يسمى بقانون المرافعات.

١- سورة النساء، آية ٨٩ – ٩١.
٢- د./ محمد البهي، الدين و الدين و الدولة، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.
٣- سورة الأنعام، آية ١١٤.
٤- د./ عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ط ٣، بغداد، ١٩٧٥، ص ٥٠.

٤ – أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية ، والحقوق التى يتمتعون بها و التكاليف التى يلتزمون بها ، وهذا يسمى بالقانون الدولي الخاص .

٥ – أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى فى السلم والحرب و هذا يعرف بالقانون الدولي العام .

٦ – أحكام تتعلق بنظام الحكم و قواعده ، و كيفية اختيار رئيس الدولة ، و شكل الحكومة و علاقات الأفراد بها ، و يعرف بالقانون الدستورى (١) .

٧ – أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية و مصارفها ، و تنظيم العلاقات المالية بين الأفراد و الدولة ، و بين الأغنياء و الفقراء ، و يعرف بالقانون المالى .

٨ – أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الأفعال المنهى عنها " الجرائم و مقدار عقوبة كل جريمة " . . .

و يسمى بالقانون الجنائي ، و الإجراءات التى تتخذ فى تنفيذ هذه الأحكام والعقوبات للمذنبين يعرف بقانون تحقيق الجنايات أو قانون المرافعات الجزائية (٢).

وقد عبر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذه الشمولية فى الإسلام بقوله :- " إنها الرسالة التى امتدت طولا حتى شملت آباد الزمن " " و امتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم " " و امتدت عمقا حتى استوعبت شئون الدنيا و الآخرة " (٣).

و يعلق على ذلك الدكتور يوسف القرضاوى فيقول : " إنها رسالة لكل الأزمنة و الأجيال ، ليست رساله موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص ، ينتهى أثرها بانتهاءه كما كان الشأن فى رسالات الأنبياء السابقين على محمد صلى الله عليه و سلم . . . و إذا كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر و لا جيل ، فهى كذلك غير محدودة بمكان و لا بأمة و لا شعب و لا بطبقة ، إنها الرسالة الشاملة التى تخاطب كل الأمم ، و كل الأجناس

١- نفسه.
٢- نفسه.
٣- د./ يوسف القرضاوي ، مدخل لمعرفة الإسلام ، ط ١ ، مكتبة وهبة ،١٩٩٦ ، ص ١٥٣.

و كل الشعوب ، و كل الطبقات . . . . و هي كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل ، إنها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه ، و لا لروحه دون جسمه و لا لأفكاره دون عواطفه ، و لا عكس ذلك ، إنها رسالة للإنسان كله : روحه و عقله ، و جسمه ، و ضميره وإرادته و وجدانه . . . و الإسلام رسالة للإنسان كله في كل مراحل حياته ووجوده . . . و أن الإسلام رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة ، و في كل ميادين النشاط البشرى و كل جوانب الحياة " [1].

و يمكن تفسير كل ما سبق عن شمولية رسالة الإسلام من منطلق قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [2]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [3].

و قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4] و كذلك قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [5].

١- د./ يوسف القرضاوي ، مدخل لمعرفة الإسلام ، ط ١ ، مكتبة وهبة ،١٩٩٦ ، ص ١٥٣ ــ ١٥٦.
٢- سورة الأنبياء ، آية ٢٥.
٣- سورة النحل ، آية ٣٦.
٤- سورة الأنبياء ، آية ١٠٧.
٥- سورة الأعراف ، آية ١٥٨.

الفصل الثاني

أثر الحضارة الإسلامية على الشرق و الغرب

و يحتوى على :-

- معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا و العالم .
- أثر الحضارة الإسلامية على الغرب فى الفلسفة .
- أثر الحضارة الإسلامية فى الأدب على الشرق و الغرب
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الغرب فى الكتابة التاريخية.
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الغرب والشرق فى الرياضيات .
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب فى الفلك .
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب فى العلوم الجغرافية .
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق والغرب فى الفيزياء والميكانيكا .
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب فى الكيمياء .
- أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق والغرب فى العلوم الطبية .
- أثر الحضارة العربية والإسلامية على الشرق والغرب فى الفنون والعمارة.

مقدمة

جاء الدين الإسلامي بحضارة رائعة فاقت كل الحضارات السابقة و ذلك لأثر الدين الإسلامي في هذه النواحي الحضارية ، فقد ارتكزت هذه الحضارة على أسس ربانية. و حقيقة الأمر أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من الحضارات السابقة مثل اليونانية و الفارسية و الرومانية و لكنها بلورت هذه الأشياء و كيفتها بما يتلائم مع أسس الدين الإسلامى ، و ذلك لإحاطة العالم الإسلامى بأصحاب هذه الحضارات ، و حتى لا يفوق هؤلاء الناس على المسلمين فى شيء من أسس الحضارات .

ولأن الحضارات القوية فى قواعدها و أسسها هى التى تؤثر فى الحضارات الأخرى ، فقد انتشرت الحضارة الإسلامية فى كافة أنحاء العالم الكائن آنذاك و أثرت فى أهل هذه البلاد و لازالت تؤثر حتى يومنا هذا على الرغم من انحطاط المسلمين أنفسهم وتدهور أحوالهم .

وقد انتشرت الحضارة الإسلامية فى العالم عن طريق العديد من المعابر مثل الفتوحات الإسلامية ، و المدارس و دور التعليم الإسلامية فى البلاد المفتوحة مثل أسبانيا و صقلية ، وعن طريق الحروب الصليبية و حركات التبشير و الإستشراق و غير ذلك من المعابر ، وقد تمثل هذا التأثير الإسلامى فى الحضارات الأخرى فى كافة نواحي العالم وكذلك الأسس الحضارية المادية .



المبحث الأول

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا و العالم :

عاش العرب قبل الإسلام وسط نمط حضارى بسيط خاص بهم ، و لم يتجاوز العادات و التقاليد و الأعراف التى ورثوها عن آبائهم ، و ظلوا كذلك حتى مجيء الإسلام الذى جاء بديانة جديدة و تغيير الأوضاع الدينية و الإجتماعية و السياسية البالية التى عاشوا عليها ، و ليضع للعالم كله أسسًا حضارية زاهرة ترتكز على الشرع الإسلامي .

وخرج المسلمون بعد أن اكتمل الدين الإسلامى من منطقة شبه الجزيرة العربية على ظهور جيادهم يمسكون بالقرآن الكريم فى يد ، و السيف فى اليد الأخرى ، ليقوموا بنشر الدين الإسلامى الذى جاء من عند الله للعالمين ، و ليقوموا بحماية حدود الدولة الإسلامية الناشئة ، و حدثت حركة الفتوحات الإسلامية ، واستقر العرب المسلمون الفاتحون فى بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وشمال أفريقية والأندلس ، وبلاد الهند والصين .

و كانت هذه البلاد تتمتع بحضارات عريقة ، و لذلك تحتم على المسلمين أن يقتبسوا من هذه الحضارات ، فاقتبسوا من العلوم و الفلسفات و السابقة و طوروها بما يتلاءم مع الشريعة الإسلامية ، و ساعدهم على ذلك أهل هذه البلاد سواء الذين دخلوا فى الدين الإسلامى ، أو الذين بقوا على ديانتهم من اليهودية أو المسيحية لأنهم كانوا على دراية باللغات القديمة التى كتبت بها هذه العلوم و الآداب و الفلسفات ، و تطورت الحضارة العربية و الإسلامية و ازدهرت و عمت آثارها على العالم كله .

و انتقلت هذه الحضارة عن طريق معابر عديدة أهمها تمثل فى الفتوحات الإسلامية والبلاد المفتوحة التى استقر فيها المسلمون وخاصة صقلية و الأندلس والتجارة و حركة الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، و قد انتشرت الحضارة الإسلامية واثقلت بهذه السرعة إلى أنحاء العالم نتيجة موقف الخلفاء و الحكام المسلمين من أهل هذه البلاد ، و في

ذلك يقول سيديو [1] و مهما كان الأمر فقد نجح العرب نجاحًا باهرًا فى القيام بدور الوسيط بين مختلف الشعوب من الفرات حتى جبل طارق ، و ساعدهم على ذلك ما امتازوا به من نشاط ليس له مثيل و تسامح عظيم ، و لا سيما تجاه اليهود ......"

فقد توطدت أركان الحضارة الإسلامية و ساعد اهتمام الخلفاء المسلمين فى ظل الازدهار الاقتصادي الذى تمتعت به الدولة الإسلامية على حركة الترجمة والتأليف وغير ذلك من كافة النواحي الثقافية و الحضارية بمعناها الواسع الشامل ، و انتشرت المدارس والجامعات الإسلامية فى كافة العواصم الإسلامية ، و فتحت أبوابها لكل طالبي العلم المسلمين و غير المسلمين الذين يعيشون داخل ديار الإسلام و خارجها فى ظل السماحة الإسلامية ، فجاء طلاب العلم من كل أنحاء العالم ليتلقوا العلم فى المدارس الإسلامية وعلى أيدي العلماء المسلمين ، فنقلوا أسس و مظاهر الحضارة الإسلامية إلى بلادهم التى كانت تعاني الظلام و التدهور الحضاري آنذاك .

فعندما ثبت العرب المسلمون أقدامهم فى صقلية اهتموا بالزراعة ، و أدخلوا كثير من المحاصيل الجديدة مثل القطن و قصب السكر ، و نقبوا فى ثروة البلاد الطبيعية مثل الفضة و الحديد و النحاس و الكبريت ، كما أدخلوا صناعة الحرير إلى البلاد . و انتشرت اللغة العربية و الفن الإسلامى فى الجزيرة حتى بعد خروج المسلمين منها فقد اهتم ملوك النورمان بنواحي الحضارة الإسلامية و قاموا بحماية العرب المسلمين المقيمين فى الجزيرة. [2]

أما أسبانيا فقد فتحها العرب المسلمون فى بداية القرن الثامن الميلادي ، و نقلوها من ظلمة الجهل و الكفر إلى نور العلم و الإيمان ، و اتجهوا نحو إحياء الأرض الميتة و تعمير المدن الخربة و تنشيط التجاة الراكدة و إنعاش الصناعة المتأخرة ، حتى أصبحت الأندلس فى ظل الخلافة الأموية الإسلامية أغنى البلاد الأوربية و أكثرها ازدحاما بالسكان ، و كل

١- تاريخ العرب العام ، ص ٣.

٢- د./ سعيد عاشور ، أوروبا الوسطى ، جـ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٤٨٦ – ٤٨٨.

ذلك عن طريق العلم ، حيث اعتنوا بالآدب و العلوم و الفنون و كافة نواحي الحضارة ونقلوا علوم الشرق إلى الغرب عن طريق استدعاء العلماء المسلمين من الشرق الإسلامي لنشر علمهم هناك كما أرسلوا البعثات إلى الشرق لينهلوا من علومه فى مصر و دمشق وبغداد و بلاد الحجاز [1]

واشتد إعجاب الأسبان غير المسلمين بثقافة المسلمين و حضارتهم ، فاتجهوا إلى دراسة كتب الفقه و الفلسفة الإسلامية ، و الإستفادة من أساليبها اللغوية البليغة ، وفي ذلك يقول أحد الكتاب المسيحين يعيب عليهم فيقول [2]إن إخوانى المسيحين يدرسون كتب فقهاء المسلمين و فلاسفتهم ،لا لتنفيذها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ . و أاسفاه إننى لا أجد اليوم علمانيا يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل ، بل إن الشبان المسيحين الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا يعرفون علما و لا أدبا و لا لغة إلا العربية ، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب فى نهم و شغف ، و يجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة فى الوقت الذى يحتقرون الكتب المسيحية و ينبذونها . . ."

و قد بلغت الحضارة العربية ذروتها بالأندلس فى النصف الثانى من القرن العاشر عندما أصبحت مدينة قرطبة – حاضرة الخلافة الأموية هناك – من أعظم مدن العالم واستمر شعاع الحضارة العربية الإسلامية مضيئًا فى الأندلس فى كافة الميادين الثقافية و الاقتصادية و الفنية ، حتى امتد ليضئ غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وما بعدهما. و قد ساعد على قيام هذه النهضة العظيمة سياسة التسامح التى اتبعها المسلمون تجاه أهل الذمة، فتعلموا اللغة العربية و تتلمذوا على أيدي الأساتذة المسلمين ومن هناك نقلوا مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبى عن طريق الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية ، و استمر هذا الأمر حتى بعد طرد العرب المسلمين من

١- نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ، ٤٨٩.

٢- د./ سعيد عاشور ، أوروبا الوسطى ، جـ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٤٨٩.

الأندلس فشجع الحكام الأسبان المسيحيين على نقل الثقافة العربية و الإسلامية إلى اللغات الأوربية و خاصة الملك ألفونسو الخامس الملقب بالحكيم [1].

ويقول جوستاف لوبون [2] فى تخليد آثار الحضارة الإسلامية فى بلاد الأندلس : "إنه لا يوجد فى أسبانيا المعاصرة من أعمال الري سوى ما أتمه العرب ".

و كذلك مثلت الحروب الصليبية معبرًا هامـا انتقلت عليه الحضارة العربية الإسلامية من بلاد الشام إلى الغرب الأوروبي ، فقد نقل الصليبيون مظاهر الحضارة الإسلامية و أسسها إلى الغرب الأوروبى . و إن كان " الدكتور سعيد عاشور [3] يقلل من أهمية الحروب الصليبية كمعبر من معابر انتقال الحضارة الإسلامية ، فيرى إن الصليبين قد جاءوا الى بلاد الشام محاربين لا طلاب علم ، و لا هم إلاّ الاهتمام بالعمليات الحربية الهجومية و الدفاعية ، و لم تخف وطأة الحرب بين الطرفين إلاّ بطردهم سنة ١٢٩١ م ، و لم يتوقف الحرب طول هذه الفترة إلا فترات قصيرة و سرعان ما تُستأنف ، و هكذا لم يستق الصليبيون فى بلاد الشام للدرجة التى تمكنهم من نقل الحضارة الإسلامية أو استيعابها وينقل عن باركر قوله : " أنه حتى لو توفرت مقومات الحياة العلمية للصليبين الذين أقاموا بالشام فأين لهم بالعلوم التى يأخذون عنها ؟ ذلك عن عصر الحروب الصليبية بالذات امتاز بنوع من النضوب الفكري فى بلاد المشرق الإسلامي ، فقل الإقبال على الفلسفة بوفاة ابن سينا سنة ١٠٣٧ م و الغزالى ١١١١ م ، بل إن الخليفة العباسي فى بغداد أمر سنة ١١٥٠ م بإحراق الكتب الفلسفية و من بينها كتب ابن سينا نفسه ،فهل كان يُنتظر فى مثل هذه الظروف أن نستطيع رسل الغرب الاستفادة من المسلمين وعلومهم؟ " . و لم يستفد الصليبيون إلاّ من العمليات الحربية الإسلامية فحسب .

١- نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٤٨٩ – ٤٩٠.
٢- حضارة العرب ، ص ٢٩٤.
٣- أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٤٨٤ – ٤٨٦.

و لكن المؤرخ العربى المسلم " أسامة ابن منقد " [1] (يوضح لنا مدى الاستفادة العظيمة التى استفادها الفرنجة الصليبيون من الآداب و العلوم و الفنون و الطب و الأدوية من الحضارة العربية الإسلامية ، و أن فترات الهدوء و السلام (الهدنة) بين الصليبين والمسلمين كانت فرصة للاندماج و الاختلاط بين الطرفين و الاطلاع على تقاليد و عادات وطباع كل منها ، و قد نقل الصليبيون علوم و طباع المسلمين ، و لذلك تحسنت طباعهم بعد الخشونة ، و استنارت بلادهم بعد أن نقلوا علوم العرب من بلاد الشام و الأرمن المقدسة إلى الغرب الأوروبى .

و أما التجارة فكانت على درجة كبيرة من الأهمية فى نقل الحضارة الإسلامية إلى العالم كافة ، و الغرب الأوروبى خاصة ، فقد كان العالم الإسلامى فى العصور الوسطى قبله لكل تجارة العالم من الشرق و الغرب ، و خاصة فى فترة الحروب الصليبية عندما استولى الصليبيون على بلاد الشام ، و أصبح التجار الإيطاليون يمثلون الوسيط التجاري بين الشرق و الغرب فنقلوا من الشرق الإسلامي كثيرًا من المصطلحات و العمليات الحسابية العربية إلى اللغات الأوروبية ، و ما زالت هذه المصطلحات موجودة فى العمليات التجارية الأوروبية [2] .

وكما ذكرت من قبل أن الحضارة العربية الإسلامية قد استفادت من الحضارات القديمة فى البلاد المفتوحة و طورتها بما يتلائم مع الشريعة الإسلامية ، و فى ذلك يقول جوستاف لوبون [3]: " و كانت معارف اليونان و اللاتين القديمة أساسا لثقافة متعلمي العرب فى الدور الأول ، و كان هؤلاء كالطلاب الذين يتلقون فى المدرسة ما ورثه الإنسان من علوم الأولين ، و كان اليونان أساتذة العرب الأولين إذًا ، و لكن العرب المفطورين على قوة الإبداع و النشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذى اكتفت به أوروبا فى القرون الوسطى

١- الاعتبار ، القاهرة ، ١٩٧٥.
٢- هيتشكوك و آخر ، الإثر العربى فى حضارة العصور الوسطى ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، ط١ ، دار عين للنشر ١٩٩٩ ، الفصل الأول الخاص بالتجارة.
٣- حضارة العرب ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٤.

فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول" ، و يقرر كذلك أن العرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوهم إلى إنشاء مسجد و إقامة مدرسة فيها، و إذا ما كانت هذه المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة كما في الإسكندرية، و ذلك بخلاف الجامعات التى كانت موجودة فى المدن الكبرى مثل بغداد و القاهرة و طليطلة و قرطبة. .. إلخ.

و عن مناهج العرب العلمية يقول جوستاف لوبون [1] : " لم يلبث العرب ، بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، أن أدركوا أن التجربة و الترصد خير من أفضل الكتب ، و أن العرب هم أول من قام بالتجربة و الترصد ، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ ، و لكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، و قد أبدى هذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، فيقول هنبولد : " إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريبًا و يقول سيديو : " و كان من اعتماد العرب على التجربة أن منح ذلك مؤلفاتهم دقة و إبداعًا و نتج عن هذا المنهج التجريبي أن وصلوا إلى اكتشافات مهمة ، و لم يكتف العرب بذلك فقد قاموا بنشر العلوم أيضا و ذلك من خلال ما أقاموه من جامعات و ألفوه من كتب و بهذا المنهج العلمي الذى اتبعه العرب المسلمون فى العلوم و الآداب و قد سبقوا العالم الحديث فى استخدامه ، بل أخذه عنهم الغربيون ، أصبح للمسلمين حضارة عربية إسلامية خالصة لا تشوبها شائبة ، و نشرت أشعتها على كل العالم الكائن آنذاك فى الشرق و الغرب ، وقد أصاب جوستاف لوبون فى عرض هذا الأثير العربى الإسلامى فى الحضارة على الشرق والغرب ، و كان منصفا موضوعيا فى ذلك حيث يقول : " و ما عجز الأغارقة و الفرس والرومان عنه فى الشرق قدر عليه العرب بسرعة و من غير إكراه ، ومن ذلك أن مصر التي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعانا للمؤثرات الأجنبية ، نسيت ، فى أقل من قرن واحد مر على افتتاح عمرو بن العاص لها ، ماضي حضارتها الذى دام نحو سبعة آلف سنة

١- حضارة العرب ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦.

معتنقة دينا جديدًا ولغى جديده وفنا جديدًا اعتناقا متينا دام بعد توارى الأمة التى حملتها عليه " .

ويتابع قوله فيقول : " وما وفق العرب له فى مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثله فى كل بلد خفقت فوقه رايتهم كإفريقية وسورية وفارس ... إلخ ، وبلغ نفوذهم بلاد الهند التى لم يدخلوها إلاَّ عابري سبيل ، وبلغ بلاد الصين التى لم يزوروها إلاَّ تجارًا ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، وذلك أن جميع الأمم التى اتصل العرب بها اعتنقت حضارتهم ، ولو حينا من الزمن ...... " (١) .

ويوضح جوستاف لوبون النواحي التي تم تأثير الحضارة العربية الإسلامية فيها فى الشرق ، وإن كان قد أخطأ فى استخدام بعض المصطلحات التى لا تتلائم ولا تليق بالدين الإسلامى مثل عامية القرآن وهوتيته الصبيانية فيقول : " ولم يتجل تأثير العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل تجلى فى ثقافته العلمية أيضًا ، ومن ذلك أن المسلمين كانوا ذوي صلات مستمرة بالهند والصين وأنهم نقلوا إليهما قسما كبيرًا من المعارف العلمية ..... ويجب ألاَّ نستنبط من هذا القول نتائج واسعة فإذا كان العرب أفضل من الهندوس علما ، كما هو واضح فإنهم دونهم فلسفة وديانة ، فليس فى عامية القرآن ولا هويته الصبيانية ، التى هى من صفات الأديان السامية أيضًا ، ما يقاس بنظريات الهندوس التى أتيح لى أن أبين عمقها فى كتاب آخر...... (٢) .

هذا عن تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى الشرق ، أما تأثيرها فى الغرب الأوروبي فيوضحه جوستاف لوبون (٣) من خلال المقارنة بين ما كانت عليه أوروبا قبل دخول الإسلام أسبانيا وما كانت عليه من ظلام وجهل وبين ما أصبحت عليه أوروبا فى القرن الحادي عشر وبعده بعد أن ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية ونشرت ثقافتها على العالم كله واقتبسها أبناء الغرب الأوروبي ، وهذا صحيح وواقعي من وجهة

١- نفس المرجع ، ص ٥٦٤.
٢- حضارة العرب ، ص ٥٦٥ ، ٥٦٦.
٣- نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧.

النظر الواقعية . إلاّ أن المؤلف يخطئ إلى حد كبير عندما يقلل من دور الحروب الصليبية فى نقل الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبي ، و قد ناقشنا هذا الموضوع فى الحديث عن معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبى ، فيقول : " نثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم أيضا ، و أن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها ، و الحق أن تأثير العرب ليس أقل منه فى الشرق ، و لكن بمعنى آخر ، فأما تأثيرهم فى الشرق فتراه باديا فى أمر الدين و اللغة والفنون على الخصوص ، و أما تأثيرهم الدينى فى الغرب فتراه صفرًا ، لأن العرب كانوا يتصورون بعد أن يتعلم الأوروبيون اللغة العربية أن ينفتحوا على الدين فيعرفونه خاصة وإن الإسلام لا يكره على الدخول فيه ، و ترى تأثيرهم الفني و اللغوي فيه ضعيفا و ترى تأثيرهم العلمي و الأدبي و الخلقي فيه عظيما ، و لا يمكن أهمية شأن العرب فى الغرب إلاّ بتصور حال أوربا حينما أدخلوا الحضارة إليها ..... إذا رجعنا إلى القرن التاسع و القرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا ساطعة جدًا رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها سنورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، و إن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم فى ديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفسية فى خشوع ، و ذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة . . . . و دامت همجية أوروبا البالغة زمنا طويلاً من غير أن يشعروا بها ، و لم يبد فى أوروبا بعض الميل إلى العلم إلاّ فى القرن الحادى عشر و فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، و ذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا و جوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم ، و لم تكن الحروب الصليبية سببًا فى إدخال العلوم إلى أوروبا كما يردد على العموم و إنما دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا و صقلية و إيطاليا " . [1]

١- حضارة العرب ، ص ٥٦٨.

و يوضح جوستاف لوبون [1] بأمانة و موضوعية كيفية نقل الغرب للحضارة العربية الإسلامية و أسسها إى بلادهم فيقول : " ..... و ذلك أن مكتبا للمترجمين فى طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠ م لينقل أهم العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة (ريمون) ، و أن أعماله فى الترجمة كللت بالنجاح ما بدأ للعرب بها عالم جديد و لم يتوان الغرب فى أمر هذه الترجمة فى القرن الثانى عشر و الثالث عشر و الرابع عشر من الميلاد ، و لم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب ، كالرازي و أبي القاسم وابن سينا و ابن رشد ، . . . إلخ إلى اللغة الاتينية ، بل نقلت إليها أيضا ، كتب علماء اليونان التى كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس و سقراط وأفلاطون و أرسطو و أقليدس و أرشميدس و بطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب كما روى الدكتور لوكلير فى كتابه " تاريخ الطب العربى " ، و الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة إتباع محمد و بفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها ككتاب أبولونيوس فى المخروطات و شروح جالينوس فى الأمراض السارية و رسالة أرسطو فى المجارة ....إلخ و أنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا ، قال مسيو ليبري : " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوريا فى الآدب عدة قرون .

و يقول مسيو رينان : " إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا فى كل شئ ، و أن سان توما مَدين فى جمع فلسفته لابن رشد و أن ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية ظلت مصدرًا و حيدًا ، تقريبا ، للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون متوالية . . . . ".

١- نفس المرجع ، ص ٥٦٨ ، ٥٦٩.

ويخطئ جوستاف لوبون [1] وبجانبه الصواب عندما ينكر أثر القرآن الكريم فى تشكي العلوم والمعارف وأسس الحضارة الإسلامية، ويقارن بين ذلك وبين عدم تأثر التوراة فى العلوم الحديثة، وهذا خطأ وقع فيه المؤلف لأن أسس الحضارة العربية الإسلامية قد ارتكزت على قواعد الشريعة الإسلامية، وقد جاء القرآن الكريم ليلائم الفطرة البشرية ويقومها، فيقول: " ولم يكن للقرآن تأثير فى جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية التى نشروها فى العالم فى خمسة قرون كما أنه لم يكن للتوراة أثر فى كتب العلم الحديث، ولا عجب فالقرآن مجموعة أحكام كان يحترمها العلماء تقريبا لأنها مصدر سلطان العرب، ولملاءمتها احتياجات الجماهير التى ليس لها من طبيعتها أن تكترث للعلوم والفلسفة فى كل زمان إلاَّ قليلا، غير أن العلماء كانو لا يبالغون بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدس (القرآن) من الاختلاف "،

ويذكر جوستاف لوبون [2] عدم تأثر القرآن فى العلوم الإسلامية فى موضع أخر فيقول: " ومما تقدم ننتهى إلى نتيجتين: الأولى هى أنه لم يكن للإسلام كديانة تأثير فى آثار العرب العلمية والفلسفية، والثانية هى أن فضل الشرق فى تأثره فى الغرب يعود إلى العرب وحدهم، وأما الشعوب التى حلت محل العرب وإن اتفق لها شئ من التأثير السياسى أو الدينى، لم يكن تأثيرهم العلمي والأدبي والفلسفي فى غير درجة الصفر".

[كيف لم يؤثر القرآن فى المسلمين أليس هو المتضمن ﴿...وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [3] والقائل ﴿...هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ [4] وفى الحديث " طلب العلم فريضة على كل مسلم " [5] فلو لم يأمر القرآن بالعلم هل كان يوجد عصر الترجمة لما عند الغير من علوم؟ إن القرآن الذى تحدث عن علم الفلك والرياضيات، والبحار والهواء

١- حضارة العرب، ص ٥٦٩.
٢- نفس المرجع، ص ٥٧١.
٣- سورة طه، آية ١١٤.
٤- سورة الزمر، آية ٩.
٥- رواه ابن ماجه فى المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، جـ١، ص ٨١، رقم ٢٢٤.

والمياه والسماء ، ...إلخ أليست هذه مدعاة لتعلم العلم والمزيد منه ؟] . وقد أنصف جوستاف لوبون [1] وشهد شهادة حق فى حق الإسلام والمسلمين حيث يعترف بصراحة أن السماحة الإسلامية وتسامح المسلمين مع غير المسلمين كانا من أهم العوامل التى ساعدت على إنتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي فيقول :. . . وليست المذاهب مصدر عدم التسامح فى الغالب ، بل الأشخاص وكان العرق الغربي من التهذيب والتسامح الذى أقام الدليل عليه فى كل مكان منذ بدء فتوحه ... ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقا فى دور ازدهار حضارة العرب ، وقد أوردنا على هذا غير دليل ، ونسهب فيه ، وإنما نشير إلى ما ترجمه " مسيو دوزى " من قصة أحد علماء الكلام العرب الذى كان يحضر ببغداد دروسا كثيرة فى الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى إلخ ...... ، فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم ، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى أدلة الصادرة عن العقل ، لا الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان فتسامح مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوروبا بعدما قامت به فى ألف سنة من الحروب الطاحنة وما عانته من الأحقاد المتأصلة وما منيت به من المذابح الدينية " .

ثم يقرر جوستاف لوبون [2] صراحة معترفا بأثر الحضارة العربية الإسلامية فى الغرب الأوروبى ، وأن هذه الحضارة كانت الأساس فى النهضة التى حدثت فى أوروبا فى العصر الحديث ثم يقرر كذلك وبإنصاف عوامل الحقد والكراهية الدفينة التى يكنها الغرب الأوروبي للإسلام والمسلمين والتى جعلتهم يحاولون إنكار الحضارة الإسلامية فى الغرب فيقول : " والحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا عدة قرون ، وأنهم عندما كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم ، كما فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية أو يهددون أوروبا بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس ..... وتراكمت مبتسرات للإسلام

١- حضارة العرب ، ص ٥٧٠ ، ٥٧١ .
٢- نفس المرجع ، ص ٥٧٧- ٥٧٩.

والمسلمين فى قرون كثيرة و صارت جزءًا من مزاجنا ، و أوضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحيانا و العميق دائما . و إذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مبتسرنا الموروث الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة إن اليونان و اللاتين وحدهم منبع العلوم و الآداب فى الزمن الماضى أدركنا بسهولة سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم فى تاريخ أوروبا . . . . .

ويستكمل قوله قائلاً : "إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم ، وعن العرب هؤلاء البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثرهم الخلقي أو أن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية و الأدبية و الفلسفية بتأثيرهم الثقافي ، فكانوا مدنين لنا و أئمة لنا ستة قرون " .

و ترجع الأسباب الحقيقية لهذا التأثير إلى الصلات القديمة و العريقة بين العرب وبين أصحاب هذه البلاد ، و يوضح جوستاف لوبون [١] ذلك عن العلاقات العربية الهندية فيقول : " إن علاقة العرب بالهند تعود إلى أقدم عصور التاريخ فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تشك فى وجود بلاد الشرق الأقصى ، و كان العرب يتصلون ببلاد الهند بثلاث طرق أساسية إحداها برية و اثنتان منها بحريتان و كانت هناك مراكز كثيرة يتم فيها تبادل السلع على طول هذه الطرق" .

و عن الصلات بين العرب و بلاد الصين يقول : " كانت صلات العرب ببلاد الصين غير مباشرة حيث كان اتصالهم يتم بواسطة الهنود و لكن صلاتهم المباشرة بها لم تحدث إلا بعد أن أقاموا دولتهم . و كان العرب يتصلون بالصين بطرق برية وطرق بحرية و كان سلوك طريق البر بواسطة القوافل أعظم يسرًا و أكثر استعمالاً و تبادل السلع بين الطرفين[٢] .

١- حضارة العرب ، ص ٥٥٣ ، ٥٥٤.
٢- نفس المرجع ، ص ٥٥٣ ، ٥٥٤.

كما كان للعرب صلات تجارية بأفريقية فيقول جوستاف لوبون [1] أنه كان لعرب المغرب صلات تجارية بأقسام إفريقية الغربية على الخصوص ، و كان لعرب مصر صلات بأصقاع إفريقية الشرقية و الوسطى ، و كان عرب مصر يذهبون إلى بلاد السودان بعد أن يقطعوا الصحراء طلبا للذهب و العاج و الأرقاء ، و بلغ العرب ، فى ارتيادهم إفريقية بقاعًا مهمة ، و منها مدن لم يوفق الأوروبيون المعاصرون لزيارتها ، و كان العرب يصلون إلى السواحل و إلى المناطق الوسطى أيضا " .

ولم تقتصر علاقة و صلات العرب بالشرق فحسب ، و لكنهم اتصلوا بأوروبا كذلك أن العرب كانوا سادة البحر المتوسط و كانوا يرسلون إلى جميع الموانىء الأوروبية الإفريقية المحيطة بهم منتجاتهم الصناعية و الزراعية كالقطن و الورق و الحرير والجلد و أصبحت الموانىء الأسبانية ذات نشاط كبير كما وصلت علاقاتهم و اتصالاتهم بروسيا وما بعدها"[2].

و قد أثر الإسلام تأثيرًا عظيمًا فى العالم الكائن آنذاك و خاصة البلاد المفتوحة وتظهر آثار الحضارة العربية الإسلامية واضحة جلية فى الحضارات و المدنيات الأوروبية والعالمية فى العصر الحديث فى نواحي الحضارة من النواحي الإنسانية فى العلوم، وكذلك العلوم الطبيعية و التطبيقية . و أول مظاهر هذا التأثير يظهر فى أثر اللغة العربية وانتشارها و تحدث أهل البلاد المفتوحة باللغة العربية ، و انتقال الألفاظ و المصطلحات العربية إلى أنحاء العالم عن طريق المعابر التى ذكرتها من قبل ، فيقول جوستاف لوبون[3] فى ذلك " و اللغة العربية من أكثر اللغات انسجاما و هى لاريب ، مختلفة اللهجات فى سورية و جزيرة العرب و مصر و الجزائر و غيرها ، و لم يكن هذا الإختلاف فى غير الأشكال فترى المراكشى يفهم بسهولة لهجة المصريين أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلا ، مع سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات القرى الجنوبية فى فرنسا ، و اسمع

١- نفس المرجع ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥.
٢- جوستاف لوبون ، نفس المرجع ، ص ٥٥٨ – ٥٦٢.
٣- نفس المرجع ، ص ٤٣٩ – ٤٤٢.

ما قاله الرحالة بركهارد الذى يعد حجة فى هذا الموضوع : " تجد اختلافا كبيرًا ، لاريب فى لهجات اللغة العربية العامية أكثر مما في أية لغة أخرى على ما يحتمل .

ولكنه لا يصعب عليك أن تفهمها جميعها إذا ما تعلمت إحداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلوها بها ، و هي الواقعة بين مدينة مغادر (الصويرة) ومدينة مسقط [1] وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثير فى اختلاف تلك اللهجات التى هي عذبة فى أودية مصر والعراق الدنيا ، و جافة فى سوريا و جبال بلاد البربر ، و أعظم مزق ، كما أعلم هو ما بين لهجة المغاربة فى مراكش و لهجة الأعراب بالقرب من مكة فى الحجاز ، و لكن هذا الفرق بين تلك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحي سوآب (جنوب ألمانيا) عن لهجة فلاحي سكسونية (شمال ألمانيا) .

" و أن اللغة العربية قد حلت محل لغات أهل البلاد التى فتحوها و خاصة فى الشرق . . . و لم يشذ سوى الأمم الاتينية الأوربية التى لم تقم اللغة العربية مقام لغاتها القديمة ، و مع ذلك فإن اللغة العربية ذات أثر عميق فى اللغات اللاتينية ، و قد ألف دوزي و انجلمن معجمًا فى الكلمات الأسبانية و البرتغالية المشتقة من اللغة العربية و تركت لغة العرب أثرًا مهما فى فرنيا نفسها ، و ذكر سيديو – و الحق ما ذكر – " أن اللهجات السائدة لولاية أوفرن ، وولاية يموزان الفرنسيتين محشوة بالكلمات العربية ، و أن أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية " .

و يرد جوستاف لوبون على من قالوا بعدم تأثير اللغة العربية فى اللغات الأوروبية بقوله : " و زعم مؤلف أحد المعجمات الاشتقاقية الفرنسية الذى ألف حديثا أن إقامة العرب بجنوب فرنسا لم تسفر عن أي أثر ، لا فى اللهجات ، و لا فى اللغة ، فقلة قيمة هذا الرأى تبدو مما قلناه آنفا ، و من العجيب أن يكرر بعض المثقفين مثل هذا الزعم " .

١- مسقط : هى عاصمة سلطنة عمان ، تقع على سواحل خليج عمان ، و بدأ اتصالهم بالأوروبيين سنة ١٥٠٨ / عندما استولى البرتغاليون عليها و على السواحل المجاورة ، و يقدر سكانها بـ٧٥٠٠٠ نسمة ، منير البعلبكى موسوعة المورد العربى ،م٢،بيروت ، دار العلم للملايين ، ص ١١١٨ .

وقد جاء هذا التأثير من خلال انتشار العرب الذين جاءوا فى جيوش الفتوحات الإسلامية ، وانتشروا فى هذه البلاد ، كما أن كثيرًا من الأسرات العربية قد انتقلت من بلادها فى شبه الجزيرة العربية واستقرت فى البلاد المفتوحة ، وحدث هناك تفاعل اجتماعى وتزاوج بين هذه القبائل وأهالي البلاد الأصليين مما أدى إلى انتشار اللغة العربية التى أصبحت اللغة الرسمية فى البلاد ، وانتشرت أكثر وأسرع من انتشار الدين الإسلامي نفسه ، حيث أصبح غير المسلمين يتحدثون اللغة العربية [1] كما هو الحال في أرض الكنانة .

وقد ارتبط تعلم اللغة العربية في البلاد المفتوحة بعاملين رئيسيين هما : إقبال على الدين وفهمه ، والاهتمام العلمي بنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف . وفى الوقت الذى انتشر فيه الإسلام شرقا وغربا فى فارس ومصر مثلاً ، وكانت الدواوين في هذه البلاد بغير اللغة العربية فقد تم تعريبها لتتلاءم مع المتغيرات الجديدة والتى في مقدمتها الإسلام ، وكان ذلك دعما للغة العربية التى أصبحت اللغة الرسمية فى هذه البلاد ، وفي جعل كثير من أبناء البلاد المفتوحة يجيدونها حتى أصبح بعضهم من كبار كتاب الدولة الإسلامية . وقد اهتموا بها لتوظيفها فى مجالات فنون الأدب لأغراض شخصية لرفع مكانتهم الاجتماعية [2] .

وقد اطلعت شعوب الأعاجم على الإسلام ، وقد أدرك كثير منهم أن الإسلام هو الدين الحق ، وكان الفرس من أسرع الناس استجابة لدعوة الحق ، وفى ذلك يقول توما أرنولد : " على أن سكان المدن وخاصة الصناع وأصحاب الحرف ، وأهل الطبقة العاملة قد حبوا بالدين الإسلامي واعتنقه عدد عظيم منهم فى حماسة كبيرة ، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة " زرادشت " وتقبيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم

١- محمود الحريري ، مصر فى العصور الوسطى ، ط ١ ، دار عين للنشر ، ١٩٩٧ ، ص ٧٠ و ما بعدها.
٢- سعد أبو الرضا، " أثر الإسلام فى انتشار اللغة العربية"، مجلة الأمة ، العدد ٧٥ ، ١٩٨٥ ، ص ٤٦ ـ ٤٧.

الذين ينظرون إليهم أمام القانون باحتقار و إزدراء ، و لما فى اعتناقهم الإسلام أيضًا من تركهم فى الحال أحرارًا و مساواتهم فى المذهب الديني .....

و بالرغم من أنه كانت هناك حركات مضادة ، لكنها أقل من أن تعوق المد الإسلامي عن أن يغمر بقاع المشرق فى ذلك الحين كما أن الأتقاء لم يكونوا يؤمنون بعصبية و لا شعوبية ، و فى هذا الجو الإسلامي الخالص أحب كثيرون اللغة العربية و أقبلوا عليها ، فهى لغة القرآن الكريم و الحديث الشريف وهى لغة الثقافة و العلم فى العالم فى ذلك الوقت ، و هى لغة الأمراء و رجال الحكم وأصحاب الدواوين ، و هي لغة الفاتحين من قبل ، و من بعد لغة القبائل العربية التى استوطنت المشرق و امتزجت بأهله بل لقد مضى القرنان الهجريان الأول و الثاني ، ولا يكاد يكتب فى شرقي الدولة الإسلامية بغير العربية ، و كذلك كان القرن الثالث شهد لهجات و لغات أخرى و لكن كان للعربية ملامح واضحة كثيرة فيها . وكذلك فى مصر كان الارتباط الوثيق بين تقدم الإسلام و انتشاره و تقدم اللغة العربية وانتشارها ظاهرة عامة فى كل الأرجاء التى دخلها الإسلام ، و لقد كانت الوظائف القيادية يتمتع بها المسلمون ، بالإضافة إلى عامل الهيبة الذى يتمتعون به باعتبارهم الحكم ، مما أغرى مجموعة من الأقباط باعتناق الإسلام لينعموا بالمساواة فى ظله . و بما يشملهم من حقوق و رعاية ترد للإنسان كرامته . و في الوقت نفسه وجدنا طائفة أخرى من الأقباط يعتنقون الإسلام و قد جذبتهم إليه تعاليمه الصادقة و روحه الجديدة ، و قد عاش هؤلاء و أولئك عيشة إسلامية كاملة قوامها اللغة العربية فى الصلاة و الحياة الرسمية ، و هكذا كان انتشار الإسلام من أهم عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية فى مصر " .

و فى بلاد الهند للغة العربية أثر كبير على كل لغات و لهجات الهند ، فاستخدم الهنود كثيرًا من الكلمات العربية مع التخفيف فى بعض الحروف مثل حرفي " الصاد والحاء " و أدى هذا إلى التفاعل الحضاري بين الشعوب . ولم يقتصر هذا على استخدام الكلمات العربية فحسب ، بل استخدموا اللغة العربية على نحو التضييق فى المعنى

اللغوي مع تحول كلي فى المضمون ، و لازالت الكلمات العربية باقية على شكلها و نطقها الأصليين [1].

وشهد الغرب كله بمقدرة اللغة العربية و قدرتها على احتواء عناصر الحضارة ولذا فقد حاربها الغرب الأوروبى و أدعاء الإسلام و حاولوا القضاء عليها و لكنها صمدت أمام ضرباتهم ، و فى هذا تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطئ " : و إذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضاربة التى جاءتها من الأجانب الغرباء ومن أبنائها المغتربين تحارنا باللهجات العامية حينا و بالخط الاتيني حينا آخر و تتهمنا بالبداوة و العقد فتعزلنا عن الميدان العلمي لتظل نائية عن روح العصر. أقول إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات فإنها دون ريب تملك القوة و الحيوية و الصلاحية للبقاء ما قاومت به محاولات المسخ و رفضت نبوءة التنبئين لها بالموت ، و قد عبر أحد المستشرقين عن نفس الفكرة قائلاً : إن المنهاج العلمي قد انطلق أول ما انطلق باللغة العربية و من خلال العربية فى الحضارة الأوروبية ، و إن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولي ، و إن استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم فى المستقبل و قد لاحظ عالم إيطالي كبير أن معظم التعابير العربية التى تغلغلت بكيفية مدهشة في لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري و لكن بفضل إشعاع الإسلام [2].

١- سيد محمد منور نينار " اللغة العربية و أثرها على لغات الهند " ، مجلة الأمة ، العدد ٤٨ ، ١٩٨٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥.

٢- عز الدين الخطيب التميمي ، " التآمر على اللغة العربية " ، مجلة الأمة ، العدد العاشر ، ١٩٨١ ، ص ٩٠ ، ٩١.

المبحث الثانى

أثر الحضارة الإسلامية على الغرب فى الفلسفة .

لقد كان للفلسفة الإسلامية أثر كبير فى الفلسفة الغربية ، و يوضح جوستاف لوبون [1]ذلك فيقول : " و باتت الجماهير تمقت الفلاسفة مع ما تم لهم من المقام الأسمى فى جامعات العرب ، و كان الخلفاء يرون أن يدرأوا ما ينشأ عن مذاهب الفلاسفة من الفتن الشعبية فيضطرون فى الغالب إلى نفيهم لوقت معين . . . . و للجماهير ما تعتذر به عن معارضتها للفلاسفة ، فقد نبذ الفلاسفة أكثر حكام الإسلام ، و لم يسلموا بغير العقائد الأساسية كوحدانية الله ورسالة محمد ، ثم كانوا ينشرون أراءهم علنا ويهاجمون بها عقائدهم مؤمنين بعدم الاكتفاء بعرضها على المثقفين . "

ثم يستكمل لوبون[2] حديثه عن المنهج الذى أتبعة الفلاسفة المسلمون واستخدامهم لقواعد الشك و كذلك المنطق و الأسس التى قامت عليها الفلسفة الإسلامية فيقول : "والحق يقضى بالاعتراف للعرب على أنهم أول من أغضى عما نسميه حرية الفكر فى الوقت الحاضر ، فمع ما كان يبديه الفلاسفة من التحفظ الكبير فى كتبهم كانت تبدر منهم فى الغالب ، تأملات مشتملة على جانب كبير من الشك و الارتياب و من ذلك قول أبى العلاء التنوخي الذى عاش فى القرن العاشر من الميلاد يقول : اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، و أخر دين لا عقل له " .

ويضيف قائلا : " ثم رأى فلاسفة العرب أن يفصلوا الدين عن الفلسفة مراعاة للجماهير ، و أجمل الفيلسوف الغزالي ، الذى كان يدرس فى القرن الحادي عشر من الميلاد فى بغداد ، ما انتهوا إليه فى الكلمة الآتية : ليست الحقائق التى يؤيدها العقل كل ما في الأمر ، فهناك من الحقائق ما يعجز إدراكنا عن الوصول إليها ونحن نقول بها و إن كنا

١- حضارة العرب ، ص ٤٤٢.
٢- نفس المرجع ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤.

لا نقدر على استخراجها بقواعد المنطق و بالأصول المعروفة ، و ليس مما يخالف الصواب وجود افتراض قائل بوجود دائرة أخرى فوق دائرة العقل . و إن شئت فقل دائرة التجلي الرباني ، و نحن إذ كنا نجهل سنن تلك الدائرة و نواميسها جهلاً تامًا نجد الكفاية فى قدرة العقل على الاعتراف بإمكانها (١) .

و عن صيت الفلاسفة العرب و أثره فى أوروبا يقول جوستاف لوبون : " و أبعد فلاسفة العرب صيتا هو الفليسوف الشهير ابن رشد الذى كان له أعظم تأثير فى أوروبا أجل يعد ابن رشد ، عادة شارحا لفلسفة أرسطو فقط ، و لكننى أرى أن هذا الشارح سبق أستاذه فى بعض الأحيان سبقا يثير العجب ، و أن فلسفته مقبولة فى كثير من الأمور أكثر من تلك ، و إذا لم يكن ابن رشد مفكرًا حرًا بالمعنى العصري على ما يحتمل فإنه فكر بحرية عظيمة فى بعض الموضوعات : و تدل تلك العبارة الآتية التى أنقلها من كتاب مسيو رينان حول خلود الروح و قواعد الأخلاق على عظيم استقلال ابن رشد قال رينان : " يرى ابن رشد أن العقل العام المطلق باق على البدن قابل للانفصال عن الجسم و أن العقل الفردي فان مع البدن " .

يخطئ جوستاف لوبون (٢) و قد جانبه الصواب عندما فسر قول ابن رشد عن أقاويل العامة عن الآخرة و النظر إلى الفضيلة على أنها وسيلة للسعادة بأنه ينكر الخلود و البعث و الثواب و العقاب ، و هذا خطأ ، فيقول : " و ينكر ابن رشد الخلود و البعث ويصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثوابًا غير ما يلاقي فى هذه الحياة الدنيا بكماله الخالص ولم يخفف ابن رشد نفوره من أقاويل العوام عن الحياة الآخرة ، و هو يذهب إلى أنه يجب أن يعد من الأوهام الخطرة نظر المرء إلى الفضيلة وسيلة للسعادة لما يتضمنه ذلك من الإنكار للفضيلة نفسها ......" (٣)

١- حضارة العرب ، ص ٤٤٤.
٢- نفس المرجع ، ص ٤٤٥.
٣- نفس المرجع و الصفحة.

وعلى أية حال فقد انتقل من الفكر الإسلامي للفكر الغربي نظريات و أفكار فلسفية متنوعة ، فقد أبدى "بيكون" (١) و "كاردان" (٢) عظيم الاهتمام بأبحاث "الكندى"(٣) و أفكاره ، و وافق كاردان الكندى على قوله بوحدة العالم و ارتباطه ، كما تأثر "كانت" (٤) بمدرسة الكندى الفلسفية عن مصادر المعرفة التي هي : الحواس ، و العقل ، والخيال.

كما كان لمنطق الفارابي عظيم التأثير على الباحثين الأوروبيين الذين عنوا بالمنطق وقد أخذ موسى بن ميمون (٥).

١- والقوة العاقلة في نظر ابن رشد فيها كل شئ كائن فاسدة فالعقل الهيولاني الذى هو من المعقولات بمنزلة المادة الأولى من الموجودات يجب أن يكون أزليا ، أما الصور الخيالية فهي كائنة فاسدة و ما يقال عن العقل الهيولاني يقال كذلك عن العقل بالمملكة فإن فيه جزءا فاسد و هو فعله أما هو في ذاته فهو خالد لأنه يدخل علينا من خارج ، و أما العقل الفعال الذى ينقل العقل الهيولاني من حال القوة إلى حال الفعل فهو أزلي و مفارق " و جملة القول " أن في النفس عند ابن رشد جزءا واحد مفارقا و خالدا و هو العقل أما سائر أجزائها الغاذية و الحساسة و النزوعية و المخلية فهي كائنة و فاسدة فلا بقاء إذن إلا للعقل هيولانيا كان أو فعالا ، أما النفوس الفردية فإنها فاسدة . " أنظر جميل صليب ، تاريخ الفلسفة العربية بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٥٠٠.

٢- بيكون : هو فرنسيس بيكون ، فيلسوف إنجليزي تعلم في كمبردج ، ولد سنة ١٥٦١ م ودرس المحاماة و شارك في الحياة السياسية و الوطنية لمساعدة عمه لورد بيرجلي ، توفي سنة ١٦٢٦ م ، وقد عين وكيلا للنائب العام سنة ١٦٠٧ م في عهد جيمس الأول ثم نائبا عاما عام ١٦١٣ م ، و في عام ١٦١٧ عين حافظا لمخاتم الأعظم ، و عين أخيرا قاضيا القضاة سنة ١٦١٨ م ، و تزيد مؤلفاته عن ١٤ مؤلفا موسوعة أعلام العرب والأجانب ، جـ ١ ، مراجعة جورج نخل ، بيروت ، ص ٣٠٥.

٣- كاردان : فيلسوف و طبيب و رياضي إيطالي ، ولد في بافيا سنة ١٥٠١ م ، و توفي في روما سنة ١٥٧٦ م و هو ابن غير شرعي لكلارا ميشاري و للقاضي فازيو ، و كان صديقا للفنان الإيطالي ليوناردو دى فينشي ، و حصل على الكتوراه في الطب النفسي سنة ١٥٢٦ م ، و في عام ١٥٦٠م أصابته ضربة عنيفة من أعدائه مما جعله يترك المكان إلى بولونيا و يحصل على كرسي في كليتها سنة ١٥٦٢ م ، و أودع السجن فترة ١٥٧٠ م بتهمة تسمية برج يسوع المسيح و منع من إلقاء المحاضرات ثم تصالح مع البابوية سنة ١٥٧١ م . أنظر : موسوعة أعلام الفلسفة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢.

٤- الكندى : هو أبو يوسف يعقوب بن أسحق الكندي ولد بالكوفة سنة ١٨٤ هـ ، و درس بالبصرة وبغداد علوم الدين و اللغة و الفلسفة و الرياضيات و الطبيعيات و الفلك و الطب و الجغرافيا و الموسيقى وحاول التوفيق بين الفلسفة و الدين ، و توفي سنة ٢٥٠ هـ . أنظر : موسوعة أعلام الفلسفة و الأجانب جـ ٢ ، ص ٢٧٧.

٥- كانت : هو ايمانويل كنت ، ولد في مدينة كبنسبيرج بروسيا سنة ١٧٢٤ م ، ودرس في معهد فريدريك الكلاسيكيات الرومانية، و توفي سنة ١٨٠٣ م. أنظر : عبد الرحمن بدوي ، ايمانويل كنت، ط الكويت ص ٧ ، ٨ ، ٢٧.

كما كان لمنطق الفارابي عظيم التأثير على الباحثين الأوروبيين الذين عنوا بالمنطق وقد أخذ موسى بن ميمون [١] عن الفارابي [٢] نظريته للتدليل على وجود الله . التي أخذها عنه " توما الاكويني " [٣]. و أخذها من بعده [٤].

وقد بلغ تأثر العرب في جامعات أوروبا من الاتساع ما شمل معه بعض المعارف التي لم يحققوا فيها تقدما مهما كالفلسفة . فكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في جامعات أوربة منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، و لما حاول لويس الحادي عشر [٥] تنظيم أمور التعليم سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي و مذهب أرسطو ولهذا كانت المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثراً منطقيا للمبادئ التي جاء بها محمد صلى الله عليه و سلم : فإلى ابن رشد يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي [٦].

وإن كان فقهاء المسيحية قد أبغضوا " ابن رشد " لإتهامهم إياه بالنزعة المادية وإنكار خلود النفس الفردية ، لكنهم كانوا يستريحون إلى " ابن ماجة " [٧] و " ابن

١- موسى ميمون : و لد سنة ٤٨٠ هـ ، و تتلمذ على يد الكثير من علماء الإسلام ، و هو صاحب " كتاب دلالة الحائرين " ، و توفى سنة ٥٩٥ هـ . أنظر الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٥.

٢- الفارابي : هو شيخ الفلسفة الحكيم ، أبو النصر محمد بن طرخان بن أوزاغ التركي الفارابي النطقي كان من أصل تركي تعلم اللغة العربية بالعراق، ودرس المنطق، وبرع في الفلسفة والكيمياء والقانون والرياضيات، و له مصنفات كثيرة في هذه العلوم، و توفي سنة ٣٣٩هـ عن ثمانين عاما. أنظر : الذهبي سير أعلام النبلاء ، جـ ١٢ ص ٨٢.

٣- الإكويني : هو توما الإكويني ، و قصد روكازيكا قرب اكوينوين نهاية ١٢٢٤ م على مقربة من تراشينا ١٢٧٤ م ، وقضى حياته فيلسوفا و لاهوتيا ، ونذر نفسه في بداية شبابه للخدمة في ديرمون كاسان حيث قصد باريس حتى سنة ١٢٤٥ م. و في ١٢٢٨ م ترك باريس ليرافق معلمه المكلف بإدارة مؤسسة تابعة للرهبنة في كولونيا و بقي هناك حتى سنة ١٢٥٢ م و توفى سنة ١٢٧٤ م ، و بلغت مؤلفاته ٢٥ مؤلفا أنظر : موسوعة لأعلام الفلسفة العرب و الأجانب ، جـ١ ، ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩.

٤- د./ احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ ٤، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٤، ص١٠٨.

٥- لويس الحادى عشر: هو ملك فرنسا، عمل على تقوية فرنسا و توحيدها بعد حرب الأعوام المائة ورأسى دعائم الملكية المطاقة في بلاده ، و نقم عليه الشعب بسبب الضرائب التي أرهقهم بها .أنظر : منير البعلبكي ، موسوعة المورد العربية ، م٢ ، بيروت ،ص ١٠٤٩.

٦- اتين دينين ، محمد رسول الله ، ترجمة د. عبد الحليم محمود ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٣٤٣.

٧- ابن باجة : هو فيلسوف الأندلس أبو بكر محمد بن يحي بن الصائغ السراقطي الشاعر ، كان يضرب به المثل في الذكاء ، و برع في الطب و الموسيقى و الفلسفة ، ومات بفاس سنة ٥٣٣ هـ. أنظر الذهبي سير أعلام النبلاء ، جـ١٤ ، ص ٥٥٩.

الطفيل"[1] لأنهما يؤمنان بالإشراق و المعرفة التى تستلهم بالتأمل و الرياضة . و قد ظهرت توجيهات هذين الفيلسوفين المعتدلين فى آراء القديس " توما الإكوينى " و " ألبرت الكبير " و لم تخف مع ذلك توجيهات " ابن سينا " نفسه فيما كتبه ألبرت الكبير عن " المعرفة " على الخصوص . بل بقيت لابن رشد أيضا توجيهاته القوية فى مدارس الفلسفة الأوروبية قرونا عدة بعد تحريم كتبه و إشهار هذا الحرمان فى العالم المسيحي كله [2].

ويعترف الغربيون بأن " محي الدين عربي " [3] كان له أثر كبير فى عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده .

ويرى " أسين بلاسيوس الأسبانى " [4]أن نزعات دانتى [5]الصوفية و أوصافه لعالم لعالم الغيب مستمدة من محي الدين بن عربي بغير تصرف كثير . كما أن الفيلسوف جوهان اكهارت الألماني " قد درس فى جامعة باريس التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم ، كما درس كل من " سبينوزا " [6] و" رايموندلول " فلسفة

١- ابن الطفيل : هو أبو القاسم عبد الرحيم بن يوسف بن هبة الله بن محمود بن الطفيل الدمشقي المصري عرف بابن المكبسي الصوفى ، تتلمذ على يد الكثير من العلماء فى العالم الإسلامي ، توفي سنة ٦٣٧ هـ و قد ولد سنة ٥٥٥ هـ ز أنظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ص ٣٦ ، ٣٤٥.

٢- عباس العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للمكتبات ، ١٩٩٨ ، ص ٧٧.

٣- محى الدين العربي : هو محمد بن على بن أحمد بن عبد الله ، الشيخ محي الدين أبو بكر الطائى الحاتمى الأندلسي ، المعروف بابن عربي ، صاحب التصنيفات فى التصوف و غيره ولد سنة ٥٦٠ هـ بمدينة مرسية بالأندلس ، و رحل إلى بغداد و مكة و دمشق و بلاد الروم للتعلم . محمد بن شكر الكتبى ، فوات الوفيات ، تحقيق دز احسان عباس ، بيروت ص ٤٣٦.

٤- آسين بلاسيوس : كاهن أسبانى ، مستشرق ، ولد فى سراقطة ، عضو المجتمع العلمى فى دمشق، اشتهر بدراسة حركة التفاعل الثقافي بين المسيحية و الإسلام . علم العربية فى جامعة مدريد ،له دراسات عن الغزالى و ابن حزم ، و دانتى ، و ابن الطفيل ، و ابن باجة . أنظر : لويس المعلوف ، المنجد فى الإعلام ط ١٠ ، بيروت ، ص ٤٧.

٥- دانتى : كبير شعراء إيطاليا ، من أهم مؤلفاته " الكوميديا الإلهية " التى تأثر فى كتابتها بالإسراء والمعراج . أنظر البعلبكي ، موسوعة المورد العربية ، م ١ ، بيروت ، ص ٤٨٤.

٦- سبينوزا باروخ : ولد فى أمستردام سنة ١٦٣٢ م وتوفى فى لاهى سنة ١٦٧٧ م ، و هو فيلسوف هولندى ابن تاجر يهودي ، و حياته صاخبة بالأحداث والتأمل فى الفلسفة ، و من مؤلفاته فى الفلسفة " مبادئ الفلسفة الديكارتية " ، مبرهنا عليها بالطريقة الهندسية – تأملات ميتافيزيقية – رسالة وجيزة فى الله والإنسان و هنائه – رسالة فى الأخلاق – الرسالة اللاهوتية السياسية – فى إصلاح العقل . أنظر : موسوعة أعلام الفلسفة ، ط ١.

ابن عربي وقامت فلسفتهما على أسسها [١]. و هكذا كان أثر المسلمين فى التفكير الفلسفي لأوروبا عظيما حتى قال " ترند " إن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الأوروبي هو أعمال فلاسفتهم .

والمعروف أن المشرق الإسلامي شهد نشاط بعض كبار الفلاسفة مثل الفارابي والكندي و ابن سينا [٢] .

وكان تأثير الفلسفة الإسلامية فى الفكر الغربي مركزه الأساسى أسبانيا ، فقد تمت ترجمة أعمال الفارابي و ابن سينا و الغزالي [٣] عن طريق الأندلس فى طليطلة [٤] تحت إشراف ريموند أسقف المدينة و قد ساعد على ذلك الصلات الفكرية و العلمية بين الشرق و الغرب الإسلاميين و وحدة اللغة العربية فى جميع أنحاء العالم الإسلامي [٥].

١- عباس العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للمكتبات ، ١٩٩٨ ، ص ٧٨ و ما بعدها.

٢- ابن سينا : هو علامة الشهير الفليسوف أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن على بن سينا البلخي ثم البخاري ، صاحب التصانيف فى الطب و الفلسفة والمنطق ، وكان أبوه كاتبا من دعاة الإسماعيلية ، وتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٣ ، ص ٣٤٤.

٣- الغزالى : هو الشيخ الأمام البحر حجة الإسلام أعجوبة الزمان زين العابدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي . كان فقيها عظيما ، تجول فى نيسابور و مكة ، وبرع فى علم الكلام ، و توفي سنة ٥٠٥ هـ ، و من مؤلفاته : تهافت الفلاسفة ، و تهافت التهافت ، و إحياء علوم الدين. أنظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٤ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١.

٤- طليطلة : مدينة فى أواسط أسبانيا ، استولى عليها الرومان سنة ١٩٣ ق . م ، و فتحها العرب سنة ٧١٢ م و ازدهرت فى عهد المسلمين ازدهارا كبيرا ، ثم استردها الأسبان سنة ١٠٨٥ م ، انظر : البعلبكي ، موسوعة المورد العربية ، م٢ ، ص ٧٤٢.

٥- د./ سعيد عاشور ، أوروبا الوسطى ، جـ ٢ . ص ٤٩٧ ، ٤٩٨.



المبحث الثالث

أثر الحضارة الإسلامية فى الأدب على الشرق و الغرب :

كان للعرب المسلمين أثر كبير على الشرق و الغرب سواء كان فى البلاد المفتوحة وحكمها المسلمون أو البلاد التى اتصلت بالمسلمين و دور العلم الإسلامية فى جميع العلوم الإنسانية و التطبيقية و نفرد هذا المبحث على الأثر العربي فى الأدب فى الشعر و الرواية والقصة ، و يؤكد جوستاف لوبون [١] حيث يقول : " و نال الشعراء نفوذا كبيرًا بفضل حب العرب للشعر فكان الشعراء يحركون المشاعر و يرفعون أقواما و يخفضون آخرين كما يشاءون ، و كان من نفوذهم أن منحت قريش الشاعر الأعشى مائة جمل حملا له على عدم نشر قصيدة مدح النبي بها ..... و داوم العرب على قرض الشعر دوام حضارتهم ، و إن لم يسبقوا المستوى الذى وصل إليه قبل النبى ، و كان يقرض الشعر كل رجل مثقف سياسيا كان أو فلكيا أو طبيبا ، و لم يكن لغوا قول بعضهم إن العرب وحدهم قرضوا من الشعر ما لم تقرضه أمم العالم مجتمعه ، و كان العرب من حب العرب للشعر أن صاروا ، فى بعض الأحيان يؤلفون كتب التوحيد و الفلسفة و الجبر نظما و من يطالع قصصهم يرى أكثرهم ممزوجا بقطع شعرية " .

ويستطرد جوستاف لوبون [٢] فى حديثه عن تأثر الشعر العربى فى الشعر الأوروبي فيقول : " و مما بلغ درجة الثبوت ، كما يظهر ، أن الأوروبيين اقتبسوا فن القافية من العرب ، و دلت مباحث فياردو و غيره من الكتاب الكثيرين على هذا الأمر الذي كان الأسقف " هويه " قد بينه منذ زمن طويل : و يعزى مصدر الشعر الأسباني و الشعر

١- حضارة العرب ، ص ٤٤٨.
٢- نفس المرجع و الصفحة.

البروفنسي [١] إلى ما كان لشعراء عرب الأندلس من التأثير، وليلوح لي هنا الرأي قويما كالرأي السابق، ولكن إيضاح الأسباب التى يستند إليها فى هذا يتطلب إفاضة لا يحتملها هذا الكتاب " .

ثم يتحدث المؤلف عن الروايات و الأقاصيص و يصرح بأن العرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ، و أشهرها مقامات الحريري ، و مقامات الهمزاني ، و رواية ألف ليلة وليلة . ثم يوضح كيف اهتم الشرق بالحكايات و الأمثال حيث إنها تلائم النفس و تحفظ فى الذاكرة بسهولة و ذلك بخلاف الأفكار المجردة . [٢].

و يجانب جوستاف لوبون [٣] الصواب عندما يصور لقمان على أن شخصيته أسطورية، ويختلف حول الزمن الذى وجد فيه ، و حقيقة الأمر أن لقمان قد ذكر فى القرآن الكريم علي أنه نبي طبقا لكتب السيرة ، و على أنه حكيم طبقا لأقوال المؤرخين ، وسوف أتناول هذا الموضوع تفصيلا فى موضعه فى الصفحات التالية، فيقول : " وبعد لقمان الأسطوري أشهر من جاء بالحكايات وجعل محمد لقمان ، فى القرآن مثال الحكمة، ويرى فريق من العلماء أنه معاصر لداود ، ويراه فريق ثان معاصر لإبراهيم ، ويرى فريق ثالث أنا مؤلف الحكايات شخص غير لقمان ظهر بعد محمد ، و يدل ما بين حكايات لقمان و حكايات أيزوب من الشبه على أن ذلك اقتبس من هذا أو أن كليهما استقى من منبع واحد على الأقل " .

ثم يوضح بعد ذلك تأثير الأمثال العربية على أوربا فيقول : " و من العرب اقتبست أسبانيا و بقية أوروبا عددًا من الأمثال غير قليل ، و من يدقق فى حكمة سانكويانسا يرى قسمها الكبير، الذى لا ينضب معينه ، من أصل إسلامي مثل : " استفد من شبابك العمر قصير" ، " عاشر حدادا تضرج بالسناج ، وعاشر عطارا تنل شذا الأزهار" ، " منهومان

١- نسبة إلى منطقة بروفنسال فى شمال فرنسا.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٤٨ – ٤٥٠.
٣- نفس المرجع ، ص ٤٥٠.

لا يشبعان : طالب علم و طالب مال " . و يستكمل حديثه من إهتمام العرب المسلمين بالبيان و البلاغة ، و اهتمامهم بالأسلوب كثيرًا ، و كثرت كتبهم فى البلاغة و النحو [1].

و ذلك لأن الأوروبيين فى تلك العصور لم يجدوا ما يشفي غليلهم فى الآداب المعاصرة المجدبة التى أعوزها الخيال الخصب ، فاتجهوا شطر الأدب العربى المعروف بالخصوبة والإبداع ويقول جب فى ذلك : " إن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها و فكرها العربي فى شعر العصور الوسطى و نثرها [2].

وثمة ظاهرة جديرة بالملاحظة فى الشعر العاطفي الأوروبي الذى ظهر من خلال الشطر الأخير من العصور الوسطى ، هى العناية بالقافية . و المعروف أن الشعر الأوروبي الكلاسيكى لم يهتم بالقافية و لم يعطها عناية تذكر فى مختلف أدواره ، على العكس من الشعر العربي الذى يعتبر القافية ركنا فيه .فقد ظهر أثر القافية العربية فى شعر " جوته " الوجدانى ، و في الموسيقى الجميلة فى شعر " بلاتن " و نثر " ستيفن جورج " [3].

وقد ظهر هذا الأثر بوضوح فى الشعر المعروف " التروبادروا " و معناه الحقيقي "طرب دور " أى دور من الطرب فى الأندلس لأول مرة على يد العرب المسلمين ثم أخذه عنهم أو تأثر به الأوروبيون خاصة فى بروفانس بجنوبي فرنسا ، و قد شاعت فى الشعر التروبادور فكرة الحب العفيف إلى الموت ، و هى فكرة عربية إسلامية شاعت بين شعراء العرب العاطفيين . و يقول جوستاف فون جرنباوم : " و الحق أن الشعر البروفانس يكاد يكون شرقيا عربيا من جميع الوجوه ، خاصة من حيث الشكل و الموضوع ، مع ملاحظة أن الطراز الأصلية لجميع أنواع الأناشيد التى ألفها التروبادور كانت موجودة فى شعر العرب الأندلسيين و شعر آبائهم " .

وهكذا يتأكد التشابه بين الزجل الأندلسي ، و بين شعر التروبادور من حيث الأوزان و القوافي ، التي لم تلتزم قبل ذلك فى الشعر الأندلسي و الأسباني . هذا إلى جانب أن

١- نفس المرجع ، ص ٤٥٠ ــ ٤٥٤ .
٢- د./ سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ .
٣- د./ سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ .

المستشرق الألماني " فيتزجرالد" قد قام بترجمة رباعيات عمر الخيام ، كما حاولت الرومانتيكية فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر الاتصال بالشعر الشرقي من مدخل إنساني، حتى لقد شغل هذا الأدب الشرقي حيزا كبيرًا فى تاريخ الأدب الألماني فى هذه الفترة [1].

كما ظهر تأثير الآداب العربية الإسلامية فى الآداب الغربية في الموضوعات ذات المغزى الأخلاقى ، أوما كان موضوعه القصصي و الأساطير ، وهى التى يتألف منها الجزء الأكبر من الآداب العربية الراقية . فهناك أوجه شبه قريبة بين القصص العربية الخيالية الغراميه و بين قصة الملكة " ايزولد " ذات اليد البيضاء ، والقصة الألمانية رولاند سلايد . ومن الآداب العربية ما كان موضوعه الرحلات و عجائب المخلوقات التى تركت أثرًا واضحًا فى الأدب الأوروبى . و انتقلت الأمثال العربية إلى أوروبا و تم ترجمة مجموعة كبيرة منها فى الكتاب الأسباني " قطع الذهب " ، كما ترجمت إلى اللاتينية فى كتاب "الفلاسفة الأخلاقيين " الذى نقل منه الفليسوف الفرنسي " جيوم " كتابه " حكم الفلاسفة" [2].

أما فى الأثر العربي الإسلامى الكبير على الآداب الأوروبية فيظهر بصورة واضحة جلية فى الكوميديا الإلهية " لدنتى الليجيرى ، والذى يعتبره الأوروبيون المعجزة الأدبية فنجد هناك تماثلاً و تشابها كبيرًا بين ما أورده دانتى فى كتابه عن الجحيم والمطهر والفردوس و بين ما جاء فى قصة الإسراء و المعراج التى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كذلك قصة الصعود إلى السماء التى كتبها الأديب المسلم الأندلسي " محي الدين بن عربي " ، و قصة " رسالة الغفران للمعرى " و يتضح لنا من خلال البحث الذى قام به أحد الأوربيين فى تساؤلاته حول الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتى " يناقش الآراء

١- سعيد أبو الرضا ، الآداب الإسلامية وأثرها فى آداب الغرب " مجلة الأمة " العدد ٤٩ ، ١٩٨٤ ، ص٢٦ - ٣١ .

٢- سعاد ماهر ، " أثر الحضارة العربية فى العصر الإسلامي على أوروبا من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية " ، مجلة الأمة ، نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٧ .

التى طرحها المستشرق الأسبانى " آسين بلاسيوس " و الذى قال بأن الأصول الإسلامية التى نقل عنها دانتي هى : المأثورات الإسلامية من قصة الإسراء و المعراج ، وقصة المتصوف العربي ابن عربي عن الصعود إلى السماء ، و رسالة الغفران لأبي العلاء المعري وأظهر التأثير الإسلامى فيها ، و خلص إلى أن العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى كانت عقلية توفيقية جنحت إلى الجمع بين عناصر تراثية كلاسيكية تمثلت فى العدد الهائل من الشخصيات ، حقيقة و أسطورية ، و بين العناصر الإسلامية التى تم اقتباسها من المصادر الإسلامية التى توضح لنا هذا التأثير الضخم [1].

وإذا نظرنا إلى فن الموشحات الأوروبي نجد أنه قد تطور تطورًا كبيرًا فى الأندلس فقد استبدل بعض الوشاحين الخرجات الأعجمية بخرجات عربية بلهجة أندلسية وهذا محفوظ فى كتابات " ابن سناء الملك " و" ابن يسري " و" لسان الدين الخطيب " وهم من غرناطة فى الأندلس .

كما اقتبس الأدب الأوروبى ، و خاصة فى الأندلس القصص العربية الخرافية التى تتخذ من الحيوان موضوعًا لها مثل " كليلة و دمنة " التى ترجمت فآ أسبانيا تحت اسم " التعاليم الكنائسية " التى ترجمها بطرس ألفونس اليهودي . كما تم ترجمة " ألف ليلة وليلة" ، و أن قصة " روبنس كروزو " مأخوذة عن قصة حى بن يقظان لابن الطفيل و التي ترجمت إلى اللاتينية و إلى الإنجليزية . و أيضًا المقامات العربية للحريري و الهمذاني و غير ذلك من الآداب العربية التى انتقلت إلى اللغات الأوروبية و على ذلك يعترف قائلاً : "أنه قل من يستطيع أن ينكر ما تمتاز به آداب الجنوب الأوروبي من انبساط و خيال خصب يرجع إلى ما تأثرت به تلك الآداب بالمؤثرات العربية ، كما يرجع إلى ما خلفته الثقافة العربية من آثار فى أهل الأندلس " [2].

١- هيتشكوك ، التأثير العربى فى العصور الوسطي ، ترجمة د. عبده قاسم ، ص ٩٣ – ١١٤٠ .
٢- د./ سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٤٩٤ ،٤٩٥ .

المبحث الرابع

أثر الحضارة العربية الإسلامية على الغرب فى الكتابة التاريخية :ـ

لقد كان للمؤرخين العرب المسلمين فى أسبانيا و صقلية و في فترة الحروب الصليبية أثر كبير على كتابة التاريخ ، و يؤكد ذلك جوستاف لوبون [1] قائلاً : " إن عدد مؤرخي العرب كان كثيرًا حتى أن أحد الكتاب قد عد ١٢٠٠ مؤرخ عربي ، مثل الطبري، والمسعودي ، و أبو الفرج الأصفهاني ، و ابن خلدون و غيرهم " .

وهناك شواهد كثيرة تشير إلى تأثر الدراسات التاريخية الأسبانية بمثيلتها العربية قبل إنشاء مدرسة الترجمة بطليطلة ، و هناك أمثلة أخرى تدل على أن هذا التأثر استمر متصلا إلى القرن السابع عشر ، أي إلى الوقت الذى قامت فية أسبانيا بالتخلص من العرب أساسًا ، و من العربية لغة و فكرًا و ثقافة . و قد بدأت هذه المؤثرات مبكرة عقب الفتح العربي الإسلامي لأسبانيا ، فظهرت بعض المصنفات التاريخية من تأليف نفر من المغتربين الأندلسيين و تتضمن بعض الروايات التاريخية التى سمعوها عن المؤرخين العرب.

ومن أمثلة المصنفات : الحولية البيزنطية العربية سنة ٧٤١ م ، و هى تاريخ عام يتضمن أخبارًا عن بعض ملوك القوط فى أسبانيا و أباطرة بيزنطة ، كما تتناول تاريخ العرب فى المشرق و أخبار فتوحتهم فى أسبانيا ، و لم يخف مؤلف هذه الحولية ما كان يشعر به من إعجاب وتقدير للنبي محمد صلى الله عليه و سلم ، مما جعل المؤرخين المحدثين

١- حضارة العرب ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤.



يرجحون أنه لم يكن أسبانيا ، وقد تم الاعتماد فى هذه الحولية على المصادر البيزنطية والعربية [1].

وكذلك الحولية المستعربية سنة ٧٥٤ م ، وهى حولية مجهولة المؤلف تتناول تاريخ مدينة قرطبة ، وهى تاريخ عام يبدأ ببداية الخليقة وينتهى إلى حوادث سنة ٧٥٤ م ويشتمل على تاريخ عام للروم والعرب ثم يخصص قسما لتاريخ أسبانيا ، ويبدو أن المؤلف كان مستعربيا ، وكان من رجال الدين حيث يتحدث عن الكنيسة ويكن حقدًا على الإسلام والمسلمين ، وقد اعتمد كذلك على مصادر عربية . [2]

والحولية المعروفة بحولية " البلدة " التي كتبت فى شمال الأسبانى ، وتشتمل على تاريخ مختصر لملوك القوط [3].

فى أسبانيا والممالك المسيحية ، وكذلك تاريخ مختصر للعرب فى أسبانيا وفى الشرق منذ عصر إبراهيم عليه السلام [4] وكذلك الحولية الأسبانية التى كتبها أحد رجال الدين الأسبانى المستعربين وهو السفير الأسبانى للملك ألفونسو الثالث لدى الأمير العربي هناك ، وتتنبأ هذه الحولية بنهاية الوجود العربي هناك بعد مائة وسبعين سنة أي سنة ٨٨٣ م وقد اعتمد المؤلف على المصادر العربية [5]. وقد وضح التأثير العربي بصورة جلية على الكتابة فى الأندلس فى الحولية القوطية التى كتبت في القرن الحادي عشر الميلادي وقد كتبها أحد المؤرخين المتعربين ، وتناول فيها التاريخ العام لأسبانيا والقوط والفتح

١- د./ جمال الشيال ، أثر العرب فى النهضة الأوروبية ، ص ٣٦٦ – ٣٦٨.
٢- المرجع السابق ، ص ٣٦٧.
٣- جاء القوط إلى أسبانيا كأجانب يبحثون عن مناطق النفوذ و السيطرة و يبحثون عن وطن يكونون فيه ملوكا ، و عاشوا هناك يرهقون أهل البلد بالتكاليف الحكومية الباهظة ، و حكموا أسبانيا كأجانب بعيدين عن روح شعبها آمالها و لم يغيروا شيئا من أحوال المجتمع حولهم إذ لم تكن لهم رسالة تلفت الناس إلى الأمل فى التقدم على أيديهم و كانوا أرستقراطيين فعاشوا لهم الناس يشاهدون امتيازات الأرستقراطية السياسة المتطرفة و يعطون من وجودهم و جهودهم و أموالهم ما يحقق مطالب الحياة الرفيعة التى ينعم بها الحاكمون و ما يغطي النفقات الباهظة للحكام . لمزيد من التفاصيل أنظر : على حبيبة ، مع المسلمين في الأندلس ، مكتبة الشباب ، ص ٨٣ ، ٨٤.
٤- د./ جمال الشيال ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
٥- نفس المرجع ، ص ٣٦٩.



العربي و قد اعتمد فيها على المصادر العربية ، و خاصة تاريخ الرازي الذى كان له دور كبير فى المدرسة التاريخية التى نشأت فى طليطلة فى أسبانيا [١] و كذلك الحولية المعروفة " بالحولية السيلوسية " التى كتبها أحد المستعربين الأسبان من مدينة طليطلة فى القرن الثانى عشر الميلادي ، و قد اعتمد على المصادر العربية فى كتابة هذه الحولية التابعة لدير سيلوس [٢] و حولية الطليطلى التي كتبها أسقف مدينة طليطلة الذي كان يتقن العربية وغيرها من اللغات الأخرى ، و كتب فى هذه الحولية عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كم استخدم التاريخ الهجري لا الميلادي مما يؤكد تأثره بالكتابة التاريخية الإسرمية ورجوعه إلى المصادر العربية و خاصة تاريخ الرازي[٣] و في التاريخ العام لأسبانيا الذى أشرف على كتابته ملك أسبانيا ألفونسو العاشر فى القرن الثالث عشر الميلادي واستعان فى كتابته بعدد من العلماء المسلمين و المستعمرين اليهود و يظهر فيه الرجوع إلى المصادر العربية و البيزنطية و الاتينية ، و فيه كثير من التشابه بينه و بين كثير من كتب التاريخ العربية الإسلامية مثل " البيان الواضح فى العالم الفادح " للفلسفى المعروف بابن علقمة ، و كذلك " الاكتفاء فى أخبار الخلفاء " لابن الكربوس [٤] أما " التاريخ العام " الذي كتبه ألفونسو العلم فيتضمن تاريخا عاما للعالم منذ بدء الخليقة و تاريخ الأنبياء والشعوب القديمة ، و نقل معلوماته عن تاريخ الإغريق و الرومان و الهنود و المصريين القدماء عن المؤرخين العرب، و قد نص صراحة على أن ما ذكره عن مصر منقول عن كتاب " المسالك والممالك " للجغرافي العربي أبي عبيد البكري .

وقد تناولت من قبل الأثر الإسلامي فى الكوميديا الإلهية لدنتي اليجيري و هذا يدل على أثر الحضارة الإسلامية فى إيطاليا فدانتي كان إيطاليا عاش فى صقلية و سط العرب

١- د./ جمال الشيال ، أثر العرب فى النهضة الأوروبية ، ٣٦٩ – ٣٧٣.
٢- المرجع السابق ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤.
٣- د./ جمال الشيال ، أثر العرب فى النهضة الأوروبية ، ٣٧٤.
٤- المرجع السابق ، ص ٣٧٤ – ٣٧٧.

المسلمين الذين ازدهرت حضارتهم هناك . و كذلك تناولت بالتفصيل كيف كانت الحروب الصليبية أحد المعابر المهمة التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبي .

و يظهر الأثر الإسلامي فى الكتابات التاريخية للصليبين فى بيت المقدس و خاصة وليم الصوري الذي كتب عن المملكة اللاتينية فيما وراء البحار و نقل عن الكثير من المؤلفات العربية الإسلامية ليوثق معلوماته التاريخية و الجغرافية عن المنطق .

و عد حركة الحروب الصليبية التى انتهت بالفشل الذريع و لم تحقق ما هدفه الغرب الأوروبى ضد الإسلام و المسلمين ، و اتجهوا إلى استخدام سلاح آخر هو "الاستشراق" هذه الحركة التي " أخذت نتيجه نحو العناية بدراسة علم التاريخ كأساس للتعمق فى الدراسات العربية بصفة خاصة ، ومن ثم أخذ المستشرقون يهتمون بمعرفة تاريخ العرب والإسلام على حقيقته بالرجوع إلى ما كتبه العرب أنفسهم ، و بتحقيق النصوص التاريخية الأصلية و ترجمتها و طبعها إلى أن انتهى بهم الأمر بعد ذلك إلى التأليف فى تاريخ العرب و الإسلام اعتمادًا على هذه المراجع الأصلية ، و هذا تدخل حركة الاستشراق في مرحلة جديدة حديثة " [1]

١- دز/ جمال السيال ، المرجع السابق ، ص ٤٠٠.

المبحث الخامس

أثر الحضارة العربية الإسلامية على الغرب و الشرق فى الرياضيات :-

ولم يقف فضل العرب و حضارتهم على العالم فى العلوم الأدبية فحسب ، و لكنه تعدها إلى العلوم التطبيقية و منها الرياضيات التى كان لهم دور كبير فى اكتشاف الكثير من أصولها و يؤكد جوستاف لوبون [1] ذلك فيقول : " اتسع البحث فى الرياضيات ولا سيما علم الجبر ، عند العرب ، و عزى إلي العرب اكتشاف علم الجبر ، و لكن أصوله كانت معروفة منذ زمن طويل ، و مع ذلك فقد حول العرب علم الجبر تحويلاً تامًا ، و إليهم يرجع الفضل فى تطبيقه على علم الهندسة ، و بلغ علم الجبر من الانتشار بين العرب ما ألف معه محمد بن موسى الخوارزمي كتابا موطئا له بأمر المأمون في أوائل القرن التاسع عشر من الميلاد ، و من ترجمة هذا الكتاب اقتبس الأوروبيون معارفهم الأولى لعلم الجبر بعد زمن طويل . و اقتصر على ذكر أهم أعمال العرب الرياضية بإيجاز ، لما في بيانها مفصلاً من الدخول فى الدقائق الفنية ، و أقول إن العرب هم الذين أدخلوا المماس إلى علم المثلثات وأقاموا الجيوب مقام الأوتار ، و طبقوا علم الجبر على الهندسة ، و حلوا المعادلات المكعبة و تعمقوا فى مباحث المخروطات ، و حولوا علم المثلثات الكرية بردهم حل المثلثات الأضلاع إلى بضع نظريات أساسية تكون قاعدة له " .

وهكذا أفلح جوستاف لوبون و أصاب في بيان فضل العرب على العالم أجمع في الرياضيات بكافة فروعها ، فقد بنى المسلمون معارفهم فى الرياضيات على أساس من علوم اليونان و الهنود ، ثم تقدموا بهذه العلوم و خطوا بها خطوات واسعة نحو الأمام حتى ظهر منهم فى المشرق علماء مبرزون فى العلوم الرياضية مثل الخوارزمي ، و ثابت بن

١- حضارة العرب ، ص ٤٥٥.



قـرة[١] و البتـاني [٢] و الخـازن البصـري [٣] و عمـر بـن ابـراهيم الخيـام [٤] أمـا في المغـرب الإسـلامي فقـد ظهـر مسـلمة المجريطـي [٥] إمـام الرياضـيين بـالأنـدلس ، و ابـن الصـفـار [٦] والكرمـانى [٧]. و أميـة بـن أبي الصـلت [٨] وغيرهـم . و تقـدم المسلمون بـالحسـاب خطـوات واسعة ، فأضـافوا إلى معلومـات اليونـانيين كثيرًا مـن النظريـات التى لم تعرفهـا أوروبـا مـن قبل ، كما علموا الأوروبيين نظام الإعداد الهندسي الذي يمثل ثورة شاملة فى عالم الحساب و خاصة قيمة العدد الواحد بتغير وضعه فى الآحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف .

١- ثابت بن قرة : انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، م١ ، بيروت ٢ ص ٣١٣ أيضا موسوعة أعلام الفلسفة ، جـ١ ، ص ٣٦٤. و كان صيرفيا و منجما للمتعضد ، كما كان طبيبا وفيلسوفا و توفي سنة ٢٨٨ هـ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ١١ ، ص ٤١ ، ٤٢.

٢- البتاني : هو صاحب الزيج المشهور أبو عبد الله محمد جابر بن سنان الحراني البتاني ، الحاسب المنجم له أعمال و أرصاد و براعة في فنه ، و كان صائبا فكأنه أسلم و تسمي بمحمد ، و له تصانيف فى علم الهينة ، و توفى سنة ٣١٧ هـ انظر : الذهبي سير أعلام النبلاء ، جـ ١٤ ، ص ٥١٨.

٣- الخازن البصري : هو الأمام المحدث أبو الحسن الحارث بن عبد الله بن إسماعيل بن عقيل الهمذاني كان خازنا لبعض الخلفاء ، و حدث عنه الكثيرون ، و توفى سنة ٢٢٥ هـ . انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ٩ ، ص ٤١١ ، ٤١٢ .

٤- عمر الخيام : هو عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري ، شاعر و فليسوف فارسي مستعرب من اهل نيسابور ، و كان عالما بالرياضيات و الفلك و اللغة و التاريخ و ترجمت أشعاره إلى اللغات الأوروبية ولد سنة ٣٠٠هـ و توفى ٣٩٠هـ ، انظر : الزركلي ، الأعلام ، م ٥ ، ص ٣٨.

٥- المجريطي : هو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي أبو القاسم ، و فيلسوف و رياضي وفلكي ، كان أمام الرياضيين بالأندلس ، و ينسب إلى مرسيه و من مؤلفاته : كتاب الأحجار ، و روضة الحدائق وغاية الحكمة: انظر حيز الدين الزركلى، الأعلام قاموس تراجم،م ٧،ط ٧ ، بيروت ، ص٢٢٤.

٦- ابن الصفار : مفتى الأندلس ، أخذ عن كثير من الفقهاء ، مات سنة ٢٩٥ هـ.

٧- الكرماني : هو شيخ الحنفية مفتى خراسان أبو الفضل عبد الرحمن بن محمد بن أمير و على ابن محمد الكرماني ، تفقه بمرور و برع فيه ، ولد سنة ٤٥٧ هـ ، و مات سنة ٥٤٣ هـ ، انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٥ ، ص ٣٤.

٨- أمية بن الصلت : العلامة الفيلسوف الطبيب الشاعر المجود أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ابن أبي الصلت الداني ، ولد سنة ٤٦٠ هـ و تنقل و أقام بالإسكندرية ، و رد إلى المغرب ، و كان بارعا في علم النجوم و الوقت و الموسيقي و المنطق و مات بالهدية فى المغرب سنة ٥٢٨ هـ ، انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٤ ،ص ٥٠٢ ، ٥٠٣.



والرسائل التى كتبها البيروني [1] واليعقوبي [2] فى الأعداد ، هذا فضلاً عن اختراع الصفر وانتقل هذا النظام إلى الغرب الأوروبي مقرونا باسم الخوارزمي والبيروني واليعقوبي ، وخاصة الخوارزمي [3] واكتشف العرب أصول علم الجبر الذى انتقل إلى الغرب الأوروبي باسمه العربي ، وقد قام روبرت الشستري بنقل كتاب محمد بن موسى الخوارزمي إلى اللاتينية . واشتهر كثير من العلماء العرب في هذا العلم مثل : أبو بكر الكرخي [4] صاحب كتاب " الفخري في الجبر والمقابلة " وكتاب " الكافي في الحساب " كما وضع عمر بن إبراهيم الخيام كتابا فى علم الجبر [5].

ومحمد بن يحي وابن إسماعيل البوزجاني الذى يقول عنه الإفرنج " أن له فى الهندسة استخراجات غريبة لم يسبق إليها ، وله كذلك مبتكرات فى الأوتار " ، كما تقدمت نظريات المثلثات على يد الخوارزمي ، وأدخل تجديدات على القطاع ، وقال "كاجوري " أن العقل ليملكه الدهشه حينما يقف على أعمال العرب في الجبر [6] أما في الهندسة وعلم المثلثات فقد ترجم العرب كتاب إقليدس فى الهندسة ، وهي الترجمة العربية التي نقلها الأوروبيون إلى اللاتينية فى القرن الثاني عشر كذلك تراجم الطوس كتاب المعطيات لإقليدس وهو في هندسة الأشكال الكروية ، ولم يقتصروا على معلومات

١- البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد ، عالم و فيلسوف عربي من أصل فارسي ، وذهب إلى الهند ودرس العربية و الحضارة الهندية ، و توفي سنة ١٠٤٨ م ، و له العديد من المؤلفات الفلسفية . انظر : موسوعة أعلام الفلسفة ، جـ ١ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠.

٢- اليعقوبي : أحمد ابن اسحق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، مؤرخ و جغرافي ، كثير الأسفار من أهل بغداد ، و كان جده من موالي المنصور العباسي ، و رحل إلى المغرب و أقام مدة فى أرمنية ودخل الهند وزار البلاد العربية و توفى ما بين عامي ٢٨٤ هـ ،٢٧٨ هـ . انظر : حيز الدين الزركلي الإعلام ، ١ ، ص ٩٥.

٣- الخوارزمى : أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى البغدادي ، مفتى و فقيه ، درس كثير من العلوم وخاصة الرياضيات ، و قد دعي إلى القضاء مرارا فامتنع ، و توفي سنة ٤٠٣ هـ ، انظر : الذهبى سير أعلام النبلاء ، جـ ١٣ ، ص ١٤٤ .

٤- الكرخي : هو أبو بكر الكرخي او الكرجي ، من كبار علماء العرب فى الرياضيات ، عاش و توفى فى بغداد و من مؤلفاته " الفخري في الجبر و المقابلة " و " الكافي في الحساب " انظر : لويس المعلوف المنجد ، ط١٠ ، دار المشرق بيروت ، ص ٥٨٦.

٥- سعيد عاشور ، أوربا الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٥.

٦- عبدالله بن عباس الجراري ، تقدم العرب في العلوم و الصناعات و أستاذيتهم لأوروبا ، ط١ ، دار الفكر العربي ١٩٦١ ص٥٠ ، ٥١.

اليونان و إنما جددوا و أضافوا إضافات جديدة لم تعرف من قبلهم، فهم الذين أخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات، كذلك أقام العرب الجيوب مقام الأوتار، و حولوا المعادلات المكعبة و تعمقوا فى أبحاث المخروطات، و منهم الخوارزمي، و ثابت بن قرة و البتاني والخازن البصري، و ابن الهيثم [1]، وابن السمح [2]، البيرونى [3] و أكبر مثال علي هذه النهضة " المقورة و المنبر " التى تتحرك علي عجلات و مفاصل التي بناها أبو علي المراكشي التي تبع فيها إلي الأغراض و ميلان الشمس و علو المقياس في بلاد المغرب " و رغم عودة الأندلس إلى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد في نظر الغربيين حتى صارت باريس نفسها التي أسس جامعتها الملك فيليب أوغسطس علي إثر عودته من الشرق. تستمد من الغرب و الشرق كثيرًا من كشوفاتها [4] و الأكثر من ذلك أن " ابن حمزة حمزة المغربي " الذى ظهر فى القرن الحادي عشر الميلادي استعمل فى بعض بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقا تقرب من اللوغارتمات [5] و انتشرت الأرقام العربية من الواحد الواحد إلي التسعة في أوروبا، و إن كان الأوروبيون قد عرفوها إلاَّ أنها أصبحت الأساسية فى الكتابة و الحساب هناك [6].

١- ابن الهيثم : هو محمد بن الحسن بن الحسن بن الهيثم ، عالم من علماء المسلمين البارعين فى الطب والفلك و كثير من العلوم و له العديد من المؤلفات . انظر الزركلي ، الأعلام ، م ٢ ، ص ١٨٧.

٢- ابن السمح: هو أبو القاسم أصبغ بن محمد السمح المهري، كان متحققا بالعدد والهندسة ومتقدما فى الهيئة وحركات النجوم ، وله كتب عديدة منها "الكامل فى حساب الهوائى" وتوفى فى غرناطة سنة٤٢٦ هـ . انظر قدري حافظ طوقان ، تراث العرب العلمي فى الرياضيات والفلك، ط٣ ، دار القلم ، ص ٣٣٦.

٣- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦.

٤- عبد الله الجراري ، المرجع السابق ، ص ٤٧ – ٤٩.

٥- نفس المرجع ، ص ٥٢ ، و الدالة اللوغاريتمية هي صورة عكسية للدالة الآسية.

٦- زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع علي الغرب ، ترجمة فاروق بيضون ، ط ٨ ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ٨٠ و ما بعدها.

المبحث السادس

أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب في الفلك :-

و يعتبر علم الفلك من العلوم التي أبدع فيها العرب إبداعًا كبيرًا ترك أثاره على الشرق و الغرب ، و في هذا الشأن الهام يعترف جوستاف لوبون [١] بفضل العرب على العالم في هذا المجال حينما يتحدث عن أهم المدارس الفلكية التي أقامها العرب ، و عن الذين اشتهروا من العلماء العرب في هذا الشأن ، و يوضح أهم الاكتشافات الفلكية للعرب فيقول :" و تتلخص اكتشافات العرب الفلكية بما يأتي إدخال المماس إلى الحساب الفلكي منذ القرن العاشر الميلادي ، ووضع أزياج [٢]لحركات الكواكب ، و تعيين دقيق لانحراف سمت الشمس و نقصانه التدريجي ، و تقدير مبادرة الإعتدالين بالضبط ، و تحديد صحيح لمدة السنة ، و تحقيق لشذوذ أعظم عرض للقمر ، و كشف للاختلاف القمري الثالث المعروف بالاختلاف في الوقت الحاضر " .

و حقيقة الأمر أن الله سبحانه و تعالى أنزل على رسوله الكريم في القرآن الكريم الذي هو دستور الإسلام النظري و التطبيقي كثيرًا من الآيات الدالة على احتواء الدين الجديد بكافة نواحي الحياة الإنسانية و العلمية و منها علم الفلك بكافة مظاهره فيقول سبحانه و تعالى: ﴿... يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا...﴾ [٣] و يقول كذلك: ﴿... يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ...﴾ [٤] و يقول أيضًا: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن

١- حضارة العرب ، ص ٤٥٦ – ٤٦٤.
٢- أزياج : مفردها زيج ، و هو كل كتاب يتضمن جداول فلكية يعرف منها سير النجوم و يستخرج بواسطتها التقويم سنة بسنة . المعجم الوسيط ، جـ ١ ، ط ٣ ، مجمع اللغة العربية ، ص ٤٢٣.
٣- سورة الأعراف ، آية ٥٤.
٤- سورة الزمر ، آية ٥.

﴿ ... أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] ويقول جل شأنه ﴿ ... يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ... ﴾ [2] .

ومن هذا المنطلق اتجه العلماء المسلمون ناحية الفلك وتطويره خاصة وأن حياة العرب قبل الإسلام كانت مرتبطة بالفلك والنجوم والكواكب والشمس والقمر، ولا شك في أن تقدم العرب في العلوم الرياضية كما رأينا في المبحث السابق ساعد على تفوقهم في هذا العلم " علم الفلك " الذي أولوه اهتمامًا وعناية فائقتين ، ويدل على ذلك المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف المدن الإسلامية شرقا وغربا ومنها مراصد سمرقند في العراق ودمشق في بلاد الشام والقاهرة في مصر وفاس في المغرب وطليطلة وقرطبة في الأندلس [3].

ومن العلماء المسلمين الذين نبغوا في علم الفلك " محمد البتاني " الذي صحح كثير من الأخطاء التي وقع فيها بطليموس السكندري من قبل ، بل ووصل إلى نتائج جديدة وخطيرة . وكذلك " محمد الفرغاني " الذي حدد طول السنة وأطوال الليل والنهار وحركات الكواكب والنجوم . وابن يونس المصري الذي بحث في كسوف الشمس وتعيين الاعتدال الشمسي وتحديد خطوط الطول .كما وضع " أبو الوفا " جداول فلكية دقيقة . هذا فضلاً عن " البيروني " الذي كتب كتابين في علم الفلك هما " إفراد المقال في أمر الظلال " و" تمهيد المستقر لمعنى الممر " وترجمت كل هذه الأبحاث إلى الأسبانية واللاتينية في غرب أوروبا وخاصة كتاب البتاني المعروف بـ " الزيج الصابي " والذي حدد فيه تقسيم دائرة الفلك وارتفاع القطب الشمالي ، ومعرفة زيادة النهار ومعرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الأفق ، ومعرفة عروض البلدان ، ومعرفة ارتفاع الشمس وقت انتصاف

١- سورة يس ، آية ٤٠ .
٢- سورة لقمان آية ٢٩ .
٣- د./ سعيد عاشور ، أوروبا الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٥٠٧ .

النهار، و معرفة ارتفاع الكواكب ، و طول السنة الشمسية و أفلاك القمر و الكواكب و معرفة كسوف الشمس و مطالع البروج [1] .

وقد استطاع علماء الفلك المسلمون تعيين انحراف سمت الشمس تعيينا دقيقا حددوه بثلاث و عشرين درجة و ثلاث و ثلثين دقيقة و اثنتين و خمسين ثانية ، و هذا ما توصل إليه العلماء الفلكيون في العصر الحديث . كما استطاع العرب قياس طول السنة الشمسية بالضبط . ووضعوا جداول لأمكنة الكواكب السيارة ، و توصلوا إلى أن حركات هذه الكواكب على شكل بيضاوي كما توصلوا إلى نظرية دوران الأرض . و استعملوا الإسطرلاب الذي أخذه الغرب الأوروبي عنهم [2].

أما ابن الهيثم فقد اهتم بالتجارب بواسطة نوع من (الآلة – الثقب) و من خلالها رأى أن صور العالم مقلوبة ، كما اكتشف تعليلاً لكثافة مختلف الطبقات كالماء و الهواء وانكسار الضوء ، كما اهتم بتعليل ظهور الهلال ، و الغسق و قوس قزح [3] و انتقلت كل هذه الاكتشافات العربية في الفلك إلى أوروبا و العالم ، دليلنا على ذلك أن الأسماء العربية لأسماء الكواكب و النجوم و أسماء المدارات و المصطلحات الفلكية لازالت في اللغات الأوروبية و في المعجميات و القواميس الفلكية في أوروبا [4] .

١- المرجع السابق ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨.
٢- د./ سعيد عاشور ، أوروبا الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٥٠٨ ، ٥٠٩.
٣- هونكة ، المرجع السابق ، ١٤٩.
٤- عباس العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ٥٢.

المبحث السابع

أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب في العلوم الجغرافية :-

و لقد كان للعرب المسلمين الريادة علي العالم في العلوم الجغرافية قبل أن يعرفها أهل أوروبا و كان لهم الفضل الكبير في اكتشاف و اختراع الكثير من الجديد في هذا المجال ونقله إلي العالم شرقا و غربا ، و يؤكد جوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب " [1] الذي نحن بصدد دراسته و تحقيقه ذلك حيث يتحدث بالتفصيل عن ريادة العرب الجغرافية ، و كيف أن هذه الريادة بدأت مع مجموعات من التجار المسلمين الذين جابوا أنحاء الأرض ووصلوا إلى بلاد الصين في أقصى الشرق و التي كان الأوروبيون يعتقدون بعدم وجودها . و بعد ذلك يتحدث عن الرحالة المسلمين مثل المسعودي ، و ابن حوقل ، و ابن بطوطة ، و ما قام به هؤلاء الرحالة في رحلاتهم .

ثم يتناول بالتوضيح ما حققة العرب في العلوم الجغرافية حيث يقول : " كان من نتائج ريادات العرب و معارفهم الفلكية التي ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدمهم ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداءة علماء اليونان ، و لا سيما بطليموس إدلاء لهمم في علم الجغرافيا لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه علي حسب عاداتهم . فكانت مواضع المدن الكثيرة التي عينها بطليموس تعيينا جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما و بلغ مقدار غلطة في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ [2].

وعن أهمية كتب العرب في الجغرافيا يقول جوستاف لوبون [3]: " و كتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافيا مهمة إلي الغاية ، و كان بعضها أساسا لدراسة هذا العلم في أوروبا قرونا كثيرة " .

١- ص ٤٦٥ – ٤٦٨.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٦٨.
٣- نفس المرجع ، ص ٤٦٩.

وبعد أن يستطرد جوستاف لوبون (١)في سرد الكتب الهامة التي ألفها العرب في هذا المجال يتعرض لأهم أعمالهم ثم يبين فضلهم على العالم قائلاً : " و تكفي الخلاصة السابقة لإثبات شأنهم مع ذلك ، و لولا إصرار الأوربيين الخاص على مبتسراتهم الموروثة التي لا تزال باقية ، حيال الإسلام لتعذر إيضاح السبب في أفكار العلماء أفاضل في الجغرافية كمسيو فيفان دوسان مارتن ، لذلك الشأن ، و مع ذلك يكفي ما أتى به العرب من عمل كبير لإثبات قيمتهم ، فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت أول أساس للخرائط ، فصححوا أغاليط اليونان العظيمة في المواضع و العرب ، من ناحية الريادة ، هم الذين نشروا رحلات عن بقاع العالم التي كان يشك الأوربيون عن وجودها فضلا عن عدم وصولهم إليها و العرب من ناحية الأدب الجغرافي، هم الذين نشروا كتبا قامت مقام الكتب التي ألفت قبلها ، فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونا كثيرة " .

لقد كانت الجغرافيا ضرورة حتمية للعرب ، و كانت عناية العرب بالجغرافيا وليدة ظروف البيئة التي يعيشون فيها و تحيط بهم إلى حد كبير ، فقد كانت نشأتهم الأولى في وسط يحتم عليهم أن يبذلوا كل الجهد للإلمام بالمعلومات الجغرافية ، فلم يكن في مقدرتهم القيام بالرحلات السلمية أو الحربية في الصحراء الواسعة إلا إذا عرفوا المعلومات المفيدة عن النجوم و الكواكب لاتخاذها أدلة و هداية ، كما أنهم كانوا لا يستطيعون التنقل بالإبل و الأغنام إلا إذا عرفوا أماكن العشب و موارد المياه ، و أماكن الحيوانات المفترسة . و هذا جعلهم يعرفون الكثير عن الجغرافيا الطبيعية لهذه الأماكن ، و امتلأت أشعارهم بذلك . (٢).

وعندما ظهر الإسلام ، و حدثت حركة الفتوحات الإسلامية و امتلك المسلمون معظم أطراف العالم الكائن آنذاك ، و أدى هذا التوسع إلى زيادة أهمية المعلومات الجغرافية عن أطاف العالم الإسلامي ، و الوقوف على أطوال البلاد المفتوحة ، و الطرق

١- حضارة العرب ، ص ٤٦٩ – ٤٧١.

٢- د./ محمد محمود الصياد "في الجغرافيا" أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوروبية ، ص ٣٠٩ ٣١٠.

التي تربط بين أجزاء العالم الإسلامي ، حيث إن السياسة والإدارة والتجارة وما إليها مما يتطلب وصفا دقيقا للأمكنة والبقاع ، وتفصيلا وافيا لأحوال شتي الأقطار وما تنتجه أراضيها من غلات [١].

وقد اعتمد العرب أول ما اعتمدوا علي " بطليموس السكندري " [٢] صاحب " المجسيطي " وهو مصري الأصل ، ويعتبر المعلم الأول للجغرافيا في العصور القديمة ، وطوره العرب المسلمون وخاصة البيروني [٣].

وتدين أوروبا إلي العرب بحفظ معلومات اليونان الجغرافية ، التي لم يعرفونها إلا من خلال كتب العرب المسلمين ، فقد صحح العرب ما وقع فيه القدماء من أخطاء وأضافوا إليها تجاربهم ، وقد ساعدهم علي ذلك حبهم للسياحة والرحلات ، فجابوا البلاد من شرق آسيا إلي مجاهل أفريقيا وأقاموا علاقات تجارية مع البلاد التي لم يسمع عنها الأوربيون أوشكوا في وجودها ، وعلى رأس هؤلاء الرحالة ابن حوقل [٤] البيروني وابن بطوطة [٥] والإدريسي [٦].

١- نفس المرجع ، ص ٣١٠.
٢- بطليموس : جغرافي يوناني قديم.
٣- عباس العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٤٣ ، ٤٤.
٤- ابن حوقل : هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي ، رحالة علماء البلدان وكان تاجرًا رحل من بغداد سنة ٣٣١ هـ و دخل المغرب و صقلية و بلاد الأندلس و غيرها ، ومن مصنفاته : " كتاب المسالك والممالك . انظر : الزركلي الأعلام ، م٦ ، ص ١١١.
٥- ابن بطوطة : رحالة عربي ولد في مدينة طنجة سنة ٧٠٧ هـ ، ونشأ في بيئة علمية ، و قد أولع بالسفر والرحالة ، فرحل عن وطنه سنة ٧٢٥ هـ لأداء فريضة الحج ، و قضى ما يقرب من ثلاثين عام في رحلات متواصلة في ديار الإسلام . انظر : د./ السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ و المؤرخون العرب مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٧ ، ٢٣٢.
٦- الإدريسي : هو أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الله بن أدريس الإدريس الاسترابادى محدث سمرقند ، ألف تاريخ سمرقند و استراباذ ، حدث في كثير من بلدان المسلمين.ومات بسمرقند سنة ٤٠٥ هـ انظر الذهبى ،سير أعلام النبلاء ،جـ١٣ ،ص١٣٨.

و المقديسي [١] و الاصطخرى [٢] و ياقوت الحموي [٣] و قد أسهم كل هؤلاء و غيرهم بنصيب وافر من المعلومات الجغرافية [٤].

و قد زود العرب كتبهم الجغرافية بكثير من الخرائط فكتاب الشريف الإدريسي المعروف " نزهة المشتاق في ذكر الأمصار و الأقطار و البلدان و الجزر و المدائن و الآفاق مزود بأكثر من أربعين خريطة ، و ترجم إلى اللاتينية حيث اعتمد عليه الأوروبيون أكثر من ثلاثة قرون ، و الإدريسي هذا هو الذي كلفه روجر الثاني ملك صقلية بوضع خريطة جامعة أثبتت أن معلومات العرب الجغرافية أوسع مما كان يظن [٥] و يقال أن فاسكوا دي جاما قد درس الخرائط التي وضعها العرب للبحار ، و كذلك كولبس قد أطلع على كتب العرب في الجغرافيا و الرحلات قبل القيام برحلته لاكتشاف أمريكا و قد ساعده ذلك كثيرًا في تلك الرحلة و هذا ما يتصل بما ذكره الإدريسي الإخوة المغربيين الذين خرجوا من لشبونة واتجهوا في المحيط الأطلسي غربا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة ، ومعنى ذلك أن العرب فضلاً عن جهودهم التي استفاد منها كولبس -- حاولوا عبور المحيط الأطلسي الوصول إلى العالم الجديد قبل كولبس بكثير [٦].

وقد ساعد العرب على القيام برحلاتهم العلمية و التجارية معرفتهم بالبوصلة المغناطيسية التي اخترعوها و استخدموها في أسفارهم و استخدموها في الملاحة ، و نقلوها إلي أوروبا ، مما مكنهم من ارتياد البحار في جرأة و مهارة فائقة ، حتى ملكوا في أيديهم

١- المقديسي : يحي بن الخطيب أحمد بن أحمد بن جعفر المقدس ثم الدمشقي الشافعي ، شيخ و فقيه ، ولد سنة ٦٢٧ هـ ، و توفي سنة ٧١٦ هـ ، و هو من أسرة بها كثير من العلماء و الفقهاء و الأئمة.

٢- الاصطخري : هو أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد الاصطخري الشافعي ، فقيه العراق و رفيق ابن شريح ، و سمع من كثير من العلماء ، و مات سنة ٣٢٨ هـ عن عمر أكثر من ثمانين عاما.

٣- ياقوت الحموي : شهاب الدين الرومي النحوي الإخباري المؤرخ ، رحل إلى كثير من البلاد ، و له مؤلفات كثيرة منها " الآباء " و " معجم البلدان " و" المشترك وصفا و المختلف صعقا " و كتاب " والمآل في التاريخ " و كتاب " الأنساب " و مان شاعرا و كتاب " الدول " انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٦ ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠.

٤- د./ سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٥١٠.

٥- د./ سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٥١١.

٦- نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٥١١.

زمام التجارة بين الشرق و الغرب ، وقد ساعد هذا النشاط التجاري علي ابتكارهم لبعض النظم المالية و التجارية التي انتقلت إلى أوروبا عن طرقهم و لا تزال هذه المصطلحات العربية في المال و التجارة و الجغرافيا و الملاحة سائدة في أوروبا مثل : حوالة – شيك – بازار – دينار – تعريفة – أمير البحر " طرح السفينة – دار الصناعة – الفلك – الجلفطة[1].

و من الكشوف الجغرافية التي تمت علي يد العلماء الجغرافيين المسلمين و انتقلت إلى أوروبا معرفة أجزاء من العالم في آسيا و أفريقيا لم تكن معلومة للعالم من قبل ، و كذلك تفسير حركات المد و الجزر في البحار و الربط بينها و بين أوجه القمر ، و الفرق بين الخليج و المصب الخليجي ، و الجغرافيا الاقتصادية ، و الملاحة البحرية ، و ليس بخاف علينا الدور الذي لعبة الملاح العربي " شهاب الدين أحمد بن ماجد " كدليل للبحارة الأوروبيين و حركة الكشوف الجغرافيا ، و اكتشاف الطريق إلى الهند في كتابه " الفوائد " [2]و من أهم وأخطر الأجهزة العلمية في الجغرافيا و الملاحة التي ابتكرها العرب ، و كان لها الفضل في نقلها إلي أوروبا : الإبرة المغناطيسية أو البوصلة ، و الاصطرلاب لقراءة الميل عند الزوال ، المزاولة الشمسية ، و ذات السمت و الارتفاع ، و الحلقة الصغرى . وقد قام " الخوقندي " في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بصناعة " سداسي الفخري " الذي يستخدم في معرفة ارتفاعات الأماكن و الذي صنع علي أساسه " السدس أو صندوق سكستان وقد برع كثير من الصناع العرب مثل الكوهي و الصاغاتي في هذه الأمور[3] .

و من الجدير بالذكر أن الجغرافيين العرب قد توصلوا إلي كروية الأرض فابن خرذابة المتوفي سنة ٨٨٥ م يقول في كتابه المسالك و الممالك " : أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعه في جوف الفلك كلمحة في جوف البيضة . " و يقول ابن رسته في كتابه الأعراق النفيسة و المتوفي سنة ٩٠٣ م إن الله عزوجل وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة

١- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١١ – ٥١٣ ، عباس العقاد ، أثر العرب ، ص ٥٠ ، ٥١.
٢- الصياد ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ – ٣٢٠.
٣- نفس المرجع ، ص ٣٢٠ – ٣٢٢.

أجوف دورا ، و الأرض مستديرة أساسًا كالكرة مصمتة في جوف الفلك . " والمسعودي[١] في كتابه " التنبيه و الإشراق " و هو يتحدث عن جزر الأوقيانوس " . إن الشمس إذا غابت في الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين و ذلك نصف دائرة الأرض . "و كذلك توصل العرب إلى أن الأرض تدور حول الشمس و قد قال بذلك أبو سعيد السنجارى وقطب الدين الشيرازى و أبو الفرج الشابي و أعجب به البيرونى ، و هكذا سبقوا أوروبا في هذه الحقيقة وفتحوا الطريق أما كوبرا نيكوس الذي جاء في القرن السادس عشر يقول هذا القول : "وفضلا عن هذا و ذاك لقد أضاف العرب الخرائط لتوضيح المعلومات الجغرافية ، و هذا واضح من خلال كتاب الخوارزمي " صورة الأرض " و غيره من الجغرافيين العرب وأخذها عنهم الأوروبيون . (٢)

١- المسعودي : هو أبو الحسن على ابن الحين المسعودي ، من ذرية عبد الله بن مسعود ، توفي سنة ٣٤٦هـ وهو مؤرخ ، و له مؤلفات منها : كتاب مروج الذهب و معادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك وكتاب ذخائر العلوم و ما كان في سالف الدهور .
أنظر : المسعودي مروج الذهب ، م ١ ، ط ٥ ، دار الفكر ، ص ٦.
٢- الصياد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٧.

المبحث الثامن

أثر الحضارة العربية و الإسلامية على الشرق و الغرب في الفزياء و الميكانيكا :ـ

كما برع العرب في العلوم الإنسانية برعوا كذلك في العلوم الطبيعية و العلمية فنجد أثارهم واضحة في علوم الفيزياء و الميكانيكا و يتحدث عن ذلك جوستاف لوبون (١).

فيقول : " و إن كانت الكتب العربية التي وصلت إلى أوروبا قليلة فإن أهمية كتب العرب في الفيزياء توضح في كتاب "الحسن بن الهيثم" في البصريات و الذي أعده مسيو شال والذي يعد حُجة في هذه الموضوعات مصدر معارف أوروبا للبصريات .

كما يتحدث عن الميكانيكا عند العرب : " معارف العرب الميكانيكية العملية واسعة جدًا ، و يستدل على مهارتهم في الميكانيكا من بقايا آلاتهم التي انتهت إلينا من وصفهم لها في مؤلفاتهم .... و خاصة ذات الأثقال " .

وقد أصاب جوستاف لوبون في توضيحه فضل العرب في الابتكارات والإضافات التي ابتكروها وأضافوها إلى علمي الطبيعة و الميكانيكا . فقد كان من علماء العرب المشهورين في الطبيعيات " البيروني " الذي عاش في أواخر القرن العاشر و النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ، ومن أعماله في علم الطبيعة تعيين الكثافة النوعية الثمانية عشر نوعا من الأحجار الكريمة ، كما وضع القاعدة التي تنص على " أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزنه " و شرح أسباب خروج المياه من العيون الطبيعية و الآبار الارتوازية في ضوء نظرية الأواني المستطرقة (٢).

وكذلك العالم المسلم " الحسن ابن الهيثم " الذي عاش في الفترة من سنة ٩٦٥ م إلى سنة ١٠٣٠ م و أشتغل بالعدسات و البصريات ، و له عدة رسائل في أضواء الكواكب ، و في الضوء ، و في المرايا المحترقة بالقطوع ، و في المرايا المحرقة بالدائرة ، و في ضوء القمر.

١- حضارة العرب ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤.

٢- د./ سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٥١٣.



وقد استقى علماء الغرب وخاصةً روجر بيكون معلوماتهم من أبحاث ابن الهيثم. وأيضًا "الخازن البصري" الذي عاش في نفس الفترة التي عاشها ابن الهيثم، وكتب أبحاثا في المرايا وأنوعها وحرارتها ومحل الضوء الظاهرة فيها، وفي إنحراف الأشياء وتجسيمها ظاهريا. كما أجرى تجاربه لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته، وأوضح أن المادة يختلف وزنها في الهواء الكثيف عنه في الهواء الأقل كثافة لاختلاف الضغط، كما عالج النظريات المتعلقة بالجاذبية ومركز الثقل. وقد ترجمت كتب الخازن البصري [1] هذه إلى اللاتينية والإيطالية واستقى العلماء الغربيون معلوماتهم عنه وكان لها أثر كبير على علومهم في العصر الحديث[2].

ويأتي علي رأس العلماء العرب المسلمين "ابن سينا" الذي عاش في أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر، والذي قام ببحوث ودراسات وتجارب في الحركة والطاقة والفراغ والضوء والحرارة والكثافة النوعية، هذا فضلاً عن دراساته في المعادن التي استفاد منها الأوروبيون عن طبقات الأرض. أما كتابه "شفاء النفس" فيعد موسوعة علمية ضخمة في الطبيعة والرياضيات وعلوم الدين والاقتصاد والسياسة والموسيقي [3].

وفي علم الميكانيكا إلى جانب "البيروني" الذي اشتهر ببحوثه في الميكانيكا والايدروستاتيكا "بنو موسى" الذي ألفوا كتابا يعتبر الأول من نوعه في الميكانيكا وإيجاد مراكز الثقل، ووصف الرازي الأجهزة العلمية التي كانت معروفة في عصره، وصف أكثر من عشرين من هذه الأجهزة المعدنية والزجاجية وقد اعترف "بلتن" في أكاديمية العلوم الأمريكية بأثر كتاب "ميزان الحكمة" للخازن وما له شأن في تاريخ الطبيعة

١- الخازن: هو الأمام محدث همزان، أبو الحسن الحارس بن عبدا لله بن إسماعيل بن عقيل الهمزاني المعروف بالخازن، سمع عن كثير من الحدثين، و مات سنة ٢٣٥ هـ، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٩، ص ٤١١، ٤١٢.

٢- د./ سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ ٢، ص ٥١٣، ٥١٤.

٣- نفس المرجع، ص ٥١٥.

و تقدم الفكر العلمي عند العرب ، فقد سبق الخازن " تورشللي " [١] في الإشارة إلى مادة الهواء ووزنه [٢].

و قد بحث الخازن كيفية إيجاد الكثافة للأجسام الصلبة و السائلة و اخترع ميزانا لوزن الأجسام في الهواء و الماء له خمس كفات تتحرك على ذراع مدرج . و قدر الكثافة لكثير من العناصر و المركبات لدرجة عظيمة من الدقة . كما تحدث عن الجاذبية واستفاد منها نيوتين و جاليليو. كما أن للخازن بحوث في مراكز الأثقال و شرح بعض الآلات وكيفية الانتفاع بها و الأنابيب الشعرية ، كما ميز بموازينه الأحجار الكريمة عن أشباهها و قد كانت كل هذه الرسائل العربية الإسلامية في الطبيعة و الميكانيكا المراجع الأساسية والأصلية التي استقى منها العلماء الأوربيون معلوماتهم [٣] .

١- تورشيللى: عالم ايطالي في الفيزياء اخترع ميزان الضغط (بارومتر) ولد سنة ١٦٠٨م ومات سنة ١٦٤٧م.
٢- عبد الحليم منتصر ، " في العلوم و الطبيعة " في كتاب أثر العرب في النهضة الأوروبية ، ص ٢٣٤.
٣- عبد الحليم منتصر، "في العلوم و الطبيعة" في كتاب أثر العرب في النهضة الأوروبية، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥.



المبحث التاسع

أثر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب في الكيمياء :-

لقد كان للعرب فضل كبير و أثر ضخم علي الشرق و الغرب في علم الكيمياء ، و قد أصاب جوستاف لوبون[1] في توضيح هذا الفضل للعرب فيقول : " و المعارف التي انتقلت من اليونان إلي العرب في الكيمياء ضعيفة ، و لم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركبات المهمة كالكحول و زيت الزاج (الحامض الكبريتي) و ماء الفضة (الحامض النتري) و ماء الذهب و ما إلي ذلك ، و قد اكتشف العرب أهم أسس الكيمياء كالتقطير ...... قال بعض المؤلفين ، إن لافوازيه واضع علم الكيمياء ، و قد نسوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم ، و منها علم الكيمياء ، صار ابتداعه دفعة واحدة و أنه وجد عند العرب عن المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافات لم يكن لافوازيه [2] ليستطيع إلي اكتشافاته بغيرها".

ثم يتحدث عن علماء العرب في هذا العلم و على رأسهم " جابر بن حيان " الذي كان له من المؤلفات الكثير ، و قد احتوت هذه المؤلفات علي مركبات كانت مجهولة من قبل و كذلك علي أعمال أساسية كالتقطير و غيرها و التي لم توصف من قبل .... و يتناول بالحديث عن " الرازي " الذي أول من وصف زيت الزاج (الحامض الكبريتي) و الكحول ويين طرق الحصول عليها .

ولقد أصاب جوستاف لوبون كبد الحقيقة ، فقد توصل العلماء العرب المسلمون إلى ابتكارات واكتشافات عديدة في علم الكيمياء ، بعد أن ظل هذا العلم مشوبًا ببعض الخرافات والأوهام كالبحث عن إكسير الحياة الذي يشفي من جميع الأمراض . كما كان

١- حضارة العرب ، ص ٤٧٤ – ٤٧٧.

٢- لافوا زيه : أنطوان لوران ، كيميائى فرنسي مؤسس الكيمياء الحديثة ، صاحب تسمية الأكسجين سنة ١٧٧٥ م ، سنة ١٧٧٧ م ، أدخل تعديلات على صناعة البارود ، و أثبت أن التنفس هو عملية احتراق سنة ١٧٨٠م . أنظر : البعلبكى ، موسوعة المورد العربية ، م ٢ ، ص ١٠٢٤.



علماء العرب في البداية يعتقدون في أن جميع المعادن تتكون من عناصر واحدة و لا يختلف بعضها عن بعض إلاَّ باختلاف تلك العناصر في تركيبها و في حالت تحليلها و أعادت تركيبها ينتج عنها معادن أخري كالذهب و الفضة ، مما جعلهم يسعون إلي البحث عن الحقيقة و الوصول إليها ، فقد حللوا كثيرًا من المواد تحليلاً كيميائيا ، و ميزوا بين القلويات و الأحماض و شرحوا كثيرا من التفاعلات الكيمائية و تأثير مواد مختلفة و هذا جعل ول ديورانت (١) يقول : " يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بواصفها علمًا من العلوم لأنهم أدخلوا الملاحظة الدقيقة و التجارب العلمية و العناية برصد نتائجها في حين أختصر اليونانيون علي الخبرة الصناعية و الفروض الغامضة .

" فقد جرد العرب علم " الكيمياء " مما كان يصاحبه من سحر و شعوذة فتحول على يد " جابر بن حيان و أبو بكر الرازي " و غيرهما لإلي علم مجرد يستند إلى القوانين الطبيعية و هو ما يسمى بعلم الكيمياء الحديث (٢).

ويعتبر جابر ابن حيان شيخ الكيمائيين العرب ، فقد بين أهمية تجارب وأوصى بالدقة في الملاحظة و الاحتياط ، و عدم التسرع و التأني في عصر كانت نظرية العناصر السائدة . كما رأى أن أراء العلماء اليونان لا تفسر الظواهر و المشاهدات . و هو الذي ابتدع نظرية الفلزات و تحولها إلي عنصري الزئبق و الكبريت ، و قد ظل معمولا بهذه النظرية حتى القرن الثامن عشر حتى تلتها نظرية الفلوجستين كما أدخل جابر ابن حيان علي الصناعة " علم الميزان " و جعل لكل من الطبائع الأربع ميزانًـا . و كذلك عرف كثيرًا من العمليات الكيميائية كالتبخير و التقطير و الترشيح و التكليس و الإذابة و التبلور و التصعيد و حضر كثيرًا من المواد الكيميائية و عرف خواصها مثل نترات الفضة و حامض الأوزوتيك و ميزا بين التقطير الذي يذهب الدنس من المعادن ، و الترشيح الذي يبعد ما يظهر من

١- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٥.

٢- د./ محمود قطام ، " الجوانب العلمية في الحضارة الإسلامية " ، مجلة الأمة العدد ٤١ ، جمادى الأولى ١٩٨٤ ، ص ٤٧.

الأوساخ و الأدناس . و جاء " دالتن " بعد ذلك ليأخذ هذه النظريات و يقول بالاتحاد الكيميائى الذي يكون بتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض . [1]

وقد ترجمت كتب و رسائل جابر ابن حيان إلي اللاتينية و ظلت هي المراجع التي يرجع إليها في علم الكيمياء و درس عليها " كوب ، و هو ليمارد ، و برثوليه ، و كراواس وسارتون " و وضعوه في قمة العلماء العرب . و كذلك " أبو بكر الرازي " الذي أشتهر بالطب والكيمياء ، فقد ابتكر أجهزه لم تكن موجودة ، و وصف أخرى منها المعدني و الزجاجي ومزج بين الطب و الكيمياء ، بأن الشفاء يأتي من خلال التفاعلات الكيميائية داخل الجسم. وقسم المواد الكيميائية إلي معدنية و نباتية و حيوانية و مواد مشتقة ، و قسم كل ماده منها إلي أقسام و فروع صغيرة و دقيقة . كما قام بتحضير الأحماض مثل حامض الكبرتيك الذي سماه زيت الزاج ، حضر الكحول بتقطير المواد النشوية و السكرية المختمرة كما قدر الكثافة النوعية لكثير من السوائل باستخدام ميزانـــا خاصًا . هذا فضلاً عن مجموعة من العلماء الآخرين مثل " المجريطي " الذي ترجمت كتبه إلي اللاتينية ، و داود الأنطاقى وابن البيطار و البغدادي و ابن ميمون و ابن النفيس و الظهراوي و غيرهم [2].

١- عبد الحليم منتصر ، المقال السابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.
٢- نفس المرجع ، ص ٢٣٨ – ٢٤٠.

المبحث العاشر

أثـر الحضارة العربية الإسلامية على الشرق و الغرب في العلوم الطبية :ـ

لقد كان لعلماء العرب كبير الفضل و عظيمة علي العالم اجمع في الطب و الصحة وقد أصاب جوستاف لوبون [1]حينما تحدث عن كتب الرازي و ابن سينا التي ظلت أساسا للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر الميلادي ، و أوضح أن أبا القاسم القرطبي هو أشهر جراحي العرب و أن كتبه كانت المصدر العام الذي استقي منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر. و يتحدث كذلك عن علم الصحة أو الطب عند العرب و مدى اهتمامهم به فيقول : " لم يجهل العرب أهمية حفظ الصحة ، و كان العرب يعرفون جيدًا أن علم الصحة يعلمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها و كانت مناهجهم الصحية طيبة منذ القديم ، و ما أمر به القرآن من الوضوء و الامتناع عن شرب الخمر ثم سار عليه أبناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي علي الطعام الحيواني غاية في الحكمة ، و ليس فيما نسب إلي النبي من الوصايا الصحية ما ينتقد " .

وعن فضل العرب في علم الطب على أوروبا يقول جوستاف لوبون : " و تنطوي مدرسة ساليرم علي نصائح غالية في علم الصحة ، و لا أحد يجهل أن هذه المدرسة التي عدت أول مدرسة في أوروبا زمنا طويلا ، مدينة للعرب بشهرتها ، و ذلك أن الرومان لما استولوا على صقلية و على جزء من إيطاليا في أوساط القرن الحادي عشر من الميلاد أحاطوا مدرسة الطب التي أنشائها العرب بما أحاطوا به المعاهد الإسلامية من الاعتناء الكبير و أن قسطنطين الأفريقي الذى كان من عرب قرطاجة ، عين رئيسا لها ، و أنه ترجم أهم كتب العرب الطبية إلي اللغات اللاتينية ، فاقتطفت من هذه الكتب وصايا مدرسة ساليرم التي ظلت سبب شهرتها الفائقة زمنا غير قصير " .

١- حضارة العرب ، ص ٤٨٨ – ٤٩٤.



كما تحدث المؤلف بصراحة و موضوعية تامة عن تقدم العرب في الطب و الجراحة و تشخيص الأمراض و وصف العلاج و الأدوية ، و أتبع ذلك بفضل العرب على العالم والنهضة الحديثة التي استقت المعارف الطبية من علوم العرب كاستعمال الماء البارد في معالجة حمى التيفود ، و العقاقير التي استخدمها العرب و المستحضرات الصيدلية التي لازالت تستخدم حتى اليوم ، و المبتكرات التي يرجع للعرب الفضل في ابتكارها في الجراحة و يعترف بأن الكتب العربية في هذا المجال كانت و لا تزال مراجعة أساسية وأصلية و مهمة حتى وقت قريب في أوروبا و الفضل ما شهدت به الأعداء ، و يعد اعتراف جوستاف لوبون الصريح بفضل الدين الإسلامي من آيات قرآنية و أحاديث نبوية شريفة في تطور العلوم الطبية و تناولها لعلاج كثير من الأمراض من حيث التشخيص و كيفية العلاج و هذا الاعتراف يرجع إلى عقلية نابهة و قلب سليم نابه فاهم لدستور الدين الإسلامي و كيف كان هذا الدستور نافعا و شافيا للدنيا و الآخرة في تناوله حياة الإنسان وأن العلم الحديث يؤكد ما ذهب إليه القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة بطريقة علمية .

و وقع الأمر أن العرب آمنوا بأهمية الطب انطلاقا من قول الرسول صلى الله عليه و سلم " العلم علمان علم الأديان و علم الأبدان [1] . و لذلك عنوا بهذا العلم عناية فائقة حتى بلغ عدد المتخصصين فيه درجة من الكثيرة جعلت ابن أصيبعة يفرد لهم مجلدًا من كتابه "عيون الأنبياء في طبقات الأطباء " و قد بدأ العرب بترجمة كتب اليونان في الطب مثل جالينوس و هيبوقراط و بولس الايجبنى و غيرهم من السابقين ، و لكنهم عدلوا فيها وأضافوا إليها الجديد الذي لم يسبقهم أحد إليه [2].

وقد اشتهر في الطب من العرب " يوحنا بن مأسويه " المتوفى سنة ٨٥٧ م ودرس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، و " حنين بن اسحق " صاحب كتاب " العشر مقالات في العين " و يعتبر أقدم مرجع في طب العيون . و " علي بن عيسى " صاحب كتاب " تذكرة

١- قال في كشف الخفاء : قال في الخلاصة موضوع ... و نقل عن السيوطي في أوائل خطبة كتابة الطب النبوي أنه من كلام الأمام الشافعي رضي الله عنه – كشف الخفاء ٢ / ٨٩.
٢- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ ، ٥١٩.

الكاحلين " في العيون ، و ظل هذا الكتاب يدرس في أوروبا حتى القرن الثامن عشر. أما الرازي فقد اشتهر في طب الحميات مثل الجدري و الحصبة و له كتب و رسائل في ذلك استقى الغرب الأوروبي معلوماتهم عنها في هذه الأمراض ، و له كتاب كذلك في أمراض الأطفال ، و من اشتهر كتبه " الحاوي " و " المنصوري " و تناول فيها التشريح و الأمزجة والأغذية و الأدوية و نظام السفر و الجراحة ، و يعتبر أعظم و أقدم طبيب سريري (إكلينيكي) في العصور الوسطى . و كذلك الطبيب " علي بن عباس " صاحب كتاب " الملكي " و هو معاصر للرازي ، و يتميز باعتماده على المشاهدات العلمية في المستشفيات كما اكتشف أخطاء كبيرة عند أطباء اليونان القدامى . أما كتاب " القانون " في الطب لابن سينا فيعتبر دائرة معارف طبية في مجموعة من الأمراض في جسم الإنسان كما عرف العرب الأمراض النفسية و شخصوها و عالجوها قبل أن يولد فرويد [1] أو غيره من علماء أوروبا بمئات السنين . و في الجراحة اشتهر من جراحي العرب " أبو القاسم القرطبي " الذي اخترع كثيرًا من العمليات الجراحية في مختلف أجزاء الجسم [2].

ومن الذين اشتهروا في الطب و عاشوا في كنف الدولة الإسلامية و في ظل التسامح الإسلامي الذي ساعدهم علي هذا النبوغ و التفوق أسرة آل بختيشوع الذين أحرزوا شهرة ومجدًا و حظوة عند الخلفاء العباسيين علي مدي طويل ، و منهم " جبريل بن عبد الله بن بختيشوع " و له كتاب في دغل العين ، و قد مارسوا الطب من الناحية العلمية أكثر منه من الناحية النظرية [3].

١- فرويد : سيجموند ، سيكولوجي الماني ، و لد في مدينة فريبورغ في سنة ١٨٥٦م ، و ينتمي إلى عائلة يهودية ، و تزوج سنة ١٨٨٦ م . و تخصص في الأمراض العصبية و استخدم التنويم المغناطيسي سافر إلى نانسي لإتقان عملية التنويم المغناطيسي ، توفي سنة ١٩٣٩ م تدهورت حالته الصحية و مات في جولدن جرين . انظر : موريس شريل ، موسوعة علماء التربية و علماء النفس ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ص ١٨٥ ــ ١٨٩.

٢- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٩ ــ ٥٢١.

٣- د./ محمد كامل حسين "في الطب و الأقربازين " أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوربية،ص ٢٦٩.

وقد ترجمت المؤلفات العربية في الطب إلي اللاتينية ليدرسها أبناء الغرب في الجامعات و خاصة بعد إنشاء بعد إنشاء جامعة سالريونو في الطب و منها كتاب " القانون " لابن سينا ، و كتاب الحاوي " للرازي " و كتب ابن الهيثم في البصريات و غيرهم الكثير [١]كما اهتم الخلفاء المسلمون بإنشاء المستشفيات " البيمارستانات " التي أول ما نشأت علي عهد هارون الرشيد العباسي ، و هم أول من استخدم المناخ في اختيار أماكن هذه المستشفيات في الأماكن ذات الهواء النقي الجاف الذي لا يتعفن فيه اللحم [٢].

وفي العلاج لم يقتصر العرب علي استخدام الأدوية و العقاقير من الأعشاب فحسب بل عمدوا إلي الأغذية المختلفة و وضحوا منافعها و مضارها و الحالات التي يحسن الإكثار فيها أو الإقلال فيها من الطعام ، و عدم الإكثار من المياه أثناء الطعام حتى لا يسبب عسر الهضم و الإقلال من العصارة المعدية و عصارة الكبد إلي غير ذلك من علوم الطب و الصيدلة التي سبقوا العالم إليها [٣] و لسنا بصدد الدخول في تفصيلات دقيقة من الناحية العلمية في مثل هذه العلوم ، و لكننا نوضح فقط أثر العلوم العربية الإسلامية في الشرق و الغرب و مدي ما استفادته أصحاب النهضة الحديثة من الإسلام و المسلمين في كافة النواحي العلمية و الحضارية .

١- عباس العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٣٦ ، ٣٧.
٢- نفس المرجع و ص ٣٧.
٣- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٢٤ ، ٥٢٥.

المبحث الحادى عشر

أثر الحضارة العربية و الإسلامية علي الشرق و الغرب في الفنون و العمارة :-

تعتبر الفنون و العمارة الإسلامية أكثر ما تركه العرب في البلاد المفتوحة و كذلك البلاد التي تأثرت بهذه الفنون و نقلتها إليها و لا يزال هذا التأثر موجود في الشرق والغرب حتى يومنا هذا بكافة طرزها الساسانية الفارسية و الإسلامية الخالصة و السامرائية العراقية و غيرها من طرز الفنون و العمارة التي عمل المسلمون علي ترقيتها و تطويرها وصبغها بالصبغة العربية الإسلامية بكل ما فيها من فن دقيق و جمال رائع يسحر الناظر إليه و يخطف قلبه للتمتع به . و قد أبدع جوستاف لوبون [1]في تصوير هذه الفنون وآثارها و تأثيرها في الشرق و الغرب كافة حينما يتحدث عن مصادر هذه الفنون العربية فيذكر أنها كغيرها من الأمم تأخذ من سابقيها بمعني أن كل أمة تنتفع بآثار الأمم التي تقدمها قبل أن تصبح صاحبة لآثار فنية ذاتية كما يتحدث عن الجمال و الروعة في الفنون العربية فيقول : " و ما على المرء إلا أن ينظر لإلى آثار العربية الأدبية و الفنية ليعلم أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائما و ذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال و النضارة و البهاء و فيض الزخارف و التفنن في أدق الجزئيات ، و الأمة العربية قد رغبت بعد أن اغتنت (و الأمة العربية أمة شعراء ، و أي شاعر لا يكون متفننا) في تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصور الساحرة التي تخيل إلى الناظر أنها مؤلفة من تخاريم رخامية مرصعة بالذهب و الحجارة الكريمة . و لم يكن لأمة مثل تلك العجائب ، و لكن فهي وليدة جيل فني مضى و خيال خصب ذوي ، و لا يطمعن في قيام مثلها في الدور الحاضر المادي الفاتر الذي دخل البشر فيه " .

١- حضارة العرب ، ص ٤٤٩ – ٥١٩.

و عندما يتحدث عن التصور فيتناول كيف أن تعاليم الدين الإسلامي كان لها تأثير في هذا الفن فيقول : " من الأقوال الشائعة أنه حرم على المسلمين تصوير الرب والموجودات الحية ، و يعزو القرآن ، أو تفاسير القرآن على الأقل ، هذا المنع إلى النبي " .

و يؤكد ما سبق ذكره عندما يتحدث عن التماثيل ، و يذكر أنها من الأشياء النادرة عند العرب نتيجة لتعاليم الدين الإسلامي التي تحرم صناعة التماثيل [1] .

و أما بالنسبة إلى الصباغة و صناعة الحلي و الترصيع و التكفيف بالأحجار الكريمة فيقول : " تقدم العرب كثيرًا في الصناعة المعدنية ، و بلغ إتقانهم لبعضها مبلغا يصعب الوصول إلى مثله في زمننا " . ثم يتعرض للنقود و ما كانت عليه النقود العربية و كيف أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب النقود الإسلامية و ذلك بعدما كان المسلمون يستخدمون نقود ملوك الروم .

كما يذكر كيف وصل إتقان العرب للمصنوعات الخشبية و ترصيعها بالصدف والعاج إلى درجة تجدي بالعجب حقا ، و يذكر الأمثلة التي تدل على مهارة و إتقان العرب لهذه المصنوعات ، و كذلك الفسيفساء و صناعة الزجاج و الخزف و المنسوجات و البسط .

و عن العمارة عند العرب يأسف جوستاف لوبون [2] عن قلة الاهتمام بهذا الفن عند العرب إلا أنه يتحدث بإسهاب و تفصيلات كثيرة عن عناصر هذا الفن من حيث

١- يوضح الدكتور يوسف القرضاوي حرمة التماثيل في الإسلام قائلا " و لعل بعض ما ورد من الوعيد الشديد علي التصوير و يقصد به الذين ينحتون الآلهه المزعومة و المعبودات المتنوعة عند الأمم المختلفة، و ذلك مثل حديث ابن مسعود مرفوعا " إن أشد الناس عذابا عند الله المصورون " متفق عليه. و قال النووي : هى محمولة علي من فعل الصورة لتعبد و هو صانع الأصنام و نحوها فهذا [illegible] هو أشد عذابا ، و قيل هي فيمن قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى و اعتقد [illegible] فهذا كافر له من أشد العذاب ما للكفار و يزيد عذابه بزيادة قبح كفره . و قصر بعض فقهاء السلف التحريم علي المجسم الذي له ظل لأنها متشابهة للوثنية ، ومضاهاة لخلق الله " هو الذي يصوركم في الأرحام"..... و في الحديث القدسي " و من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ." انظر التفصيلات في : يوسف القرضاوى ، ملامح المجتمع المسلم ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٥ .و في الحديث الشريف " النحت و الحفر الذي يتكون فيه تمثال كامل أو حيوان حكمة الحرمة لما رواه البخاري و مسلم عن مسروق قال دخلنا من عبد الله بيتا فيه تمثال فقال لتمثال منها تمثال من هذا ؟ قالوا تمثال مريم ، قال عبد الله . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم " إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون " و في رواية ": الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقا[illegible] لهم أحيوا ما خلقتم . " انظر : وزارة الأوقاف ، كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف ، جـ٢ ، ص ٧ ١ .

٢- حضارة العرب ، ص ٥٢٦ ـ ٥٥١ .

المـواد الإنشـائية والأعمـدة وتيجانهـا، والأقـواس، والمـآذن، والقبـاب، والمتـدليات والنقوش العربية ودقائق الزخرفة، والزخارف الملونة. كما يذكر المباني التي بناها العرب في كل البلاد المفتوحة، وما تميزت به هذه المباني من حيث التراكيب الفنية واستخدام العناصر سابقة الذكر.

وحقيقة الأمر أن العرب في الجاهلية لم يكن لهم فن قومي ذو طابع خاص نستطيع أن نطلق عليه "الفن العربي". ولكن لما اتسعت الدولة العربية الإسلامية في الشرق والغرب، وكان لهذه البلاد المفتوحة فنونها وحضارتها الخاصة بها، استفاد العرب من ذلك التراث الحضاري الخاص بهذه البلاد، فتعلموا مختلف الصناعات والحرف والفنون وأجادوها وهذبوها، ثم نقلوها إلى أوروبا لتستفيد منها [1] سواء كان هذا الانتقال عن طريق التجارة أو عن طريق الهدايا نتيجة العلاقات الودية بين المسلمين وبعض بلدان أوروبا، أو نتيجة للاحتكاك الحضاري بين الطرفين نتيجة الجوار.

ولعل عقيدة الإسلام كانت العامل الأساسي الراسخ الذي أعان المسلمين على تغيير الأساليب المحلية المختلفة في البلاد التي خضعت للحكم الإسلامي، كما أعان على أن يستخرج من هذه الأساليب الحضارية السابقة طراز له مميزاته الذاتية الإسلامية وخاصة في فن العمارة. فقد كانت الأبنية التي بناها العرب في البداية جوامع أو قصور في الغالب. ومعظم المنشآت الهامة في فن العمارة في القرون الأولى التالية ظلت مقصورة على المساجد والأبنية الدينية الأخرى كالمدرسة أو التكية ذات المصلى. وكان المسجد أهم ما تتمثل فيه العمارة العربية، وكان يختلف إلى حد ما باختلاف البقاع ولكنه ظل دائما يحتفظ بمميزاته الرئيسية. كما كان لموسم الحج أثر كبير في استقاء العناصر الفنية المعمارية في البلدان الإسلامية وتطويرها والارتقاء بها [2].

١- د./ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥٣٠، ٥٣١.
٢- د./ زكي محمد حسن، تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ط١، دار الكتاب العربي السورية، ١٩٨٤، ص١١٦ وما بعدها.

وبهذه الطريقة فاق العرب كل من سبقهم من الأمم ، و ظهرت قوتهم الإبداعية في مختلف الفنون ، و استطاعوا أن يغزو أوروبا بإنتاج مبتكر و صناعات جديدة ، و فنون كانت و ما زالت موضع إنبهار أوروبا و مثار إعجاب الأوربيين . ففي الصناعة تجلت مهارتهم في كثير من الصناعات ، و خاصة صناعة النسيج و الجلود و الورق و الخزف والزجاج ، ففي النسيج نبغوا نبوغا باهرًا أقبلت عليه أوروبا إقبالا كبيرًا و سميت هذه المنسوجات و الحراير بأسمائها العربية مثل الفستيان نسبة إلي الفسطاط و الدمشتق نسبة إلي دمشق ، و الموسلية نسبة إلى الموصل ، والجرينادين نسبة إلي غرناطة ، و التابي نسبة إلي حي العتبية ببغداد ، و حرير البلداكو نسبة إلى حرير بغداد ، و كذلك الجلود ودبغها و التي ازدهرت في بغداد خاصة و أطلق عليها الأوربيين الجلود البغدادي [1].

هذا فضلا عن المصنوعات المعدنية عن الحلي الذهبية و السيوف و المفاتيح والذهب و الفضة و غيرها التي انتشرت في أوروبا و أستقى منها الأوروبيون طرق هذه الصناعات الفاخرة . كما برع العرب في صناعة الفخار و ما يرتبط بها من القيشاني والخزف و تفوقوا فيها حتى أصبح الأوروبيون يزينون كنائسهم بهذا الصنف و الصناعة العربية . و كان لتحريم الإسلام الطعام في الأواني المعدنية الفضل في التفوق العربي الإسلامي في صناعة الأواني الخزفية اللامعة ذات البريق المعدني . هذا إلى جانب الأواني الزجاجية المذهبة أو المطلية بالمينا ، و زخرفة الزجاج ، الذي اشتهرت به مدن بلاد الشام الإسلامية . و لأن الإسلام يحرم الرسم و التصوير و صنع التماثيل بالنسبة للأفراد فقد اتجه العرب إلى توجيه فنونهم إلى الرسم و الزخرفة على الزجاج و القيشاني و النسيج و الكتب و المباني بعبارات من الخط الكوفي و وحدات من الأشكال الهندسية المنسجمة أو الزخارف من النبات وأوراق الشجر [2].

١- د./ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٣١، ٥٣٢.
٢- نفس المرجع ، ص ٥٣٢ – ٥٣٧ ، و كذلك زكي محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٢٣٦ و ما بعدها.

وقد نشطت حركة البناء والعمارة في المدن الإسلامية، وبنيت حولها الأسوار والحصون وأقيمت بها المساجد والدور والقصور والأسواق والحمامات والأربطة وخزانات المياه والبيمارستانات والمدارس، وصاحب هذا النشاط المعماري نشاط في الحرف والصناعات فأنتج رجال الفن التحف الثمينة من الخشب والعاج وغيرها من الفنون، كما ازدهرت من العمارة الزخارف المعمارية التي اتخذت لها خصائص خاصة امتازت بها على السواء حيث التصميم أو الإخراج الفني أو من حيث الموضوع أو الأسلوب مثل النقش على الجص أو الحفر المباشر أو طريقة الصب الآلية، والنحت في الحجارة أو الخشب أو النحت الغائر، وظهرت لأول مرة طريقه الإسلامية المعروفة بالأرابيسك والمقرنصات والعقود التجانية في الأعمدة، وامتازا الفن الإسلامي بدقة الرسم ودقة الصناعة خصب الخيال (1). وغير ذلك من الخصائص الإسلامية التي جاءت انطلاقا من دعائم العقيدة الإسلامية.

وبعد هذا الغرض التفصيلي لأثر الحضارة الإسلامية على الشرق والغرب في كافة العلوم الإنسانية والتطبيقية والفنون يجدر بنا أن نجمل دون تفصيل علاقة الإسلام بالعلم الحديث لنوضح مدى أثر الاسم والدعوة الإسلامية في خلق وابتكار وتطوير هذه العلوم الأسس الحضارية، وهذا ما خلق لنا ما يسمى بالحضارة العربية الإسلامية الخالصة من حيث الأسس والثقافة والأهداف.

فالعلاقة وثيقة بين الإسلام والعلم، ولم يقف الإسلام في وجه العلم والتقدم العلمي حيث إنه يرفع العلماء إلى درجة الملائكة ويقدر الجهود العلمية التي ترنو إلى تقدم البشرية، ولقد أكد الإسلام غلبة العقل والعلم على جميع مظاهر الحياة. ولقد قرر العلماء والفقهاء المسلمون: " أن كل علم يحتاج إليه المسلمون في دينهم أو دنياهم فإن تعلمه وإتقانه فرد كفاية تأثم الأمة كلها والأخص أولو الأمر إذا فرطوا فيه (2).

١- احمد فكرى " أثر الإسلام في العمارة و التحف الفنية " ، أثر العرب و الإسلام ، ص ٤٠٥ و ما بعدها.
٢- محمد السيد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ط١، دار السلام، ١٩٩٧، ص٦٦.

ولقد أخذت الحضارة الإسلامية بيدي البشرية إلي الأفضل ، و قدمت إليها أعلامًا وأساتذة في كافة العلوم ، ذكرتها في الحديث عن أثر الإسلام و الحضارة الإسلامية في كل علم من هذه العلوم . و يشهد الأوروبيون أنفسهم لهذا الفضل للمسلمين وحضارتهم علي الحضارة الأوروبية الحديثة أمثال بريفولد ، و ريتشارد كول ، و شارليز سنجر ، وسارتون[1] لدرجة أن الأخير يقول : " حقق المسلمون – عباقرة الشرق – أعظم المآثر في القرون الوسطى فكتبت أعظم المؤلفات قيمة ، و أكثرها أصالة و أغزرها مادة باللغة العربية ..... و كانت هذه اللغة من منتصف القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة للعلم و الارتقاء للجنس البشرى ، و لقد كان من الضروري لأي إنسان يريد أن يلم ثقافة عصره و بأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية " [2] و أمام هذه الشهادة الصريحة ماذا نقول للذين ينكرون تعريب العلوم الحديثة و تدريسها باللغة العربية و هم من أهل اللغة العربية و إن هذه العلوم الحديثة ما هي إلا امتداد مترجم للغات الأوربية من اللغة والعلوم العربية الإسلامية ، و نقول لهم هذه بضاعتنا ردت إلينا و لابد من إرجاعها إلي أصولها الحقيقية و هي اللغة العربية .

فالإسلام و العلم النافع متفقان في المطالب و الغايات و الأهداف . و أن الإسلام وأساس الحضارة الإنسانية [3]. و كما يقول " هورتن " [4]: " كان العرب في القرون الوسطى إلى سنة ١٥٠٠م سادة أوروبا تقريبا و لم ينشأ ظن الأوربيين بأن الدين الإسلامي لا يتماشى مع المدنية إلا من جهلهم لهذا الدين و عدم تعمقهم فيه ، بل لتعلقهم بالقشور

١- جورج سارتون : عالم أمريكي يعتب أحد أعظم مؤرخي العلم ، ارتحل إلى سوريا و مصر و تونس والجزائر والمغرب ليدرس العربية عام ١٩٣١ – ١٩٣٢ م على مآثر العرب في العلم ، ومن مآثره : "مقدمة لدراسة تاريخ العلم " و يقع في ثلاثة مجلدات .
انظر : البعلبكي ، موسوعة المورد العربية م ١ ، ص ٦٧ – ٦٩.

٢- السيد يوسف ، المرجع السابق ، ص ٦٧ – ٦٩.

٣- أنظر التفصيلات في : إبراهيم سليمان عيسى ، من جوانب الحضارة الإسلامية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، العدد ١٩ ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ١٩ – ٣٢.

٤- أنور الجندي ، صفحات من أمجادنا ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ٥٣ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣١.

الفصل الثالث

وضع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي

و يحتوى على :-

- سماحة المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة .
- حقوق أهل الذمة .
- واجبات أهل الذمة .
- مقارنة بين تسامح المسلمين و تعصب الغرب .

المقدمة

اتسمت حركة الفتوحات الإسلامية بالسلم و السماحة بعرض الدين الإسلامي على أهل البلاد المفتوحة ، أو إلقاء على ديانتهم في مقابل دفع الجزية التي هي ضريبة دفاع وأمان ، و كانت لا تتجاوز الدينارين وتتفاوت من شخص لآخر و من بلد لآخر طبقًا للظروف الشخصية أو ظروف البلد ذاته . و أصبح أهل هذه البلاد في ذمة المسلمين يقومون بحمايتهم و الدفاع عنهم ، و لهم حقوق و عليهم واجبات تجاه الدولة .

المبحث الأول

سماحة المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة :

و يتحدث جوستاف لوبون عن هذه السماحة في ترك حرية العقيدة لأهل الأديان الأخرى الذين يعيشون في دار الإسلام من غير المسلمين فيقول : " رأينا من آيات القرآن أن مسامحة محمد لليهود و النصارى كانت عظيمة للغاية و أنه لم يفعل مثيلها مؤسسوا الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية و النصرانية على وجه الخصوص " .

اتبع الفاتحون أسلوبا إسلاميا متسامحا مع أهل البلاد التي كانوا ينوون فتحها للأهداف التي ذكرناها سالفا ، فقد كانوا يعرضون على أهل هذه البلاد ثلاث اختيارات أحدهم : إما الإسلام ، و إما الحرب . فإذا اعتنقوا الإسلام أصبحوا مسلمين و إخوانا لهؤلاء الفاتحين " لهم ما لهم و عليهم ما عليهم " من حقوق و واجبات . و إذا رفضوا الدخول في الإسلام و ظلوا على ديانتهم و رضوا بدفع الجزية التي هي ضريبة دفاع أصبحوا في ذمة المسلمين و يجب على المسلمين الدفاع عنهم و تأمينهم و حمايتهم و كنائسهم ومعابدهم " و لهم ما للمسلمين و عليهم ما عليهم " ، و في حالة الرفض للاختيارين الأول والثاني فمعنى هذا أن الفاصل بينهم هو الحرب و قد دخل كثير من أهل البلاد المفتوحة الإسلام و أصبحوا مسلمين ، و من بقى على دينه من اليهود و النصارى – و يعرفوا بأهل الكتاب [1]، و رضوا بالجزية و دخلوا في ذمة المسلمين و عرفوا بأهل الذمة [2]تركوا وشأنهم ، و الذمة في اللغة : هي الأمان و العهد ، و أهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود و غيرهم ممن يقيم في دار الإسلام ، و قد جاء في الحديث الشريف ..... يسعى بذمتهم أدناهم ... [3]، و فسر الفقهاء ذمتهم بمعنى الأمان ، و قالوا في تفسير عقد الذمة بأنه إقرار بعض الكفار على كفرهم

١- د./ يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ص ٧.
٢- د./ الخربوطلي ، الإسلام أهل الذمة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٦٦.
٣- أخرجه أبو داود في كتاب الديات ، باب إيقاد المسلم بالكافر ، جـ٤ ، ص ١٧٩ ، رقم ٤٥٣٠ ، و أخرجه ابن ماجه في كتاب المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ج٢ ، ص ٨٩٥ ، رقم ٢٦٨٣ ، عن ابن عباس.

بشرط بذل الجزية و التزام أحكام الملة . وعلى هذا يمكن القول بأن عقد الذمة بمقتضاه يصير غير المسلمين في ذمة المسلمين أي في عهدهم و أمانهم على وجه التحديد ، و له حق الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام [1] .

وقد عاملهم العرب بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب ، و كانت كتب الصلح مرآة صافية انعكست عليها صور كثيرة لتسامح المسلمين [2].

وفي كتب الصلح أوضح المسلمون لغير المسلمين – أهل الذمة – موجبات عقد الذمة التي يجب على أهل الذمة الإلتزام بها و لا يمنح لهم عقد الأمان و حق الاستيطان إلاً للحفاظ عليها و هي :-

أولاً : أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه أو تحريف له .

ثانيًا : أن لا يذكروا رسول الله صلى الله عليه و سلم بتكذيب و لا ازدراء .

ثالثًا : أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له و لا قدح فيه .

رابعًا : أن لا يصيبوا مسلمة بزنا و لا باسم نكاح .

خامسا : أن لا يفتنوا مسلما عن دينه و لا يتعرضوا لماله و لا لدينه .

سادسًا : أن لا يعينوا أهل الحرب – أعداء الإسلام – و يودوا أغنياءهم [3].

و حددت كتب الصلح أيضًا نواقص عهد الذمة التي توقع هؤلاء الذميين تحت طائلة العقاب الإسلامي مثل :

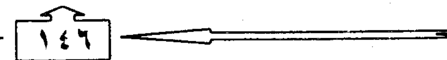
أولاً : الإعانة على قتال المسلمين ، و قتل المسلم أو المسلمة .

ثانيًا : قطع الطريق على المسلمين .

١- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين و المستأمنين في دار الإسلام ، مكتبة القدس ، ص ٢٢.

٢- د./ على حسنى الخربوطلى ، الإسلام و أهل الذمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٦٩ ص ٦٦.

٣- د./ محمد عبد العزيز داود ، القضايا الاجتماعية في ضوء النظم الإسلامية ، مطبعة الطاووس الذهبي ببلبيس و ص ٦١.



ثالثًا : إيواء جواسيس المشركين أو التجسس للمشركين بأن يكتب لهم أسرار للمسلمين .

رابعًا : الزنا بالمسلمة أو إصابتها باسم النكاح .

خامسًا : فتن المسلم عن دينه .

سادسًا : سب الله أو النبي صلى الله عليه وسلم [1].

والأدلة على انتقاض عهد الذمة من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [4] .

ومن السنة الشريفة ما رواه الشعبي عن على رضي الله عنه أن يهودية كانت تشتم الرسول صلى الله عليه وسلم وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم دمها " [5].

وفي عهد عمر رضي الله عنه جاءه رجل من أهل الكتاب حين دخل الشام وهو مشجوج مضروبا فغضب لذلك عمر وأمر بإحضار عوف بن مالك الأشجعي لأنه هو الذي فعل ذلك بالذمي فلما سأله عمر عن فعله هذا قال يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع ، فلم تصرع فدفعها فصرعت فغشيها - أكب عليها فقال عمر ائتني بالمرأة فلتصدق على ما قلت فأتاها عوف فذهب معه أبوها وزوجها

١- د./ محمد بن سعيد القحطاني ، الولاء و البراء في الإسلام ، الرياض ١٤٠٤ هـ ، ص ٣٣٩.
٢- سورة التوبة ، آية ١٢.
٣- سورة التوبة ، آية ٢٩.
٤- سورة الأحزاب ، آية ٥٧.
٥- رواه أبو داود في كتاب الحدود باب الحكم في سب النبي صلى الله عليه وسلم ، ١٢٧/٤ رقم ٤٣٦٢ وقصته رقم ٤٣٦١.

فأخبر عمر بمثل قول عوف فأمر عمر باليهودي فصلب و قال : ما على هذا صالحناكم ثم قال : يا أيها الناس أتقوا الله في ذمة محمد صلى الله عليه و سلم فمن فعل منهم مثل هذا فلا ذمة له .[1] و أما الاعتبار فمن وجوه[2]:

أحدهما: إن عيب ديننا و شتم نبينا مجاهدة لنا و محاربة فكان نقضنا للعهد كالمجاهدة و المحاربة بطريق الأولى .

ثانيها : إن مطلق العهد الذي بيننا و بينهم يقتضى أن يكفوا و يمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا و شتم رسولنا كما يقتضى الإمساك عن دمائنا ومحاربتنا .

ثالثها : إن الله فرض علينا تعزيز رسوله و توقيره ، و تعزيز نصره و منعه وتوقيره وإجلاله و تعظيمه و ذلك يوجب صون عرضه بكل طريق فلا يجوز أن نصالح أهل الذمة و هم يسمعوننا شتم نبينا و إظهار ذلك لأننا إذا تركناهم على هذا تركنا الواجب علينا نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان الإسلام لا ينهى عن البر و الإقساط إلى مخالفيه من أي دين و لو كانوا مشركين وثنيين كمشركي العرب الذين نزلت في شأنهم كثير من الآيات ، فإن الإسلام ينظر نظرة خاصة لأهل الكتاب من اليهود و النصارى سواء أكانوا في دار الإسلام أو خارجها ، فالقرآن لا يناديهم إلا بـ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ... ﴾[3] . و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ... ﴾[4]، و يشير بهذا إلى أنهم في الأصل أهل دين سماوي فبينهم و بين المسلمين رحم وقربى تتمثل في أصول الدين الواحد الذي بعث به الله أنبياءه جميعا ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ

١- القحطاني ، الولاء و البراء في الإسلام ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢.
٢- نفس المرجع ، ص ٣٤٣.
٣- سورة آل عمران ، آية ٧٠.
٤- سورة النساء ، آية ٤٧.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(1) والمسلمون مطالبون بالإيمان بكتب الله قاطبة ورسل الله جميعا و لا يتحقق إيمانهم إلاّ بهذا : ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (2). وأهل الكتاب إذا قرءوا القرآن يجدون الثناء على كتبهم و رسلهم و أنبيائهم (3). وإذا جادل المسلمون أهل الكتاب فليتجنبوا المراء الذي يوغر الصدور و يثير العداوات﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾ (4). و قد أباح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب و تناول ذبائحهم كما أباح مصاهرتهم و التزوج من نسائهم مع ما في الزواج من سكن و مودة و رحمة و في هذا قال تعالى: ﴿... وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ...﴾ (5) . هذا في أهل الكتاب عامة . أما النصارى منهم خاصة فقد وضعهم القرآن موضعا قريبا من قلوب المسلمين فقال :﴿... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ...﴾ (6).

ويتضح من هذا إن أهل الذمة هم من كان لهم عهد الله وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أجمع المسلمون بأن لهم ما للمسلمين و عليهم ما عليهم ، إلا ما هو من شئون الدين و العقيدة ، فإن الإسلام يتركهم و ما يدينون (7)، وقد أوصى بهم النبي صلى الله عليه عليه وسلم في حديثه :" من آذى ذميا ، فقد آذاني ، و من آذاني فقد آذى الله " (8)وفي حديث آخر: " من آذى ذميا فأنا خصمه ، و من كنت خصمه خصمته يوم القيامة " (9)

١- سورة الشورى ، آية ١٣.
٢- سورة البقرة ، آية ١٣٦.
٣- د./ يوسف القرضاوى ، الحلال و الحرام في الإسلام ، القاهرة ، ص ٢٧٩.
٤- سورة العنكبوت ، آية ٤٦.
٥- سورة المائدة ، آية ٥.
٦- سورة المائدة ، آية ٨٢.
٧- د./ القرضاوى ، الحلال و الحرام في الإسلام ، ص ٢٨٠.
٨- ذكره الأمام إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغنى العجلونى في كشف الخفاء و مزيل الألباس جـ٢ ، ص ٢٨٥ . و قال أخرجه الخطيب عن ابن مسعود.
٩- نفسه.

كما قال كذلك : " من ظلم معاهدًا أو انتقص حقا ، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة " (١).

وقد جرى الخلفاء و الفقهاء على هذا النهج انطلاقا من وصية الرسول صلى الله عليه و سلم بهم و قال ابن حزم الفقيه الظاهري : " إن من كان في الذمة و جاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع و السلاح و نموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى ، و ذمة رسوله ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة " (٢) و عاش أهل الذمة في كنف الدولة الإسلامية يتمتعون بكل ما كفلته لهم الدولة والإسلام من حرية و شملتهم بالسماحة الكافية ، فعاشوا حياة آمنة مطمئنة وفق القاعدة التي قررها الفقهاء " أن لهم ما لنا و عليهم ما علينا " و تجرى عليهم أحكام الإسلام في أمرين :-

الأول : المعاملات المالية فلا يجوز لهم أن يتصرفوا تصرفا لا يتفق مع تعاليم الإسلام كعقد الربا و غيره من العقود المحرمة .

الثاني : أن تطبق عليهم القوانين الإسلامية كحد القصاص والسرقة والزنا صيانة لسلامة المجتمع وأمنه .

أما ما يتصل بالشعائر الدينية من عقائد و عبادات ، و ما يتصل بالأسرة من زواج و طلاق فلهم الحرية المطلقة وفقا للقاعدة الفقهية " اتركوهم وما يدينون " . (٣)

ولقد حذا الخلفاء الراشدون و الحكام المسلمون حذو رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملتهم ، و أكبر دليل على ذلك موقف سيدنا أبو بكر من أهل نجران ، و موقف سيدنا عمر بن الخطاب وأمانه لأهل بيت المقدس وإيليا ، وموقف سيدنا على بن أبي

١- أخرجه أبو داود في كتاب الخراج باب تعشير أهل الذمة ١٧٨/٣ رقم ٣٠٥٢ عن عدة من أصحاب الرسول صلى الله عليه و سلم.
٢- د./ يوسف القرضاوي ، المرجع السابق ، ص ٢٨١.
٣- د./ محمد عبد العزيز داود ، القضايا الاجتماعية في ضوء النظم الإسلامية ، ص ٧٥.

طالب الذي وجد درعه عند رجل من أهل الكتاب فأقبل به إلى شريح القاضي يخاصمه رجل من عامة رعاياه و قال أنها درعي و لم أبعه و لم أهبه ، فسأل شريح الرجل : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال : ما الدرع إلاّ درعي و ما أمير المؤمنين عندي بكاذب فالتفت شريح إلى علي و سأله البينة : يا أمير المؤمنين هل من بينه ؟ فضحك علي و قال أصاب شريح مالي بينه ، فقضى بالدرع للرجل فأخذها و مشى ، و أمير المؤمنين ينظر إليه إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء .... أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه : أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدًا رسول عبده و رسوله : الدرع و الله درعك يا أمير المؤمنين : اتبعت الجيش و أنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأوراق ، فقال علي أما إذا أسلمت فهي لك . كما وصل النصارى و اليهود في ظل حكام و خلفاء الدولة الإسلامية من الأمويين و العباسيين وخاصة الفاطميين إلى المناصب العليا في الدولة حتى درجة الوزير و كانوا أكثر تمتعا وحياة من المسلمين أنفسهم [1] و ها هي الحقوق التي كفلها الإسلام لأهل الكتاب الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية ، و قد ارتكزت هذه الحقوق على الأسس الفكرية لتسامح المسلمين وهذا التسامح الذي ينطلق من التعاليم التي غرسها الإسلام في قلوب و عقول المسلمين وتتمثل في :

١ - اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان ، أيا كان دينه ، أو جنسه ، أو لونه ، فيقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2] و هذه الكرامة المقرر توجب

١- للتفصيلات عن هذا الموضوع أنظر : سماحة الإسلام و حقوق غير المسلمين من سلسلة هذا هو الإسلام قضايا ومفاهيم ، الأوقاف ، ١٩٩١ ، عفيف طبارة ، روح الدين الإسلامي، بيروت ، ص ٢٨٠ – ٢٨٢ الشيخ محمود شلتوت الإسلام عقيدة و شريعة ، ط٣ ، دار الشروق ، ص ٩ ، أحمد عبد الرحيم السايح يسر الإسلام و سماحته ، الأزهر ، جـ٢ ، ١٩٩٩ ، ص ١٨٩٠ ، محمد عبد الله الخطيب ، نحو جيل مسلم ، المركز الإسلامي ، ص ١٠٩ – ١٣٥ ، محمد الغزالي ، التعصب و التسامح بين المسيحية والإسلام ، دار الكتب الحديثة ، ص ٤٤ – ٥٦.

٢- سورة الإسراء ، آية ٧٠.

لكل إنسان حق الاحترام و الرعاية و هذا ما طبقه النبي صلى الله عليه و سلم عمليا في قيامه عند مرور جنازة يهودي و لما سئل قال : أليست نفسا ؟! [١]

٢ – اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى قال سبحانه : ﴿... فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٣].

٣ – ليس المسلم مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم فهذا الأمر متروك لله سبحانه و تعالى يحاسبهم يوم الدين [٤]، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٥] وقال تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [٦].

٤ – إيمان المسلم بأن الله يحب العدل و يكره الظلم و لو كان مع المشركين [٧]، قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [٨]

[٨] و قال صلى الله عليه و سلم " دعوة المظلوم و إن كان كافرًا ليس دونها حجاب[٩].

١- د./ يوسف القرضاوي ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، مكتبة وهبه ، ص ٥١.
٢- سورة الكهف ، آية ٢٩.
٣- سورة يونس ، آية ٩٩.
٤- د./ يوسف القرضاوي ، المرجع السابق ، ص ٥٢.
٥- سورة الحج ،آية ٦٨.
٦- سورة الشورى ، آية ١٥.
٧- د./ يوسف القرضاوي ، المرجع السابق ، ص ٥٢.
٨- سورة المائدة ، آية ٨.
٩- أخرجه الإمام أحمد في المسند رقم٨٧٨١، وأخرجه الإمام أبو داود ، جـ٤ ، ص٩٢ ، رقم٢٤٥٠، وذكره الحافظ بن حجر في فتح الباري ، جـ ٣ ، ص ٣٦٠ و قال رواه أحمد و إسناده حسن.

المبحث الثانى

حقوق أهل الذمة :

أولاً : حرية العقيدة و التدين :-

لقد دعا الإسلام إلى حرية العقيدة و عدم إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامي فيقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (١) ولم يقف الإسلام عند حد ترك حرية العقيدة لغير المسلمين ، بل وصلت سماحة الإسلام و المسلمين إلى التعهد بحماية أهل الذمة و عدم الاعتداء عليهم ببناء أماكن لعبادتهم وإقامة شعائرهم الدينية بحرية كاملة داخل معابدهم و كنائسهم (٢).

و يشهد بعض المستشرقين على هذه السماحة الإسلامية في ترك حرية العقيدة لأهل الأديان الأخرى الذين يعيشون في دار الإسلام من غير المسلمين ، منهم جوستاف لوبون فيقول : " رأينا من آيات القرآن أن مسامحة محمد لليهود و النصارى كانت عظيمة للغاية وأنه لم يفعل مثيلها مؤسسوا الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص " .

و يقول مستشرق آخر : " إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى " . (٣)

ثانيا: الحرية الشخصية :-

لقد كفل الإسلام الحرية الشخصية لأهل الذمة في دار الإسلام من حيث الإقامة والروح والمجيء و السفر في تجارة أو غيرها خارج البلاد أو داخلها فهم من أهل البلاد ولهم حقوقهم مثل حقوق المسلمين ، كما منع الإسلام الاعتداء عليهم بالضرب أو القبض عليهم

١- سورة البقرة ، آية ٢٥٧.
٢- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين و المستأمنين في دار الإسلام ، ص ٩٦.
٣- د./ القرضاوي ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ،ص ١٨.

أو سجنهم ظلما و بدون وجه حق ، و لكنهم مُنعوا فقط من دخول مكة و المدينة ، وروى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : " من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه[1]، وقد نهج المسلمون بعد الرسول صلى الله عليه و سلم هذا النهج ، " فقد أوصى عمر بن الخطاب بأهل الذمة خيرًا : أن يوفي بعهدهم و أن يقاتل من ورائهم و ألا يكلفهم فوق طاقتهم " و يقول علي بن أبي طالب " إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا وماؤهم كدمائنا " [2].

ثالثا : حق الحياة :-

من أهم الحقوق التي أوصى بها الإسلام لأهل الذمة من اليهود و النصارى الذين يقيمون في دار الإسلام " حق الحياة " فلهم عهد مع المسلمين و لذا لهم ما للمسلمين و عليهم ما علينا و عندئذ يجب على المسلمين تحقيق هذا الحق لأهل الكتاب الذين أوصى النبي صلى الله عليه و سلم بهم خيرًا ، وحذر من إيذائهم و الاعتداء عليهم ، فيقول صلى الله عليه و سلم "من أذى ذميا فأنا خصمه و من كنت خصمه خصمته يوم القيامة " [3]و في حديث آخر يقول صلى الله عليه و سلم : " من قتل معاهدًا – من له عهد مع المسلمين – لم يرح رائحة الجنة و إن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما " ، و في رواية : من مسيرة سبعين عاما ، و في رواية ثالثة من مسيرة تسعين عامًا " [4].

وقد اقتفي الخلفاء الراشدون آثار الرسول صلى الله عليه و سلم في معاملة أهل الذمة و حمايتهم و حفظ حياتهم ، فيرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص يوصيه قائلاً : " إن معك أهل الذمة و العهد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصمك " و ذلك لأن عقد الذمة يوجب لهم هذا الحق ، و يوجب علينا نحن

١- الإمام أبو داود ، كتاب الإمارة و الفئ ، جـ٣ ، ص ١٧١.
٢- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين و المستأمنين في دار الإسلام ، ص ٨٨ ، ٨٩.
٣- الإمام السيوطي في الجامع الصغير ، جـ٢ ، ص ١٥٨.
٤- الإمام البخاري ، كتاب فرض الخمس ، باب اثم من قتل معاهدا بغير جرم ، جـ٢ ، ص ٢٥٨.

المسلمين حمايتهم و الدفاع عنهم ضد أي معتد خارجي فهم في ذمتنا و حمايتنا حتى لا نضيع ذمة الله و ذمة رسوله صلى الله عليه و سلم و ذمة الإسلام .

رابعا : حق البر و العدل :-

لقد أوجبت الشريعة الإسلامية البر و العدل بين الناس و خاصة بين المسلمين و أهل الذمة من اليهود و النصارى الذين يقيمون في ظل الدولة الإسلامية و الذين لهم عهد ذمة وأمان مع المسلمين ، فيقول الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (١) وهنا لم يحدد الله سبحانه و تعالى فئة خاصة من الناس ولكن جميعا مسلمين و غير مسلمين وقد خص الله تعالى أهل الكتاب في تحقيق البر والعدل معهم في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(٢) وقصة درع سيدنا على بن أبى طالب مع اليهودي خير دليل على ذلك .

خامسا: حق العمل :-

لقد سمح الإسلام لأهل الذمة بحرية العمل في دار الإسلام لحسابهم أو لحساب غيرهم و لم يمنعهم الإسلام إلا من تجارة الخمور و الخنازير و التعامل بالربا وذلك درءًا للفساد و الفتنة في الأمصار الإسلامية ، قال آدم ميتز : " لم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال و كانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة فكانوا صيارفة و تجار و أصحاب صناعة و أطيان " ، وكما يقول الماوردى في الأحكام السلطانية : " يجوز تقليد الذمي وزارة التنفيذ و هو الذي يبلغ أوامر الإمام و لا يجوز أن يتولى وزارة التفويض التي يُوكل فيها الإمام إلى وزير تدبير الأمور السياسية و الإدارية و الاقتصادية بما يراه " (٣).

١- سورة النساء ، آية ٥٨.
٢- سورة الممتحنة ، آية ٨.
٣- د./ القرضاوي ، المرجع السابق ، ص ٢٢.

كم يسمح لهم بالعمل في شعب الجندية التي يتعلق بالحرب و القتال بصورة مباشرة [1]. و هكذا كان لأهل الذمة تولي الوظائف في الدولة بشرط الأمانة و الإخلاص وعدم الإضرار بمصالح و أمن الأمة الإسلامية ، فقد تولوا وظائف الوزارة زمن العباسيين و من قبل ذلك زمن معاوية ، و كذلك زمن الفاطميين تولوا الوزارة [2].

سادسا : حق التملك :-

لقد منح الإسلام لأهل الذمة في دار الإسلام حق الملكية للعقارات و الأموال والأطيان الزراعية و حمايتها و المحافظة عليها ، و يتضح هذا منذ بداية الفتوحات الإسلامية ، ففي زمن عمر رضي الله عنه فتح المسلمون أراضي كثيرة و كان لابد من تحديد وضع هذه الأراضي من ناحية بقائها في يد أصحابها أم توزيعها على الفاتحين ؟ و في نهاية الأمر تم الاتفاق على أن تبقى هذه الأراضي في يد أصحابها لأنهم أدرى بزراعتها وحتى يتفرغ الفاتحون للحرب و الفتوحات ، و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى إحاطة هذه الأملاك بسياج من الحماية و الأمن ، و أقر المسلمون بإجازة الدفاع عن هذه الأملاك ضد الاعتداء عليهم بكافة وسائل الدفاع ، و هذه الملكية كما واضح ترتبط ارتباطا وثيقا بالعمل في الوظائف أو التجارة أو غير ذلك من الأعمال الحرة التي تحقق الكسب والربح و حيازة الأملاك .

سابعا: حق حرمة العرض :-

لقد أوصى الإسلام بصيانة الأعراض سواء كانت تلك الأغراض للمسلمين أو غير المسلمين و أحاطها بسياج متين ، و قد أعلنها الرسول صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع : " إن دمائكم و أموالكم و أعراضكم حرام عليكم ....."و قال صلى الله عليه و سلم : "أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما في القرآن إلا إني و الله لقد وعظت و أمرت و نهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن و أكثر و إن الله لم

١- الإمام الشيخ / أبو على المودودي ، حقوق أهل الذمة ، ص ١٥.
٢- وزارة الأوقاف ، سماحة الإسلام و حقوق غير المسلمين ، ص ١٠٣.

يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن و لا ضرب نسائهم و لا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم "[1].

ولا ريب أن هذا الحق يصحح مفهوما خاطئا لدى بعض الناس الذين لوا أعناق النصوص من الأحاديث النبوية و فسروها حسب أهوائهم، و لو عادوا إلى الفهم الصحيح لنصوص هذه الأحاديث لفهموا مراد الرسول صلى الله عليه و سلم منها.

ثامنا : حق الجوار :-

لقد حث الدين الإسلامي على الإحسان في معاملة الجار سواء كان مسلما أو غير مسلم فيقول الله تعالى ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2] الجار ذي القربى هو الجار المسلم والجار الجنب هو اليهودي و النصراني، و في الآثار الإسلامية أن مجاهدًا قال كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما و غلام له يسلخ شاه فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مرارا فقال له لم تقول هذا فقال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه "[3]. و حقوق الجيران ثلاثة: جار له حق واحد و هو الجار المشرك وجار له حقان و هو الجار المسلم و هما حق الجوار وحق الإسلام، و جار له ثلاثة حقوق وهو الجار القريب المسلم الجوار و الإسلام و الرحم.[4]

تاسعا : حق حرية الرأي و الاجتماع و التعليم الديني :-

لقد كفل الإسلام للذميين حقهم في إبداء آرائهم فيما يخص شئونهم و فيما لا علاقة له بالأمور الإسلامية فلا يجوز لهم الطعن في الأمور العقائدية الإسلامية بحجة

١- الإمام أبو داود، كتاب الخراج و الفيئ، جـ٣، ص ٥٣.
٢- سورة النساء، ص ٣٦.
٣- صحيح البخار، كتاب الأدب، باب الوصايا بالجار، ص ٣.
٤- الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، م ٢، ص ٤ ٢.

حرية الرأي و لهم حرية الاجتماع في حدود القانون الإسلامي إذ ليس هناك ما يمنع تمتعهم بهذه الحرية ، و كذلك التمتع بحرية التعليم فلهم تعليم أولادهم فيما يخص ديانتهم في مدارسهم الخاصة ، إلاَّ أنهم منعوا من تحريض المسلمين على الردة [1].

عاشرا : حق التعليم و التعلم :-

و لقد حث الإسلام على الاهتمام بالتعليم و جعله أساسا قويا من الأسس التي بني عليها الإسلام ، بل منحه و أحاط العلماء من غير المسلمين بالرعاية و العناية و لنشروا علمهم النافع بين المسلمين ، و لو رجعنا إلى كتب السيرة لوجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل فداء الأسير من المشركين في غزوة بدر تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة. [2]

و قد نهج الخلفاء و الحكام المسلمون نهج رسول الله صلى الله عليه و سلم في الاهتمام بالعلم و العلماء مهما اختلفت مللهم أو جنسياتهم في كافة نواحي العلوم والمعارف ، و الأمثلة كثيرة على ذلك للعلماء الذين ذكرهم التاريخ أمثال : جيور بن بختيشوع، و تيوفيل بن توما النصراني ، و يوحنا البطريق ، و حنين بن اسحق النصراني وتوبخت المنجم و ولده أبو سهل ، و بختيشوع الطبيب و ولده جبريل ، و يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ، و سهل بن سابور و ابنه سابور، و متى بن يونس المنطقي النصراني و هذا يوضح لنا أن الدين الإسلامي الحنيف لم يفرق بين رعاياه إلا بميزان العلم والحكمة. [3]

١- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين ، ص ١٠١.

٢- محمد بن عبد الرحمن المباركفورى ، الرحيق المختوم ، دار البشير ، ١٩٨٦ ، ص ٢٥٦.

٣- سماحة الإسلام ، سلسلة ثقافية إسلامية تصدرها وزارة الأوقاف ، ص ٩٦ ، الأوقاف ، من حقوق غير المسلمين ، ص ٥٦.

المبحث الثالث

واجبات أهل الذمة :-

أما الواجبات التي فرضها الإسلام على أهل الذمة فقد كانت واجبات يسيرة وسهلة ولا إرهاق فيها و لا تزيد شيئا عما فرضه على المسلمين وتتمثل في :-

أولا : الجزية :

و الجزية هي خراج الأرض و ما يؤخذ من الذمي و الجمع جزي و جزاء وهى عبارة عن المال الذي يعقد للكتابي عليه الذمة .

و قد عرفها ابن عرفه المالكي بقوله : " الجزية ما لزم الكافر لأمنه و استقراره و تحت حكم الإسلام و صونه " ، و هي بهذا ضريبة الحماية على الرءوس و الدفاع عنها يتم دفعها في ميعاد محدد و بشروط محددة و مقدار محدد . (1)و هي ضريبة سنوية تتمثل في مقدار زهيد من المال يفرض على الرجال البالغين القادرين على حسب ثرواتهم ، أما الفقراء فمعفون منها إعفاءً تامًا .

و ليس للجزية حد معين إنما ترجع إلى تقدير الإمام الذي عليه أن يرعى طاقات الدافعين و لا يرهقهم ، كما عليه أن يراعى المصلحة العامة للأمة . (2) و يقول الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (3).

و قدرت الجزية بمبلغ ٤٨ درهما على الموسر ، و على الوسط ٢٤ درهما و على المحتاج الحارث العامل بيده ١٢ درهما ، يؤخذ ذلك منهم في كل سنة ، و إن ج[illegible]وا بعير قُبِلَ منهم ، مثل الدواب و المتاع و غير ذلك ، و يؤخذ منهم بالقيمة ، و لا يؤخذ منهم في الجزية ميتة و لا خنزير و لا خمر . و أعفي من الجزية الشيوخ و الأطفال و النساء و العجزة

١- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام المستأمنين ، ص ١٣٧ ، ١٣٨

٢- د./ القرضاوي ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ص ٣.

٣- سورة البقرة ، آية ٢٨٦.

من الرجال ، فكان الرجل إنما يؤدي الجزية عن نفسه و سائر أفراد أسرته التي يعولها . كما كان يسمح بقيمة الجزية عينا ، فكان بعض أهل الذمة يؤدون جزءا من إنتاجهم الزراعي والحيواني .[1]

وأعفي المسلمون من الجزية كل من عجز عن تأديتها ، بل كانت الدولة تعول كل ذمي عجز عن كسب رزقه بكده فقال أبو عبيد في كتابه " الأموال " : " ولو عجز أحدهم لحظة عن دينار لحطه من ذلك ، حتى لقد روى عنه أنه – أي عمر بن الخطاب – أجرى على شيخ منهم بيت المال . وذلك أنه مر به شيخ و هو يسأل على الأبواب "[2] .

و كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية . و تدفع نقدا أو عينا وقد أمر عمر بن الخطاب بالتخفيف عن أهل الذمة و قال : " من لم يطق الجزية خففوا عنه ، و من عجز فأعينوه ، فإنا لا نريده لعام أو لعامين " ، كما كانوا يخففون عنهم بتأخيرها حتى ينضج المحصول : " و إنما وجه التأخير إلى الغلة للرفق بهم " .[3] و الأصل في مشروعية الجزية قول الله تعالى :﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [4]. وروى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف : "أن النبي صلى الله عليه و سلم أخذ الجزية من مجوس هجر " [5]، و روى : " أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس البحرين وأخذها من عمر رضي الله عنه من فارس وأخذها من الفرس و البربر "[6]، كما أخذها عمرو بن العاص أثناء إمارته على أهل مصر من أقباطا دينارين على كل من تجب عليه الجزية فوافقه عمر بن الخطاب على ذلك ، و هكذا أثبتت

١- د./ الخربوطلي ، الإسلام و أهل الذمة ، ص ٧٠.
٢- د./ الخربوطلي ، الإسلام و أهل الذمة ، ص ٧٠.
٣- نفس المرجع ، ص ٧٠ ، ٧١.
٤- سورة التوبة ، آية ٢٩.
٥- د./ عب الكريم زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٣٨.
٦- نفس المرجع و الصفحة.

شرعية الجزية من خلال الكتاب و السنة الشريفة و أصبحت أمرًا مشروعًا ومشهورا انعقد عليه إجماع فقهاء الأمة . [1]

وعن حكمة مشروعية الجزية يقول الشيخ سيد سابق : " وقد فرض الإسلام الجزية على الذميين مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتساوى الفريقان، لأن المسلمين والذميين يستظلون براية واحدة و يتمتعون بجميع الحقوق و ينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة و لذلك أوجب الله الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها، و لذا تجب حمايتهم و المحافظة عليهم ودفع من قصدهم بأذى " . [2]

و تجب الجزية على فئات من أهل الذمة دون أخرى فتجب على :

أولا : تجب الجزية على الذمي العاقل البالغ الذكر، و على هذا فلا تجب على الصبي و المرأة و المجنون . و يروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى قادة الجيوش ألا يضربوا الجزية على النساء و لا الصبيان و لا يضربوها إلا على من جرى عليه الموسم .

ثانيا :تجب على الذمي السليم من الأمراض المزمنة و العمى و الشيخوخة .

ثالثا : تجب الجزية على الذمي الحر، لأن العبد لا يملك مالا ليدفع الجزية .

رابعا : لا تجب الجزية على الرهبان الذين قصروا حياتهم على البقاء في الأديرة للعبادة فقط و هكذا تسقط عنهم الجزية طالما كانوا بعيداً عن الاختلاط بالناس، أما إذا خرجوا من الأديرة و اختلطوا بالناس فرضت عليهم الجزية. [3]

١- نفس المرجع و الصفحة.

٢- الشيخ / السيد سابق ، فقه السنة ، جزء ٣ ، ص ٦٧.

٣- الإمام محمد بن عبد الله بن الحسين بن صلاح الشوكاني ، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار ، جـ٩ ، تحقيق د./ طه عبد الرؤف سعد ، د./ مصطفي محمد الهوا ري ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.



و تسقط الجزية في حالات عديدة حددها الإسلام الحنيف : بالإسلام أو الموت فتسقط الجزية عن الذمي إذا أسلم فقد أصبح مسلما " و الإسلام يجب ما قبله " أو إذا مات لأنها فرض على الرأس " فعن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تصلح قبلتان في أرض ، و ليس على مسلم جزية " ، و قد احتج به على سقوط الجزية بالإسلام و على المنع من إحداث بيعة أو كنيسة " (١).

و تسقط الجزية كذلك بمضي المدة المفروضة دون أن يستوفيها الذمي المفروض عليه الجزية ، أو حصول بعض الأعذار للذمي و يكون غير قادرًا على أدائها و لا يطالب بهذا بعد ذلك حتى و لو اغتنى و أصبح ثريا ، أو في حالة عجز الدولة الإسلامية عن حماية أهل الذمة و الدفاع عنهم كما جاء في صلح خالد بن الوليد مع أهل الحيرة : " إني عاهدت على الجزية و المنعة ...... فإن منعناكم فلنا الجزية ، و إلا فلا حتى نمنعكم " ، أو أن يقوم الذميون بالاشتراك في القتال للدفاع عن دار الإسلام . ففي كتاب عتبة بن فرقد إلى أهالي أذربيجان : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها و جبلها و حواشيها و أهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم و أموالهم و شرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم .... و من عسر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة " (٢).

و يشهد على ذلك أحد المؤرخين الغربيين و هو أدم ميتز حيث يقول : " كان أهل الذمة بحكم ما يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ، و من حمايتهم لهم يدفعون الجزية كل منهم بحسب قدرته و كانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح فلا يدفعها ذووا العاهات ، و لا المترهبون و أهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار " . (٣)

١- نفس المصدر ، جـ ٩ ، ص ٢٣٧.
٢- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين ، ص ١٤٩ ــ ١٥٥.
٣- د./ القرضاوي، غير المسلمين ، ص ٣٤.

ثانيا :الخراج :

و الخراج ضريبة مالية تفرض على رقبة الأرض إذا بقيت في يد أصحابها الذميين و يرجع تقديره إلى الإمام فله أن يقاسمهم بنسبة معينة مما يخرج من الأرض كالثلث و الربع مثلا ، و له أن يفرض عليهم مقدارًا محددًا مكيلا أو موزونا بحسب ما تطيقه الأرض كما صنع عمر مع سواد العراق و قد يقوم ذلك بالنقود . (١)

و في اصطلاح الفقهاء : " الخراج ما وضع على رقاب الأرضيين من حقوق تؤدي عنها " فالخراج بهذا يعتبر ضريبة مالية على الأراضي ، و هذه الأراضي تسمى " الأراضي الخراجية " ، و قد ورد استعمال كلمة الخراج بمعنى الجزية على ألسنة الفقهاء ، فمن ذلك ما قاله أبو حنيفة : " و لا يترك ذمي في دار الإسلام بغير خراج رأسه " ، و عن الشعبي قال : " أول من فرض الخراج رسول الله صلى الله عليه و سلم فرض على أهل هجر على كل محتلم ذكر أو أنثى " إلا أن المعنى الشائع في استعمال كلمة الخراج عند الفقهاء هو ما يفرض على الأرض من ضريبة مالية فإذا أطلقت كلمة الخراج فإنما يراد بها ضريبة الأرض و لا يطلق اسم الخراج على الجزية إلاَّ مقيدًا بخراج الرأس ، و الخراج في الأصل تكليف مالي على الذمي في أرضه إذ هكذا فعل سيدنا عمر بن الخطاب عند فتحه العراق فقد ترك الأرض بأيدي أهلها و ضرب على رءوسهم الجزية و على أراضيهم الخراج بعد مشاورة الصحابة و موافقتهم " . (٢)

و يؤخذ خراج الأرض مرة واحدة في السنة لأن ريع الأرض لا يكون إلاَّ مرة واحدة في السنة في الغالب ، و لا يسقط الخراج بإسلام الذمي لأن الخراج فرض على الأرض النامية و الأرض باقية كما هي ، و ليس على الرأس كما هو الحال في الجزية ، و قد روى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : " إني أسلمت فضع عن أرضى الخراج ، فلم يقبل عمر بن

١- القرضاوى ، غير المسلمين ، ص ٣١.
٢- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين ، ص ١٥٨ ، ١٥٩.

الخطاب و قال له : إن أرضك أخذت عنوة ، و عن على بن أبى طالب مثل ذلك ، فقد روى عنه أنه لم يسقط الخراج عن أرض أسلم صاحبها " .[1]

ثالثا العشور :-

فرضت العشور على أهل الذمة من اليهود و النصارى طبقا لقول الرسول صلى الله عليه و سلم ، فعن رجل من بني تغلب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " ليس على المسلمين عشور ، إنما العشور على اليهود و النصارى "[2] و العشور بمثابة ضريبة تفرض على الأموال المعدة للتجارة ، حيث ينتقل التجار الذميون بتجارتهم من بلد إلى آخر داخل دار الإسلام و مقدارها نصف العشر ، و هذه الضريبة تفرض على جميع التجار من المسلمين و الذميين و المستأمنين داخل دار الإسلام ، و تقل أو تكثر حسب الديانة أو عهد الأمان ، و وعاء هذه الضريبة جميع عروض التجارة من ثياب و حيوان و حبوب ، و الذهب و الفضة نقودًا أو معادن و يقوم باستيفاء هذه الضريبة عمال الدولة المختصون بذلك الذين يقيمون على الحدود و في ثغور الدولة الإسلامية و على طرق المواصلات .[3]

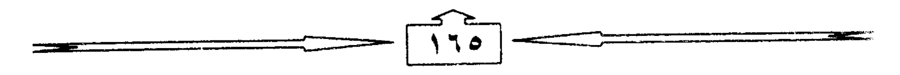
فعن مالك بن أنس : سألت ابن شهاب الزهري : " لم أخذ عمر نصف العشر من أهل الذمة ؟ فقال : كان يؤخذ منهم في الجاهلية ، فأقرها عمر على ذلك ، و من علماء الحنفية من علل تضعيف ما يؤخذ من الذمي بأن الجباية بالحماية ، و حاجة التاجر الذمي إلى الحماية أكثر من المسلم لأن طمع اللصوص في أموال أهل الذمة أوفر ، و يذهب الأستاذ أبو الأعلى المودودى مذهبا آخر في التعليل ، فيرى أن معظم المسلمين في ذلك الزمان كانوا منتظمين بالدفاع عن الوطن الإسلامي فأصبحت التجارة كلها بأيدي الذميين فرأى

١- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين ، ص ١٦٨ ، ١٦٩
٢- الإمام الشوكاني ، نيل الأوطار ، جـ ٩ ، ص ٢٣٧
٣- د./ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين ، ص ١٧٦ ، ١٧٧

الفقهاء أن ينقصوا من الضريبة على التجار المسلمين حفظا لهم على التجارة و حفظا لمصالحهم التجارية [١].

وهذه الحقوق و الواجبات التي منحها الإسلام لأهل الذمة في دار الإسلام لدليل قاطع على التسامح و العدالة التي كفلها الإسلام لهم و تمتعوا في ظلها أكثر مما تمتع المسلمون ، ويشهد على هذا التسامح الذي كفله الخلفاء المسلمون للعلماء النصارى ورعايتهم لهم من ناحية ، وتشجيعهم للعلوم من ناحية ثانية أحد الكتاب المسيحيين وهو الكاتب المصري سلامة موسى [٢] .

١- د./ القرضاوى ، المرجع السابق ، ص ٣٦.
٢- حرية الفكر وإبطالها في التاريخ ، جـ ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ٥٩ ـ ٦٧ بتصرف.



المبحث الرابع

مقارنة بين تسامح المسلمين و تعصب الغرب :-

و إذا ما قارنا موقف المسلمين من أهل الذمة في البلاد المفتوحة ، و موقف الأسبان من المسلمين هناك إبان حب الاسترداد الأسبانية المسيحية و تعذيب المسلمين وطردهم نجد العكس تماما ، و قد أصاب " جوستاف لوبون " [1] في تعليقه على هذا الموقف المتعصب للأسبان فيقول : " حل بالعرب دور الاضطهاد و التعذيب الذي دام قرونا ، والذي لم ينته إلاّ بترد العرب من أسبانية ، و كان تعميد العرب كرها فاتحة ذلك الدور ، ثم صارت محاكمة التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى و لم تتم عملية التطهير بالنار ، إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كردينال طليطلة التقي ، الذي كان رئيسا لمحكمة التفتيش ، بقطع رءوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا و نساء و شيوخا و ولدانا و لم ير الراهب الدومينيكى ، بليدا الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب و من بقى على دينه منهم وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب ، فمن المستحب إذًا قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى و يدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم ، و لم تر الحكومة الأسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكى الذى أيده الأكليروس في رأيه لما قد يبديه الضحايا من مقاومة ، و إنما أمرت سنة ١٦١٠ م ، بإجلاء العرب عن أسبانيا ، فقتل أكثر مهاجر العرب في الطريق ، وأبدى ذلك الراهب البارع ، بليدا ، إرتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم و هو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠.٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقية ، وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر ، و يقدر كثير من العلماء ، و منهم سيديو ، عدد المسلمين الذين خسرتهم

١- حضارة العرب ، ص ٢٧٠ – ٢٧٢ .

أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير، بثلاثة ملايين. و تعد ملحمة ساربارتلي إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا ينوه له. و لا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين. و مما يرثى له أن حرقت أسبانيا عمدًا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم أمامه السكان الثقافية و الصناعية ......

و هبطت أسبانيا بذلك إلى أسفل درجات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد وإنهار معها كل ما كان فيها من الزراعة و الصناعة و التجارة و العلوم و الآداب و السكان". و هذا دليل قاطع و الفضل ما شهد به الأعداء أن الحضارة الإسلامية كان لها كبير الفضل والأثر في الرقي و التقدم و الازدهار الذي حل بالعالم آنذاك، و هذا يرجع إلى أن أسس هذه الحضارة إنما هي وحي من عند الله سبحانه و تعالى، و عادت أسبانيا مرة ثانية إلى الضلال و العذاب بعد أن كانت في النعيم المقيم زمن الحكم الإسلامي، و هنا يصدق قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1) و قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (2).

ورغم هذه السماحة و هذا العدل الذي اتبعه المسلمون حكاما و محكومين مع أصحاب الديانات الأخرى الذين يعيشون في دار الإسلام، و حتى الذين يفدون من أنحاء العالم إلى دار الإسلام بغرض الرحلة أو التجارة أو العلم، إلا أن الغرب الأوروبي الكاثوليكي قد أكمن حقدًا دفينا و بغضا عدائيا للإسلام و المسلمين. ظهر هذا العداء و البغض و هذه العداوة ضد الإسلام و المسلمين في الحروب الصليبية التي إندلعت في أواخر القرن الحادي عشر بتحريض من البابا " أوروبان الثاني " بابا روما ضد المسلمين في بلاد

١- سورة الأنفال، آية ٥٣.
٢- سورة الرعد، آية ١١.

الشام هذه الحرب الصليبية التي استمرت مدة قرنين من الزمان كحركة نشطة ، استقر فيها الصليبيون بمملكتهم يحاربون المسلمين بضراوة و عصبية صليبية ، و قد أصاب جوستاف لوبون [1] في تصويره لاندلاع هذه الحرب ضد المسلمين و استقرارهم في الأراضي المقدسة وانتهت بعد هذه الفترة الطويلة بفشل زريع فيقول : "و كل يعلم كيف أصاب العالم النصراني دعوة ذلك المجذوب ، و كيف انقضت أمم على الشرق ، و كيف أن سوق تلك الجيوش الهائلة لم يؤد إلى غير نصر وهمي ، و كيف فلتت عزيمة مجاهدي النصارى الذين لم ينقطع سيلهم مدة قرنين من أجل فتح القدس و المحافظة عليها أمام هلال الإسلام ... حيث كانت أوروبا في القرن الحادي عشر الذي جردت فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلاما و كانت دولة الروم في الشرق قائمة و كانت ميدانا للمنازعات الدينية و أنواع المشاحنات . و كانت سوريا قسم منها تابع للترك السلجوقيين ، و القسم الآخر تابع لسلاطين مصر ، و لم يكن الخليفة في بغداد غير شبح ، و كانت دولة العرب السياسية في دور الانحلال مع محافظة حضارتهم على سلطانها ... و كانت العلاقة بين أوروبا و الشرق مقصورة على زيارة حجيج النصارى لفلسطين في ذلك الدور.... و أن عدد حجيج النصارى كان يزيد كل يوم ، و كان ضجيجهم يزيد على ما كان عليه .... و كان التركمان الذين قاموا مقام العرب في سورية أقل تسامحا من العرب ، فجادل هؤلاء التركمان أولئك النصارى في حق المرور من وسط البلاد الإسلامية بلا إذن إيفاء ، لزيارة المقدس ، و أكرهوا حجيج النصارى على دخول القدس بخشوع بدلاً من أن يسمحوا لهم بدخولها ظافرين على صوت الصنوج و ضوء المشاعل كما كان العرب يسمحون به و أخذوا يحملونهم على دفع الفدى غير تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أتوها .... و حدث أن جاء لزيارة بيت المقدس جندي قديم كان قد ترهب بعد أن طرأ على حياته الروحية ما كدر صفوة وكان اسم هذا المجذوب المتعصب " بطرس الناسك " فأضاف التاريخ إلى أسمه " الناسك " و قام بطرس الناسك في أنحاء أوروبا حتى تم ما أراد و اتفق أصحاب الرأي في أوروبا على الزحف

١- حضارة العرب ، ص ٣١٩ ــ ٣٢٢.

إلى فلسطين [1]. و هكذا وقف جوستاف لوبون على الفكرة أو الأيديولوجية التي شكلت الحركة الصليبية في عقول و قلوب أبناء الغرب الأوروبي على مدى قرون طويلة حتى إذا ما جاء البابا " أوروبان الثاني " ليضرب على هذه الأوتار الحساسة و ما يجيش في صدر و عقل كل أوربي ، فانطلق كل الحاضرين في صوت واحد " الرب يريدها ".

فقد شاع في الغرب الأوربي في العصور الوسطى و في العصر الذي عرف " بعصر الإيمان " أي الإيمان العاطفي أو الشعبي ، ما يعرف بالأفكار الألفية و نهاية العالم بعد مرور ألف عام على معاناة السيد المسيح على الصليب ، و شاعت الأفكار و القصص والحكايات و الأساطير التي تتحدث عن قرب نهاية العالم ، و لذلك ربطوا كل حادثة طبيعية مثل الزلازل و البراكين و الفيضانات بأنها " نذير باقتراب القيامة " و انتشرت الرؤى و الخرافات و الغيبيات في كافة أنحاء الغرب الأوروبي .

و الحج المسيحي إلى الأماكن المقدسة قد انتشر في العصور الوسطى إما إلى بيت المقدس بصفة خاصة ، أو إلى أحد الأماكن المقدسة الأخرى في أنحاء العالم حيث توجد مقابر القديسين في إيطاليا أو أسبانيا ، و استمر حتى مجيء الإسلام توافد الحجاج المسيحيين من الغرب الأوروبي إلى فلسطين في بيت المقدس ، و لأن الحج في الإسلام فريضة فقد سمحوا لهؤلاء المسيحيين بالمرور في أمان و سلام كما هيئوا لهم أماكن الراحة عبر الأراضي الإسلامية و ازدادت أعداد الحجاج المسيحيين سنويا فرادى و جماعات إما للتوبة و التكفير عن الذنوب أو لزيارة الأماكن التي مر بها أو عاش فيها السيد المسيح عليه السلام و ارتبط بهذا الحج تجارة الذخائر المقدسة التي تتمثل في رفات القديسين التي حصل عليها هؤلاء الحجاج و باعوها في الغرب الأوروبي . و عندما حكم الأتراك السلاجقة في بلاد الشام و اشتد عبث و فساد هؤلاء الحجاج بالأراضي الإسلامية ، تعرض لهم حكام السلاجقة مما جعل هؤلاء الحجاج يحملون معهم الأسلحة و تحول مصطلح الحج إلى

١- د./ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجية – الدوافع – النتائج)عالم المعرفة ، العدد ١٤٩ ، ١٩٩٠ ، ص ١٦– ١٩.

" الحج المسلح " مما جعل فكرة الحرب المسلحة ضد المسلمين في فكرة هؤلاء المسيحيين واختلط الحج بالحرب (١).

و قد ارتبطت بالحج فكرة الغفران الذي بدأ غفرانا جزئيا ثم تطور حتى أصبح غفرانا كليا لكل الذنوب في فترة الحروب الصليبية و كان هذا دافعا قويا للمشاركة في هذه الحركة (٢)، و خاصة أن القديس " أوغسطين " قد عدل فكرة الحرب عند المسيحيين فالحرب في المسيحية غير شرعية لأن المسيح جاء ليدعوا إلى السلام و التسامح " إذا لطمك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، و إذا خطف عباءتك فأعطه رداءك " هكذا يدعوا الإنجيل في تعاليمه . و لكن أوغسطين برر هذه الحرب و جعلها حربا عادلة أو مقدسة إذا كانت لسبب عادل أو شرعي و كذلك تعلنها السلطة الشرعية الملكية و ليست السلطة الدينية ، و أن تكون لغرض عادل أو هدف يقوم على سلامة القصد (٣).

وهكذا شرع أوغسطين فكرة الحرب المسيحية ضد أعداء المسيح ، و على هذا أخذ المسيحيون بدافع من البابوية في إعلان الحروب ضد المسلمين في الأندلس و بلاد الشام وفي كل مكان مبررين ذلك بنظرية أوغسطين و فكره عن الحرب المقدسة و الحروب العادلة.

و ظهر هذا واضحا جليا في الحرب الصليبية التي أعلنتها الأبوية الحاقدة ضد الإسلام و المسلمين في الأندلس ، و التي كان لها كبير الأثر على انتقال هذه الحروب بسهولة من " حرب الاسترداد " الأسبانية إلى الحرب الصليبية ضد المسلمين في بلاد الشام والأرض المقدسة متأثرين بفكرة الجهاد الإسلامية (٤).

وهكذا تشكلت أيديولوجية الحروب الصليبية في نفوس أبناء الغرب الأوروبي ضد الإسلام والمسلمين على مدى قرون طويلة ، و اندفع هؤلاء الصليبيون للمشاركة في هذه

١- للتفصيلات أنظر : د./ قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ٢٠ ــ ٢٨ ، رنسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١ ، ط ٢ ، ترجمة د./ السيد الباز العرينى ، بيروت ، ص ٦٤ ــ ٩١ ، د./ سعيد عاشور الحركة الصليبية ، جـ١ ط١ ، مكتبة الأنجلوا ١٩٦٣ ، ص ٢٣ ــ ٢٤.

٢- د./ قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ــ ٣٤.

٣- المرجغ السابق ، ص ٣٥ ــ ٤٢.

٤- نفس المرجع ، ص ٤٢ ــ ٤٥.

الحركة الغاشمة التي كانت البذرة الأولى للاستعمار الحديث بدوافع خاصة بكل فئة و كل طبقة من طبقات المجتمع الأوروبي الذي كان يعيش في ظل النظام الإقطاعي [1]. الذي ولدت من رحمة هذه الحركة الصليبية . و استطاع الباب أن يضع أصابعه على هذه الدوافع الكامنة في داخل كل فرد من أفراد المجتمع الأوروبى ، و لذلك جاءت الإستجابة لدعوته قوية و سريعة بل فورية فانطلقت جموع الحاضرين في صوت واحد " الله يريدها " أو إنها " إرادة الرب " .

و تتمثل هذه الدوافع في الدوافع الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية التي تسربلت برداء الدين ، و الدين منها براء . فلم يكن للدين أي أثر في تحريك هؤلاء الصليبين و دفعهم للمشاركة في الحركة الصليبية ، و ليس معنى أنهم وضعوا شارة الصليب على ستراتهم قاموا بحرب من أجل الصليب الذي هو رمز للديانة المسيحية ، فلم يكن هؤلاء الصليبيون يعرفون أنهم صليبيون ، و لم يطلق أحد من المعاصرين عليهم هذا المصطلح لا من المؤرخين الغربيين و لا من المؤرخين المسلمين المعاصرين للحركة الصليبية ، فقد كان المسلمون يطلقون عليهم الفرنجة أو الفرنج أو أصحاب الإنكليز (ملك إنجلترا) أو أصحاب الفرنسيس (أي ملك فرنسا) ، و لم يطلق هذا المصطلح عليهم إلاَّ في القرن الثامن عشر عندما قام المؤرخون الألمان و الإنجليز ليناقشوا هذه الحركة و يلصقوها بالدين[2] و دليلنا على أنه لم يكن هناك دافعا دينيا للحروب الصليبية و لم تكن حربا دينية أن هؤلاء الصليبين عندما اقتحموا الأراضي المقدسة و استولوا عليها لم يفرقوا في معاملتهم الوحشية القاسية بين من هو مسلم و من هو مسيحي من الشرق الإسلامي وأنزلوا العذاب و القتل بالجميع و الأكثر من ذلك و الذي يوضح لنا القضية أكثر أن هؤلاء الصليبين عندما انتهى العسل و اللبن من الأرض المقدسة و لم يعد هناك ما يغريهم و يسيل لعابهم فاتجهوا للبحث عن أرض أخرى ووجدوها في القسطنطينية المسيحية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية

١- للتفصيلات عن النظام الإقطاعي أنظر : د./ سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، الأنجلوا المصرية ، ١٩٦٧ ، د./قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، الفصل الثاني.

٢- د./ قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ١١ ــ ١٥.

فهاجموها و استولوا عليها و نهبوا ممتلكاتها حتى الأديرة والكنائس و ساعدهم على ذلك البابا نفسه و رجال الكنيسة الموافقين للحملة المعروفة بالحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م و لم يتورع رجال الدين و الجنود عن انتهاك حرمات الراهبات في الأديرة و النساء في الشوارع فهتكوا عروضهم و سلبوا أموالهم ، فأي حرب دينية تدعوا إليها المسيحية (ديانة السلام) تكون بهذه البشاعة و هذه الوحشية[١].

فقد كانت الدوافع الحقيقية متمثلة في دوافع الفرسان و النبلاء و أيضا للأقنان للحصول على إقطاعات من الأرض في أرض العسل و اللبن – الأرض المقدسة – و الحصول على الحرية للأقنان [٢]، و الغفران الصليبي للمجرمين و الهاربين من القانون والعقوبة والتخلص من رقبة الإقطاع و مساوئه في الغرب الأوروبي ، و شجعت البابوية على ذلك لتتخلص من هؤلاء الإقطاعيين الذين ملأوا الغرب الأوروبي بالحروب الإقطاعية المستمرة والتي من جرائها ملئت الشوارع و الحقول بجثث القتلى حتى انتشرت الأمراض و الأوبئة في الغرب الأوروبي . و الأدهى من ذلك فقد كانت دوافع التجار الإيطاليين للحصول على الموانئ و المرافئ في الشرق الإسلامي و السيطرة على التجار بين الشرق و الغرب لأهمية البلاد الإسلامية من الناحية التجارية و قد كان[٣].

وإنطلق الصليبيون من الغرب الأوروبي نحو الشرق الإسلامي بمجرد انتهاء البابا "أوربان الثاني " من خطبته في كلير مونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م ، و هذه الدعوة الغاشمة التي خدعهم فيها بأن هذه الحرب من أجل تخليص إخوانهم المسيحيين في الشرق من يد الاضطهاد التركي السلجوقي و تطهير ضريح السيد المسيح عليه السلام من الدنس الذي حل

١- للتفصيلات حول هذا الدافع الديني انظر : صبري أبو الخير ، الحملة الصليبية الرابعة و سقوط القسطنطينية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب بالزقازيق ، ١٩٨٧.

٢- الأقنان هم عبيد الأرض ، و مفردها قن ، المعجم الوجيز ، ص ٥١٨.

٣- للتفصيلات انظر : قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، الفصل الثاني ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٧ – ٤٣ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ١٣٥ و ما بعدها ، علي حسني الخربوطلي ، المستشرقون و التاريخ الإسلامي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٤.

به من جراء وجود المسلمين هناك ؟ ولكنه أشار إلى الدوافع الحقيقية بعد أن وضع يده على الأوتار الحساسة والأهداف التي تدور في عقل وصدر كل أوروبي آنذاك، ولذا اندفع الجميع بحماسة لا مثيل لها ليحقق كل منهم أهدافه الخاصة [١]. ووصلوا إلى الأرض المقدسة ودخلوا بيت المقدس واستولوا عليه، ويروي أحد المؤرخين المرافقين للحملة أحداث الاستيلاء على بيت المقدس والمذبحة الغاشمة التي أنزلها الصليبيون بالسكان من المسلمين ومن المسيحيين على السواء، ويفخر بذلك قائلاً: " إن الدماء كانت للركب " [٢].

وكانت هذه الوحشية هي طبيعة الصليبيين في معاملتهم مع المسلمين بعنف وتعصب فعندما فتحوا " معرة النعمان " [٣] قتلوا مائة ألف من السكان، كما كانوا يكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من البروج والبيوت، ويجعلونهم طعاما للنيران، ولم يتورعوا من اقتحام الأماكن المقدسة سواء كانت المساجد أو معابد اليهود الذين تعرضوا للقتل في المعبد الذي لجئوا إليه وأهلكهم الصليبيون بالنار. [٤]

ويعترف جوستاف لوبون [٥] بهذه الفظائع التي قام بها الصليبيون في القدس فيقول: " أراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة، فانهمكوا في كل ما يستعسره الإنسان من ضروب السكر والعربدة واغتاظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل، فنعتهم (برنارد الخازن) بالمجانين، وسبهم (بودان) الذي كان رئيس أساقفة (دول) بالفرس التي تتمرغ في الأقذار.

١- د./ قاسم عبده قاسم، نصوص ووثائق، القاهرة، ١٩٨٥، أماكن متفرقة تحتوي على الخطبة.
٢- مؤرخ مجهول، أعمال الفرنجة و حجاج بيت المقدس، ترجمة د./ حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٣.
٣- معرة النعمان: بلدة في شمال بلاد الشام و الجزيرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص ٨٧.
٤- د./ علي حسني الخربوطلي، الإسلام و أهل الذمة، ص ١٩٦.
٥- حضارة العرب، ص ٣٢٧.

و يورد لنا جوستاف لوبون [1] أيضا وثيقة كتبها أحد المرافقين للحملات الصليبية و يصف فيها الطرق البشعة التي سلكها الصليبيون المتوحشون في تعذيبهم للمسلمين والتخلص منهم : " كان قومنا يجوبون الشوارع و الميادين و سطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، و ذلك كاللبؤات التى خطفت صغارها و كانوا يذبحون الأولاد و الشبان والشيوخ و يقطعونهم إربا إربا ، و كانوا لا يستبقون إنسانا ، و كانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ، فيا للعجب و يا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم ! و كان قومهم يقبضون على كل شئ يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية ، فيا للشره لحب الذهب ! و كانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، فيا لتلك الشعوب العمى المعدة للقتل ! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية دينا . ثم أحضر " بوهيموند " جميع الذين اعتقلهم في برج القصر ، و أمر بضرب رقاب عجائزهم و شيوخهم و ضعافهم ويسوق فتيانهم و كهولهم إلى أنطاكية لكى يباعوا فيها " و هذه الشواهد جزء من كل فظائع الصليبيين مع المسلمين في الأراضى المقدسة .

و إذا ما قارنا تعصب الصليبيين مع المسلمين و خشونتهم في تعاملهم معهم بتسامح المسلمين و حكامهم مع المسيحيين بصفة عامة ، و كذلك مع الصليبيين نجد هناك فرقا شاسعا في الطباع و الأخلاق و التمسك بتعاليم الأديان السماوية ، فها هو صلاح الدين الأيوبى عندما يهزم المسلمون الصليبين في موقعة حطين و يستردوا بيت المقدس يصدر صلاح الدين أوامره بالتسامح مع كل الصليبيين الذين تم أسرهم و يأمر بمعاملتهم معاملة طيبة و حسنة [2] و عندما وقع طفل رضيع أسير في يد المسلمين أثناء حصار عكا سنة ١١٩١م و تشكو أمه الصليبية إلى صلاح الدين و ترجوه رد طفلها إليها فدمعت عينا صلاح الدين و أمر برده إليها بعد دفع ثمنه لتجار الرقيق ، بل أحضر فرسا حملها و طفلها

١- نفس المرجع ص ٣٢٥.
٢- محمد أبو الحسن عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، موقعة حطين.

إلى بلدتها فيقول بن شداد [1]: " فأنظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية ، اللهم إنك خلقتهم رحيما رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال و الإكرام " .

و اقتفي أثر صلاح الدين خلفاؤه من الحكام ، و أدت هذه المعاملة الطيبة إلى تحول كثير من الصليبيين إلى الإسلام و يشهد على ذلك توماس أرنولد [2] فيقول : " إلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التي و صفت بأنها قد دخلت في نطاق تأثير الحكم الإسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية و الأرثوذكسية و الطوائف الخارجية عن الدين التي تفرغت عنها . و لكن بانتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم إلى أهالي الشام و فلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية و استقروا في مملكة بيت المقدس و سائر الولايات التي أسسها الصليبيون ، و ظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان . و في غضون تلك الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء الذين اعتنقوا الإسلام " . و يقول أيضا على لسان أحد المؤرخين الصليبيين المرافقين للحملات الصليبية : " من المؤكد أنهم رأوا – أي المسلمين – لم يكرهوا أحد من بينهم – أي الصليبيين – على نبذ دينه ، و إنما اكتفوا بما قدمه لهم من خدمات " .

و يقول أيضا : " و يظهر أن اختلاق صلاح الدين و حياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين تأثيرًا عظيما حتى قد بلغ من قوة انجذابهم إليهم أنهم هجروا ديانتهم المسيحية و هجروا قومهم و انضموا إلى المسلمين .... و بلغ عدد من تحول من المسيحيين إلى الإسلام خمس و عشرين ألفا من المسيحيين في مصر فقط .... و أن دخول أي مسيحي في الإسلام عن اقتناع صادق أمر ممكن " .

و انتهت الحروب الصليبية بعد قرنين من الزمان كحركة نشطة بفشل الصليبيين في تحقيق أهدافهم الاستعمارية و الاستيلاء الدائم على بلاد المسلمين و القضاء عليهم

١- النوادر السلطانية لبهاء الدين بن شداد ، ص ٢٥١.

٢- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د./ حسن ابراهيم حسن و آخرون ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٨ – ١١٦.

الفصل الرابع

النظام الاجتماعى في الإسلام

و يحتوى على :-

- المرأة في الإسلام .
- معاملة النساء عند الفرنجة .
- المذاهب و الفرق الإسلامية .
- الدين و الأخلاق في الإسلام .

مقدمة

ولقـد نظـم الـدين الإسـلامي الأوضـاع الاجتماعيـة المتمثلـة في العلاقات الأسرية و العلاقات بين الأفراد ، و تقاليد الزواج و العلاقات الاجتماعية و صلات الأرحام ، و على رأس هذه النظم الوضع الذي أرساه الإسلام للمرأة في المجتمع الإسلامي حيث أعطاها الإسلام كافة حقوقها كما وضح ما عليها من واجبات تجاه الأسرة و الزوج . وظهر واضحا الاختلاف الكبير بين أوضاع المرأة في الإسلام ، وأوضاعها في المجتمعات غير الإسلامية .

المبحث الأول

المرأة في الإسلام :

وعن النظام الاجتماعي في الإسلام يركز المؤلف السير جوستاف لوبون على المرأة في المجتمع العربي و أثر الإسلام في وضع المرأة المسلمة و دورها في المجتمع ، كما يركز على ناحية ثانية خاصة بالمرأة وهى تعدد الزوجات في الشرق و أسباب هذا التعدد في الإسلام والمؤلف في هذا المجال يتحدث بصورة إيجابية عن وضع المرأة في الإسلام وكيف تم تأثير الإسلام في وضع المرأة المزدرى قبل الإسلام في المجتمع العربي الجاهلي ، ويفند مزاعم المؤرخين الغربيين و ينقدها في هذا الشأن ، فعندما يرى الأوروبيون " أن مبدأ تعدد الزوجات يعتبر حجر الزاوية في الإسلام ، و أنه سبب انتشار القرآن ، و أنه علة انحطاط الشرقيين " [1].

يرد جوستاف لوبون على هذا الرأى مفندا : " ذلك الوصف مخالف للحق ، وأرجو أن يثبت عند القارئ الذي يقرأ هذا الفصل ، بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوروبية جانبًا و إن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التى تقول به ، و يزيد الأسرة ارتباطا ، و يمنح المرأة احتراما و سعادة لا تراهما في أوروبا"[2].

و يستكمل حديثه عن مبدأ تعدد الزوجات الشرعي في الإسلام فيقول : " و لا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين ، و أبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه ، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبرى من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزرًا "[3]

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٧.
٢- نفسه.
٣- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٨.

و يفسر لوبون أسباب تعدد الزوجات عند الشرقيين بأسباب ودواع سادجة غير علمية و لكنها قريبة الى الواقع و الفكر عند الشرقيين سواء كانوا من الرجال او النساء فيرى أن حب الشرقيين الجم لكثرة الأولاد ، و ميلهم الشديد إلى حياة الأسرة ، و كذلك السبب الخاص بالطبقة الزراعية حيث يكون نظام الحياة صعبا و المشقة كبيرة فتحرض النساء أزواجهن على الزواج بزوجات أخرى[١]، و كل هذه هي الأسباب التي تؤدي إلى انتشار مبدأ تعدد الزوجات ، كما ذكرنا أن هذه الأسباب ترجع إلى الناحية الفكرية عند أهل الشرق ، و لكن القرآن الكريم الكتاب الشرعي للمسلمين الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم يأتي بالأسباب الشرعية التي أقرها الله سبحانه و تعالى لهذا المبدأ وسوف أفصله بعد قليل .

و يقارن المؤلف و معه الأوروبيون بين حال النساء قبل الإسلام و تطبيق هذا المبدأ فيقول : " و لاحظ ذلك المحقق – مسيو لوبله – أن تعدد الزوجات عند الشرقيين لا يؤدي إلى تحاسدهن و تنافسهن ، و يرى الأوروبيون استحالة ذلك لما يساورهن من مبتسرات لا ريب ، ورأى الأوروبيين هذا ناشئ عن نظرنا إلى الأمور من خلال مشاعرنا ، لا من خلال مشاعر الآخرين ، و يكفي القضاء بضعة أجيال لإطفاء مبتسرات أو إحداثها ، و يمكننا أن ندرك ضرورة تبديل رأينا في هذا الأمر عند الرجوع إلى أدوار المجتمعات الفطرية الأولى حين كان النساء شيئا مشاعا بين رجال القبيلة الواحدة ، و إلى الأدوار التي هي أقرب من تلك حين كان النساء مشاعا بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو إلى أيامنا التي نرى فيها وجود هذه الطبائع في بعض أجزاء الهند " [٢] .

١- نفس المرجع ، ص ٣٩٨ – ٤٠١.
٢- لوبون ، المرجع السابق ، ص ٤٠٠ - ٤٠١.

مكانة البنت في الإسلام :-

و يتعرض المؤلف بصورة إيجابية و حسنة إلى تأثير الإسلام في وضع المرأة و مركزها في هذا الشأن يقول : " لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذي كان موجودا قبل ظهوره ، بل كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق ، و الإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي و شأنها رفعا عظيما بدلا من خفضهما خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى والقرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية أحسن مما في أكثر قوانينا الأوروبية كما أثبت ذلك حينما بحث في حقوق الإرث عند العرب ، أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوروبا التي قالت به ، و لكنه اشترط أن تكون للمطلقات متاع بالمعروف " [1].

و يستطرد المؤلف في المقارنة بين حال المرأة قبل الإسلام و بعده : " و كان الرجال قبل ظهور مُحمد يعدون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام و الإنسان من بعض الوجوه ، أي أداة للاستيلاد و الخدمة و كانوا يعدون ولادة البنات المصيبة ، و شاعت عادة الوأد ، و صار لا يجادل فيها كما لو كانت البنات جراء يقذف بها في الماء ، و يمكننا أن نتمثل عادة الوأد عند العرب من المحاورة الآتية التي وقعت بين رئيس بنى تميم قيس ومحمد حينما رأى قيس محمدًا يضع إحدى بناته على ركبته ، و التي رواها كوسان دوبر سفال :

قيس : من هذه الشاة التي تشمها ؟

محمد : ابنتي .

قيس : و الله كان لي بنات كثير ، فوأدتهن من غير أن أشم واحدة منهن .

محمدًا "صارخا": ويل لك، يظهر أن الله نزع الرحمة من قلبك ، فلا تعرف أطيب النعم التي من الله بها على الإنسان " [2]

١- لوبون ، المرجع السابق ، ص ٤٠١.
٢- لوبون ، المرجع السابق ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣.



المبحث الثانى

معاملة النساء عند الفرنجة :-

وعن رفع الإسلام لشأن المرأة يقول : " إن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية و ما اقتضته من احترام للمرأة " [١] . . . " و الإسلام لا النصرانية هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل التي كانت فيه ، و ذلك خلافا للاعتقاد الشائع ، و إذا نظرت إلى ستيوارت نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئا من الحرمة للنساء و إذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى ، و من ذلك ما جاء في تاريخ غاران لولو هيران عن معاملة النساء في عصر شارلمان و عن معاملة شارلمان نفسه لهن ، كما يأتى : " انقض القيصر شارلمان على أخته أثناء جدال و أخذ بشعرها و ضربها ضربا مبرحا و كسر بقفازه الحديدي ثلاث من أسنانها " ، فلو حدث هذا الجدل مع سائق عربة في الوقت الحاضر لبدأ هذا السائق أرق منه لا ريب " [٢]

و يسوق المؤلف مثالا عن وضع المرأة في ظل الإسلام في الأندلس و كيف وصلت إلى وضع علمي مرموق و إحترام جليل فيقول : " كان عبد الرحمن الثالث و هو يتمتع بأطايب مدينة الزهراء يحب أن يستمع إلى أغاني جاريته و أمينة سره العذبة " مزنه " وإلى فتاة قرطبية الكريمة " عائشة " التي روى ابن حبان أنها كانت أعقل بنات عصرها وأجملهن و أعلمهن . . . " و أضاف مؤرخا الحكم الثانى إلى ذلك قولهم : " إن نساء ذلك الزمن الذي

١- لوبون ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ، ٢٧٨ .
٢- لوبون ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .



كان للعلم و الأدب شأن عظيم في بلاد الأندلس ، كن محبات للدرس في خدورهن ، و كان الكثير منهن يتميزن بدماثتهن و معارفهن ... [1]

و يضيف المؤلف إلى ما سبق ليؤكد على رفع الإسلام شأن المرأة ، أن المرأة انحط وضعها و احترمها مع انحطاط الحضارة الإسلامية فيقول : " و خبت حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي العرب – و لا سيما – في عهد الترك ، فنقص شأن النساء كثيرًا ، و سأبين في مكان آخر أن حالتهن الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوروبا حتى عند الترك و ما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافا للقرآن ، و لا بسبب القرآن على كل حال " [2]، و يستطرد جوستاف لوبون في إثبات رأيه و تأكيده بالأدلة القاطعة في قوله : " و لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة ، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك ، و يسهل إثبات هذا بيانيا أن جميع الأديان و الأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة ، و هذا ما أوضحناه ... فقد كان الأغارقة على العموم، يعدون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النسل و تدبير المنزل ، فإذا وضعت المرأة ولد دميما قضوا عليها ... و لم ينل حظوة من النساء الإغريق في دور ازدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى الآئي كن وحدهن على شئ من التخرج " ... و في شرائع الهندوس : " ليس المصير المقدور و الريح و الموت و الجحيم و السم و الأفاعي و النار أسوء من المرأة " ...

وفي التوراة : " إن المرأة أمر من الموت ... و إن الصالح أمام الله ينجو منها ... رجلا واحد بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد " ... كما تحدثوا في أمثال الشعوب كثيرًا عن المرأة وحقارتها و دنو منزلتها في المجتمع ، و لم تعترف لها الشرائع السابقة بأي حق من الحقوق و لا بحق الميراث " . و يتحدث المؤلف بعد ذلك عنها – عن

١- نفس المرجع ، ص ٤٠٤.
٢- لوبون ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

المرأة – كناقصة عقل و خلق ويقول أن العلماء المعاصرين أثبتوا النقص مندَدين إلى عوامل تشريحية و نفسية كبيرة [١].

و للرد على هذه الشبهة التي ألحقها المستشرقون الغربيون و من لف لفهم من المسلمين و تفنيدها أقول : إن تعدد الزوجات قد عرف عند العرب قبل الإسلام و قد جاء من منطلق أنواع الزواج المتمثلة في :

١ – زواج الرهط ، و هو أن يتزوج رجال عديدون من امرأة واحدة .

٢ – زواج الاستبضاع : هو أن يدفع الرجل زوجته إلى حكيم أو عظيم ليستولدها رغبة في إنجاب الولد و تحسين النسل .

٣ – زواج البدل : و هو أن يستبدل كل من الزوجين حليلته بحليلة الآخر .

٤ – الزواج المؤقت أو زواج المتعة ، و هو زواج لمدة محدودة ليستمتع الرجل بالمرأة .

٥ – زواج المقت و هو أن تصبح أرملة الأب ضمن الميراث فيتزوجها ابن زوجها [٢] .

و غير ذلك من أنواع الزواج التي أنكرها الإسلام و حرمها تحريما ، لأن الجهل عند العرب من منطلق تقاليدهم البالية قد حكم بسوء هذه الأنواع من الزواج ، التي امتهنت كرامة المرأة و إنسانيتها .

و قد أباح الإسلام تعدد الزوجات كما أباح الطلاق و هذا يرجع لأسباب :

أولا : أن الطبيعة قد جعلت مولوداتها من الإناث أكثر من الذكور ، سواء ذلك في عالم الإنسان أو الحيوان و الطير . . . و حتى النبات : و قد يكون هذا التدبير المتصل بأصل الحياة لكي تتكاثر المواليد وتعمر هذه الأرض .

ثانيًا : إن الحروب ، و هي سنة من سنن الحياة . . . تذهب بكثير من الرجال، الأمر الذي إذا أضيف إلى سابقه قلت نسبة الرجال إلى النساء إلى درجة بالغة

١- لوبون ، المرجع السابق ، ص ٤٠٥ – ٤٠٨.

٢- د./ مصطفي الرافعي ، الإسلام نظام إنساني ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٦٤ ، العدد ١١ ، ص ٩١ ، ٩٢.



الخطر، إن لم يكن هناك عامل ملطف، أو مخفف لها فجاء هذا التعدد ليكون عاملاً معادلاً لهذا التفاوت في النسبة بين الطرفين. و حتى لا يمتن عانسات أو يحيين حياة بهيمية [1]. " و قد قيد الإسلام الناس بزوجة واحدة واحدة – في الأصل – يقتصرون عليها، و حررهم من هذا القيد في حالات الضرورة القصوى من عقم أو مرض، فأباح لهم التعدد المحدود، و لعل ذلك الحل الأوسط منه كان جريا على سنة التدرج في التشريع الإسلامي مثلما حصل في تحريم الخمر و في كلا الأمرين نراه قد أعطى الفطرة حقها – وهو دين الفطرة – و لم يغفل عما وقر في النفوس و لانت له الطبائع، و تغافلت عن آثار البيئة و التقاليد فعمد إلى إباحة التعدد إباحة مقيدة " [2].

وقد عالج الله سبحانه و تعالى هذه المشكلة في القرآن الكريم فقال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [3]، و لأن الله سبحانه و تعالى يعلم تماما أن الإنسان لا يستطيع أن يعدل بين النساء و لو حتى من ناحية الحب القلبي على الأقل فلذلك قال سبحانه و تعالى في نفس سورة النساء ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ﴾ [4].

وهكذا حدد الإسلام الأحوال التي تضطر الرجل أو تدفعه إلى التعدد مثل عقم المرأة أو عجزها عن تحمل أعباء الزوجية. كما ذكرت سابقا أنه لوضع علاج لهذا التعدد لابد من ملاحظة أمور ثلاثة ترتبط بالمرأة و المجتمع و هي كثيرة النساء تبعا لظروف الحروب وغيرها، و طبيعة تكوين المرأة، و الأزمات الاقتصادية [5].

١- د./ عبد الكريم الخطيب، التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث و تحدياته، ط١، ص ٢٨٤، ٢٨٥.
٢- د./ الرافعي، المرجع السابق، ص ٩٢.
٣- سورة النساء، آية ٣.
٤- سورة النساء، آية ١٢٩.
٥- د./ الرافعي، المرجع السابق، ص ٩٣ ــ ٩٥.

و يتناول المؤلف في حديثه عن المرأة في الشرق طريقة و طبيعة الزواج عند العرب وما أقره الإسلام في ذلك ، بطريقة حسنة و إيجابية يقارن فيها بين الزواج عند العرب والزواج عند الأوربيين ، و كيف أن الإسلام قد قرر حقوقا عظيمة للمرأة في هذا الشأن وعما أباحه القرآن من زواج المسلم بأربع نسوة ، و كيف أن له حرية في تطليقها ولكنه يجب عليه أن يصنع ما يكفل به مصيرها (1) .

كما استحسن الحياة العائلية و البيتية عند العرب ومميزات الزواج الشرقي فيقول: " و يمتاز الزواج الشرقى عن الزواج الأوروبى فيما عدا مبدأ تعدد الزوجات ، بأن الزوج في الشرق هو الذى يدفع أهل الزوجة مهرا متحولا بحسب ثروتيهما ، و بأن الزوجة عند أكثر الغربيين ، و لا سيما طبقاتهم المؤثرة ، و هي التي تدفع مبلغا من المال لتنال زوجا و حقوق الزوجة التي نص عليها القرآن و مفسروه أفضل كثيرًا من حقوق الزوجة الأوروبية فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها ، و عن أنه لا يطلب منها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل ، و هي إذا أصبحت طليقا أخذت نفقة، و هي إذا تأيمت أخذت نفقة سنة واحدة و نالت حصة من تركة زوجها . و تعامل المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلاً عن تلك الامتيازات ، و تنال بذلك حالا أجمع الباحثون المنصفون و منهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعدد الزوجات العداء على الاعتراف بحسنها"(2)، و في نفس الموضوع يتعرض المؤلف للحديث عن أوضاع النساء في الشرق ، ويقارن بين وضع المرأة العربية التي تأثرت بالإسلام ، و كيف أن الإسلام قد قرر لها حقوقها عظيمة و حفظ كرامتها ، و بين المرأة التركية التي تعرف بالتبرج و الإباحية لعدم تأثرها بالإسلام كثيرًا و تعرف كلمة " الحريم " من الناحية اللغوية بقوله أنها لفظ عام يدل عند العرب على كل ما هو مقدس ، فإذا طبقت هذه الكلمة على منزل دلت على أمنع قسم منه و أشده حرمة لدى المسلم ، أي على المكان الذي تسكنه نساؤه . . . (3).

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٠٩.
٢- نفس المرجع ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠.
٣- نفس المرجع ، ص ٤١٣.

و يرد جوستاف لوبون على مزاعم الأوروبيين حول وضع المرأة المسلمة و يفند هذه المزاعم بقوله : " و ينسج الأوروبيون على العموم ، أفسد الآراء حول دوائر الحريم في الشرق و يعدون دوائر الحريم دور فسق يسكنها نساء سجينات تعسات يقضين أوقاتهن في البطالة و يلعن حظهن . و قد بينا درجة بعد هذه الأحكام عن الصحة ، و يقضى جميع الأوروبيين الذين يدخلون دوائر الحريم كل العجب من حب النساء فيها لأزواجهن و من تربيتهم لأولادهن و تدبيرهن لأمور منازلهن و رضاهن بما قدر لهن و اعتقادهن تقهقرهن إذا ما حملن عل تبديل حال الأوروبيات بحالهن ، و هن يتوجعن بإخلاص من إلزام الأوروبيات بالأشغال و بالأعمال اليدوية مع أنهن لا يعتنين إلا بأسرهن و أزواجهن ذاهبات إلى أن المرأة خلقت لهذا [1].

و في النهاية يوضح المؤلف صراحة إعجابه و استحسانه للطبائع العربية عند المرأة بعد تأثرها بالأخلاق الإسلامية فيقول : " و إنني أطمع أن يعتقد القارئ ، بعد وقوفه على ما تقدم ، أن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب ، و إن حب الأسرة و حسن الأدب و جميل الطبائع أكثر نموًا في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم ، و أن الإسلام حسن حال المرأة كثيرًا وأنه أول دين رفع شأنها وأن المرأة في الشرق أكثر احتراما و ثقافة و سعادة منها في أوروبا على العموم تقريبا " [2]

و الواقع أن العرب في الجاهلية كانوا يتصرفون في شئون البنات كما يريدون ولا سيما في زواجها حيث لم يكن لها الحق في اختيار زوجها . و لما جاء الإسلام و أخذ يرفع من مقام البنات في المجتمع جعل رضا البنت البالغة شرطا لصحة العقد عليها بحيث لا يكون لأحد – أبوها أو غيرهما – أن يجبرها على الزواج بمن لا ترضاه [3].

فقد كفل الإسلام للمرأة كافة حقوقها في كافة نواحي الحياة الشخصية والاجتماعية ، و من أول الحقوق التي كفلها لها الإسلام حقها في استئذانها لاختيار شريك

١- نفس المرجع ، و نفس الصفحة.
٢- لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٠٥
٣- د./مبشر الطرازى الحسيني ، المرأة و حقوقها في الإسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ١٧.

حياتها و عدم إرغامها على قبول من لا ترغبه ، و هذا الحق ثابت للبكر و الثيب على السواء و هو حق مشروع في ظل الحنيفية السمحة الاسلامية التي تحافظ على المرأة عفافا وكرامة و إرادة في جو يحفظ عليها مقدساتها الإسلاميه ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تنكح البكر حتى تستأذن ، قالوا يا رسول الله و كيف إذنها ؟ قال: أن تسكت..."(١) و يقول عليه الصلاة و السلام أيضا : " الأيم أحق بنفسها من وليها و البكر تستأذن و إذنها صمتها " (٢)ففي عهد النبي صلى الله عليه و سلم أحب شاب يدعى" مغيثا " فتاة تسمى " بريده " و كان الشاب ردئ الوجه فلم يحظ بارتياح نفس عند بريده ولكن حبها قد ملك عليه أحاسيسه ووجدانه حتى أنه ليمشي وراءها في الشوارع من فرط هواه إياها . . . و أراد أن يوسط النبي صلى الله عليه و سلم عند بريده لترضى عنه . . . وعرض النبي صلى الله عليه و سلم أن تقبل الزواج منه فقالت : أتأمرني يا رسول الله ؟ قال : لا قالت : إني لمبغضة فقال النبي صلى الله عليه و سلم للعباس : ألا تعجب من حب مغيث بريده و بغض بريده مغيثا " (٣).

و مما يتصل بحق المرأة في اختيار زوجها أعطاها الله الحق في تملك مهرها الذي يمنحه لها الزوج نحلة أو عطية من عند الله و تفضل منه فليس عطاء نظير عوض و لا هو ثمن و لا هدية في مقابل هدية و لكنة نحلة خالصة ترمز لما بين الزوجين من النقاء والصفاء و الهناءة في ود ومن سكن ممتلئ بالرحمة و الحنان ، و هذا المهر الذي هو نحلة يجب أن يدخر من مصدر حلال لا يرتبط به أذى و لا منه و ن يقدمه بيد الحنان التي تجعله شهدًا سلسبيلا و ألا ينتظر في مقابله عوض (٤).

و كما أعطى الإسلام المرأة الحق في اختيار زوجها ، أعطاها الخيار في البقاء معه أو فراقه عندما تسوء العشرة بينهما ، و يعز التوفيق و الصلح . و لهذا شرع الطلاق لمصلحة

١- الإمام البخاري ، كتاب النكاح ، باب لا ينكح الأب و غيره البكر و الثيب إلا برضاها ، جـ٣ ص ٣٥٠.
٢- الإمام مسلم ، م٣ ، جـ٩ ، باب استئذان الثيب بالنطق و البكر بالسكوت ، ص ٢٠٤.
٣- د / رءوف شلبى ، الدعوة الإسلامية في عهد المدني و منهجها و غايتها ، ص ١٧٩.
٤- د / رءوف شلبى ، الدعوة الإسلامية في عهد المدني و منهجها و غايتها ، ص ١٨٠

الزوجين على سواء ، فهو و إن جعل الطلاق في يد الرجل لأنه أبعد عن العاطفة و الانفعال و أقدر على التحكم في نفسه أثناء الغضب و الخصام – إلا أن المرأة تملك أن تطالبه بالطلاق أو المخالعة ، كما تملك عند العقد أن تشترط عليه لنفسها ما شاءت : من السكن في بلدها أو عدم التزوج عليها بثانية ، أو أن تكون عصمتها بيدها أي تطلق نفسها من حين تشاء – على ألا يكون الاشتراط مانعا لحق من حقوق الزوج المشروعة (١).

و لم يجعل الإسلام الطلاق بيد الزوجة لأنها تحكمها العاطفة ، فلو كان الطلاق بيدها لأساءت استخدامه و لجاز لها أن تطلق نفسها لأتفه الأمور ، أما الرجل إذا أراد الطلاق فلا يقدم عليه إلا بعد تفكير ، فلا يندفع إلا إذا رجحت لديه عوامل الانفصال ، و لو أننا جعلنا الطلاق بيد المرأة لكان في ذلك ظلم للرجل بضياع ما أنفق في سبيل هذا الزواج من نفقات مالية و إنها لكثيرة ، و لقد وضع الإسلام مسوغات لطلب المرأة الطلاق منها : عجز الزوج عن النفقة بدليل قول رسول الله صلى الله عليه و سلم " امرأتك ممن تعول تقول أطعمني و إلا فارقتني " ، أو إذا وجدت المرأة بالزوج عيبا مستحكما لا يمكن البرء منه أو يمكن و لكن بعد زمن طويل و لا تقبل المقام معه : كالجنون و الجذام و البرص (٢)

الأنكحة الفاسدة التي حرمها الإسلام :-

ومن تكريم الإسلام للمرأة أنه حافظ على كرامتها بعد أن كانت بضاعة تستغل لصالح من يعولها ، فقام الإسلام بالقضاء على ألوان من الأنكحة التي منها : زواج الشغار و معناه أن يقول الرجل للرجل زوجني ابنتك و أزوجك ابنتي أو زوجني أختك فأزوجك أختي و هو ممنوع لأن المهر حق خالص لها . . . و تلك صورة مهينة حرمها الإسلام حيث يقول الرسول صلى الله عليه و سلم في الحديث الشريف : " لا شغار في الإسلام " (٣) وقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾ (٤)، وقال الكلبي وجماعة : إن ولي المرأة – في

١- د./ أحمد محمد جمال ، مفتريات على الإسلام ، ط٣ ،١٩٧٥ ، ص ١٠٤.
٢- د./ عفيفي طبارة ، روح الدين الإسلامي ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١.
٣- الإمام مسلم كتاب النكاح ، باب تحريم نكاح الشغار و بطلانه ، جـ٩ ، ص ٢٠٠.
٤- سورة النساء ، آية ٤.

الجاهلية – إذا كان زوج المرأة معهم في العشيرة أخذ المهر و لم يعطها شيئا، وإن كان زوجها غريبا حملوها على بعير و لا يعطيها من مهر غير ذلك فنهاهم الله عز وجل عن ذلك و أمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله [1] كما جاء الإسلام ليعلن أن مولد كرامة المرأة مرتبطة بها كعنصر أساسي للمودة و السكن و الرحمة فحرم استخدامها في البغاء فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [2] ، و قال السدى : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، و كانت له جاريه تدعى " معاذة " وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه فأقبلت الجارية إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه و سلم فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبى بن سلول: " من يعذرنا من محمد يقلب على مملوكتنا " فإن استخدام المرأة في البغاء حتى لو كانت أمة رقيقة ، مثل " معاذة " يتنافي مع حقوق المرأة في الكرامة و لهذا شرع الإسلام تحريم استغلال المرأة كمصدر تمويل [3].

وكذلك نكاح الخدن ، المذكور في قوله تعالى ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [4] ونكاح الخدن كانوا يقولون فيه : " ما استتر فلا بأس به و ما ظهر فهو لؤم " [5]. و كذلك نكاح البدل و هو أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك و أنزل لك عن امرأتي وأزيدك ، ونكاح الاستبضاع ، و يفعل ذلك رغبة في إنجاب الولد حيث كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها ، أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، و يعتزلها زوجها حتى يتبين حملها، فإذا تبين أصابها إذا أحب ، و جاء الإسلام ليحرم هذه الأنواع وليكرم المرأة ويصون أدميتها [6].

١- د./ رءوف شلبى ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، ١٨٣.
٢- سورة النور ، آية ٣٣.
٣- د./ رءوف شلبى ، المرجع السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤.
٤- سورة النساء ، آية ٢٥.
٥- السيد سابق ، فقه السنة ، مجلد ٢ ، ط٢ ، الفتح للأعلام العربى ، ١٩٩٠ ، ص ١٢١.
٦- نفس المرجع و نفس المجلد ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.

المبحث الثالث

المذاهب و الفرق الإسلامية :ـ

ومن الناحية الدينية ، وضع الإسلام الحرية في التفكير مما أدى إلى وجود الكثير من المذاهب والفرق الإسلامية التي لا تختلف في أصول الدين بأي حال من الأحوال . ولكن هذا الاختلاف جاء من الاجتهاد الذي منحه الإسلام لأصحاب الفكر والعقيدة وليكون هذا الاختلاف رحمة للمسلمين . هذا فضلا عن أن الدين الإسلامي قد وضع قواعد الأخلاق الكريمة .

ويتعرض جوستاف لوبون في كتابه عن الحديث عن الأسس و القواعد الأساسية للإسلام ، و مدى تأثير الإسلام في أخلاق الناس أكثر من تأثير أي ديانة أخرى ، كما تعرض بصورة موضوعية عن عدم اجتراء أحد على انتهاك حرمة الإسلام و التأثير في هذه التعاليم فيقول : " تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر ، و لا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنا أجل ، قد تجد بين المسلمين عددًا قليلاً من الزنادقة و الأخلياء [1]، و لكنك لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة في المساجد و صوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه ، و بدقة مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به بعض النصارى كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في أسيا و إفريقية ، و من ذلك أن أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين في الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيت العجب حين رأيتهم ، و هم الذين خرقوا جميع القوانين

١- الأخلياء : في المثل خلاؤك اقنى لحيائك لأي منزلك إذا خلوت فيه الزم لحيائك و أنت خلي من هذا الأمر أي خال فارغ من الهم ، و هو خلاف الشجي ، وفي المثل ويل للشجي من الخلي ، والخلي الذي لا هم له الفارغ ، و الجمع خليون و أخلياء . ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٢ ، ص ١٢٥٥ .

الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات ، ولم يجرؤ على انتهاك تعاليم النبي ، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه " [١].

ورغم أن المؤلف يتكلم بموضوعية وإيجابية إلا أنه ينحرف عن الصواب من الناحية العقلانية عندما يفسر سعادة المؤمنين بالنعيم في الآخرة على أنها أوهام فيقول : " حقا بأن مثل تلك المعتقدات يورث الجموع تبصر من خلالها نعيم الآخرة الذي لا ترى مثله في هذه الحياة الدنيا ، وهي تصونها من الوقوع في اليأس وما يجر إليه اليأس من الفتن الشديدة ، ويجب على من يستخف بتلك الأوهام أن يستخف بجميع الأوهام ليكون منطقيا فيزدرى المجد والطموح والحب وجميع الخيالات الساحرة الجديرة بالاحترام التي نقضي حياتنا وراء تحقيقها ، وهذه الأوهام أعظم عامل في سير الإنسان حتى الآن والمفكر الذي يكتشف ما يغني الناس عنها لم يولد بعد "[٢].

ثم يستعرض المؤلف العبادات الإسلامية وأسسها مثل الصلاة وصوم رمضان ومظاهر الحياة الدينية خلال هذا الشهر ، والأعياد والمناسبات الدينية الخاصة المولد النبوي الشريف وليلة النصف من شعبان ومن الأعياد عيد الأضحى [٣]. ومدى تأثير الإسلام في هذه العادات والتقاليد العربية فيقول : " وبلغ تأثير الإسلام في تلك المراسم في أدق شئون العرب مبلغا تكون معه جميع مراسمهم أعمالا دينية ، ومن تلك المراسم أنكحتهم وختانهم التى وصفناها في فصل سابق ، والتي ليست في الحقيقة سوى أعمال دينية ومدنية معا "[٤].

ويتناول كذلك فريضة الحج واصفا كيفية الاستعداد لهذه الفريضة وما يتم فيها ويحلل ذلك تحليلاً دقيقا وأنه فرض لتوثيق عرى الإخاء الإسلامي ، فالقرآن قد وصف

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤١٧.
٢- حضارة العرب ، ص ٤١٨.
٣- نفس المرجع ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ . و رأيي في هذه المناسبات أنها شرعية ، و لكنى اختلف مع كيفية الاحتفالات بها و ما أحدثه الناس من مختلفات و بدع يأباها شر ا الحنيف.
٤- نفس المرجع ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢.

المؤمنين بأنهم جميعا إخوة . كما يتم في هذه العريضة مناقشة شئون المسلمين في جميع البلاد الإسلامية [1].

و في حديثة عن الدراويش و أذكارهم و كيف أن الزهد و الذكر يؤديان إلى ظهور الفرق الإسلامية ، و يخطئ في نظرته إلى القرآن الكريم حيث يصفه بأنه لا يقل تشاؤما عن الإنجيل فيقول : " و تظهر الطرق الدينية في الأديان التي تميل إلى التشاؤم عادة وليس القرآن أقل تشاؤما من الإنجيل ، فالقرآن ، كالإنجيل ، يعد الحياة الدنيا طريق ابتلاء و امتحان للوصول إلى الآخرة ، و أوجب هذا ميل ذوى الورع و القلق إلى التحرر من مفاسد الدنيا و دخول ملكوت السماوات بالزهد " [2].

و يتحدث المؤلف عن الطريق الدينية و أفعالها ، و في خلال حديثه هذا يتناول الحديث عن المباني الدينية مثل المساجد و الزوايا و المدارس ، و يركز حديثه عن المسجد النواة الأولى في دولة النبي صلى الله عليه و سلم فيقول : " المسجد مركز الحياة الحقيقي عند العرب ، فالعرب يتخذون المسجد محلا للاجتماع و العبادة و التعليم ، و السكن عند الاقتضاء ، لا لعبادة الله فقط كبيع النصارى " [3].

و يسهب المؤلف في حديثة عن التصميم المعماري للمساجد و كيفية الإنفاق عليها والقائمين على شئونها ، و وظيفة المساجد التعليمية و خاصة الجامع الأزهر و كيف أن الإسلام قد حرص على العلم و شجع عليه ، و يفرق بين العلماء و من سواهم ، و يصف الصنف الآخر بالحشرات فيقول : " فالعلم الذي استهانت به الأديان الأخرى يجله المسلمون حقا ، و إلى المسلمين يعزى القول الصائب : " من البشر من يتعلمون فيعلمون ويعد من سواهم من الحشرات أو ممن لا يصلحون لشئ و لا ينفعون " [4]. كما يتحدث عن

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
٣- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .
٤- نفس المرجع ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

ويعد من سواهم من الحشرات أو ممن لا يصلحون لشئ و لا ينفعون " [1]. كما يتحدث عن مزارات الأولياء و الزوايا كأماكن للعلم الديني و الطرق الدينية و كذلك كمراكز للعلم[2].

ومن الأخلاق الإسلامية يتحدث جوستاف لوبون عن أثر الإسلام في أصول الأخلاق عند العرب ، و كيف أن الإسلام قد هذب المسلمين و حثهم على التمسك بأخلاق التسامح و السلام و عدم الغدر و هذا واضح من خلال موقف المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى في البلاد المفتوحة مقارنة بموقف الصليبيين من المسلمين أثناء حركة الحروب الصليبية ، و أن ارتقاء الإسلام بأخلاق المسلمين رفعهم من الانحطاط و التدهور على عكس أصحاب الديانات الأخرى الذين لم يتمسكوا بالأخلاق و القيم و المبادئ التى تأمر بها الديانات السماوية و على رأسها الإسلام من خلال القرآن الكريم ، و قد أصاب المؤلف في هذه النقطة و أجاد بموضوعية وافية فيقول : " أصول الأخلاق في القرآن طيبة فالقرآن يأمر بالصدقة و الإحسان و القرى و الاقتصاد في الرغائب و الوفاء بالعهد و حب الأقربين و احترام الوالدين و حماية الأيامى و اليتامى و بما نجده مكررا فيه من درء السيئة بالحسنة ، و تطابق أصول الأخلاق في القرآن ما ورد في الإنجيل تقريبا " [3].

١- نفس المرجع ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨.
٢- نفس المرجع ، ص ٤٢٨.
٣- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٢٨.

المبحث الرابع

الدين و الأخلاق في الأسلام :ـ

ويستكمل حديثة قائلاً : " و كانت أخلاق العرب في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبة ، و لا سيما الأمم النصرانية ، و كان عدلهم و اعتدالهم ورأفتهم و تسامحهم نحو الأمم المغلوبة و وفاؤهم بعهودهم و نبل طبائعهم مما يستوقف النظر و يناقض سلوك الأمم الأخرى ، و لا سيما الأمم الأوربية أيام الحروب الصليبية "[١].

ثم يستطرد في حديثه عن تأثير القرآن و أفضليته عن الإنجيل فيقول : " و لو صح أن يكون للأديان ما يعزى إليها من التأثير لوجب أن نقول إن القرآن أفضل من الإنجيل ما بدت أمم الإسلام أسمى أخلاقا من أمم النصرانية فيما مضى ، و لكن ما قلناه من استقلال الأديان على الأخلاق يدل على انتقاء صحة هذا الاستنتاج ، فأخلاق المسلمين كأخلاق النصارى اختلفت باختلاف العوامل المذكورة صعودا و هبوطا "[٢] .

ويدحض المؤلف زعم الأوروبيين و افترائهم على الإسلام في أنه سبب الانحطاط في الشرق فيقول : " و ما تقدم يثبت بدرجة الكفاية ، فساد الرأي الأوروبي القائل أن دين مُحمد هو سبب ما يشاهد في بعض أمم الشرق من الانحطاط ، و رأى فاسد مثل هذا مصدره ما قيل من إبداعه لمبدأ تعدد الزوجات و ما زعم من أن جبريته تحمل الإنسان على الكسل و ما أذيع من أن مُحمدًا لا يطالب أتباعه بغير الشعائر السهلة ، فالقارئ الذي سار معنا إلى هنا يرى درجة بعد هذه المزاعم من الصحة ، و قد رأينا أن مبدأ تعدد الزوجات كان شائعا في الشرق قبل ظهور محمد بقرون كثيرة ، و أن جبرية القرآن ليست أشد مما جاء في كتب الأديان الأخرى ، و أن العرب إذا كانوا جبريين بسجيتهم ، و لم تؤد جبريتهم إلى الخمول ما شادوا دولة عظيمة ، و أن أصول الأخلاق في القرآن سامية سمو ما جاء في

١- نفس المرجع ، ص ٤٣٠.
٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ٤٣٠.

أي كتاب ديني آخر، و هذا إلى أن القرآن لو كان عاملا في انحطاط مسلمي الشرق لوجب أن يتلفت من ذلك الانحطاط الشرقيون الذين لا يقولون بمبدأ تعدد الزوجات و لا يبدون جبريين كنصارى سوريا، و نصارى سوريا كما أجمع كل من بحث في أمور الشرق أحط أخلاقا من المسلمين بدرجات "[١].

و لم ينس جوستاف لوبون في حديثه عن النظم الحضارية و الأسس و المبادئ التي قام عليها الدين الإسلامي أن يتعرض للحديث عن المذاهب الإسلامية الأربعة و الأماكن التي انتشرت فيها هذه المذاهب و أولية كل مذهب من المذاهب الأربعة في أماكن معينة من بلاد الإسلام فيقول: " و قامت بذلك جماعة كبيرة من الأئمة في القرن الأول و القرن الثاني من الهجرة، و اعترف بأربعة منهم هم أبو حنيفة و الشافعي و مالك و ابن حنبل. وإلى هؤلاء تنسب المذاهب الأربعة التي يقتدي بها مختلف شعوب الإسلام، فأما المذهب المالكي فاتبع في إفريقيا، و أما المذهب الحنفي فاتبع في تركيا و الهند، و أما المذهب الشافعي فاتبع في مصر و جزيرة العرب مع عمل المحاكم المصرية بالمذهب الحنفي و أما الذهب الحنبلي فمهجور في أيامنا [٢]ثم صار لكل واحد من هذه المذاهب الأربعة كثير من الشرائح، و من ذلك أن كان خليل المتوفى سنة ١٤٢٢ م، شارحا للمذهب المالكي المنتشر في بلاد الجزائر، فعد كتابه الذي ترجم إلى الفرنسية مرتين إحداهم بقلم الدكتور بيرون والثانية بقلم مسيو سغنت، أهم رسالة في الفقه المالك " [٣].

و حقيقة الأمر أن هذه المذاهب الأربعة لا خلاف بينها و بين بعضها البتة فكلها تقوم على أسس و قواعد الإسلام التي أرساها الرسول صلى الله عليه و سلم، و فسروها وشرحوها من منطلق تعريف الناس بدقائقها و توضيحها، و لا نجد خلافا يذكر في الأسس و أما الفروع فهي ثانوية للتسهيل على المسلمين في بعض الأشياء و لإيجاد مخرج للتخفيف

١- جوستاف لوبون، حضارة العرب، ٤٣١.
٢- المذهب الحنبلي ليس مهجورا كما يزعم المؤلف، فهناك بلادا كثيرة تطبقه مثل أهل الحجاز. ويدرس في الأزهر: معاهده و كلياته.
٣- جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٣٨٥.

عنهم ، و انتشرت المذاهب الأربعة بين المسلمين كافة و عمل بها جميعا لعدم وجود الاختلاف بينها و بين بعضها البعض في الأصول هذا من ناحية ، و من ناحية ثانية وجد في كل بلد إسلامي القضاة على المذاهب الأربعة لكل مذهب قاض ، و على رأس هؤلاء القضاة الأربعة و جد قاضي القضاة الذي يجمع بين المذاهب الأربعة .

وبعد ذلك يتطرق المؤلف للحديث عن الفرق الإسلامية فيقول : " يشتمل الإسلام على عدة فرق ككل دين و بلغ عدد الفرق الإسلامية ، منذ أوائل التاريخ الهجري ، اثنتين وسبعين فرقة و أكثر من هذا عدد الفرق البروتستانتية وحدها . و فرق أهل السنة و فرقة الشيعة أقدم الفرق الإسلامية و أهمها ، فأما الشيعة فيزعمون أن الخلافة لصهر النبي علي و يحترمون عليا كاحترامهم لمحمد تقريبا ، و أما أهل السنة فيرون خلافة الخلفاء صحيحة وفق ترتيبهم ، و يمثل أهل السنة الفريق الصحيح " (1).

ونوضح هنا أن المؤلف لم يكن واعيا أو مدركا أن الاختلاف بين أهل السنة والشيعة لم يكن خلافا دينيا فكل منهما مسلم و مؤمن تماما بالدين الإسلامي ، و أن هذه الفرق تعتبر فرقا سياسية و ليست دينية . كما أنه قد خلط في استخدام المصطلحات المسيحية و استخدمها للتعبير عن الفرق الإسلامية ، و مع الاختلاف الواضح و الذي يبين أهداف نشوء الفرق السياسية الإسلامية ، و نشوء الفرق المسيحية التي قامت على أساس الاختلاف الديني .

ثم يتناقض المؤلف مع نفسه عندما يوضح موقف أنصار كل فرقة من الفرق الإسلامية من الفرق الأخرى ، و كيف أنهم عاشوا جانبا إلى جنب في تسامح فيقول : "وينظر بعض تلك الفرق إلى بعض بعين التسامح ، و تصلح الفرق في سوريا على الخصوص أن تكون قدوة لمختلف الفرق النصرانية ، و أنت لا تجد في العالم الإسلامي محاكم مثل محاكم التفتيش ألفت لحمل أنصار فرقة على انتحال مبادئ فرقة أخرى بالحديد

1- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤١٨.

والنار، وأنت تجد أساتذة منتسبين إلى مختلف المذاهب يعيش بعضهم بجانب بعض متفاهمين في الجامع الأزهر الذي هو أهم موائل للتعليم الدينى في الشرق " (١).

ويجدر بنا في هذا المجال التعليق بنبذة موجزة عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم لتوضيح الهدف الأساسي من نشوء وقيام هذه المذاهب، أما المذهب الوهابي فسوف نتعرض لتحليله في الباب الثاني بمشيئة الله تعالى. وقد قام فضيلة الإمام محمد أبو زهره (٢) بتحليل الأسباب التي أدت إلى ظهور المذاهب والفرق الإسلامية تحليلاً جامعا جامعا مانعا فيقول: " إن هذا الاختلاف لم يتناول لب الدين، فلم يكن الاختلاف في وحدانية الله تعالى، وشهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي القرآن الكريم نزل من عند الله العلى القدير، وأنه معجزة النبي الكبرى، ولا في أصول الفرائض كالصلوات والزكاة والحج والصيام، ولا في طريق أداء هذه التكليفات، ولا في أمر علم من الدين بالضرورة، وإنما الاختلاف جاء في أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة.

وقد جاء هذا الاختلاف من خلال مجاورة المسلمين لكثيرين من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الإسلام، والتعرض لبحث كثير من المسائل الغامضة، وكذلك لاستنباط الأحكام الشرعية.

وأول هذه المذاهب هو " مذهب أبى حنيفة " وصاحبه هو النعمان بن ثابت المكنى بأبي حنيفة (٣) وقد قام أبى حنيفة في وسط الظروف السياسية القائمة في الدولة الإسلامية بالاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية، وقام منهجه على الأخذ بكتاب الله وسنة رسول الله، وأراء الثقات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: " إني آخذ بكتاب الله إن وجدته، فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت

١- جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٢٠.
٢- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، ص ١١ و ما بعدها.
٣- عبد الحليم الجندي، أبو حنيفة، ط٣، دار المعارف، ١٩٩٢، ص ١٠.

بقول أصحابه من شئت : و أدع قول من شئت ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي و الحسن و ابن سيرين و سعيد بن المسيب – و عد عدة من مجتهدى التابعين و تابعيهم – فلي أن أجتهد كما اجتهدوا " [١].

وفي نفس السنة التي مات فيها أبى حنيفة ولد الشافعي و هو من نسب رسول الله صلى الله عليه و سلم و يعرف بمحمد بن إدريس بن العباس المعروف بالشافعي و سار على نفس النهج الذي سار عليه أبى حنيفة ، و إن كان قد أختلف معه في بعض المسائل التي لا تمس أسس الدين الإسلامي [٢].

أما " مالك بن أنس " صاحب المذهب المالكي فقد تتلمذ على يد فقهاء المدينة السبعة و هم سعيد بن المسيب ، و سليمان بن يسار ، و عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبو بكر بن عبد الرحمن الحارث المخزومي ، و خارجة بن زيد بن ثابت ، القاسم بن محمد بن أبى بكر وأصبح بعد ذلك أستاذ للفقه في المدينة ، و انتشر مذهبه في العالم الإسلامي[٣].
الإسلامي[٣].

أما المذهب الرابع فهو " مذهب الحنابلة " و ينسب إلى أحمد بن حنبل ، و نشأ على العلم في حلقة الإمام الشافعي ، و تنقل وراء الإمام في مكة و بغداد و مصر حتى شهد الشافعي نفسه أنه لم يخلف بالعراق رجلا أفضل و لا أعلم و لا أفقه و لا أتقى من أحمد بن حنبل ، و سار ابن حنبل على نهج أستاذة حتى صار إمام المسلمين الرابع ، و لاقى الكثير من الاضطهاد من الخلفاء نتيجة تمسكه و صلابته في مواقفه تمسكا بمذهبه الفقهي و التزاما بأسس و دعائم الدين الإسلامي [٤].

١- نفس المرجع ، ص ١٥٢ ، ١٥٣.
٢- الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ٨ ، ص ٣٧٧ و ما بعدها.
٣- عبد الحليم الجندي ، مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ط ٣ ، دار المعارف ، ١٩٩٣.
٤- عبد الحليم الجندي ، أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، ط ٢، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

الخاتمة

وأتناول في الخاتمة النتائج التي خرجت بها من الدراسة ، وكذلك التوصيات التي أوصى بها الهيئات والإدارات المسئولة عن درء أي هجوم أو اعتداء على الإسلام والمسلمين .

أولا : النتائج :

نستخلص من الدراسة العديد من الاستنتاجات :-

١ – أن المستشرقين ومنهم جوستاف لوبون قد تعرضوا في اتهاماتهم وزعمهم للقرآن الكريم ولشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وللإسلام والفتوحات الإسلامية .

٢ – أن جوستاف لوبون قد أصاب كبد الحقيقة في تعرضه للحضارة الإسلامية معترفًا ومؤكدًا على الأثر الكبير الذي تركته الحضارة الإسلامية في كافة أنحاء العالم في الشرق والغرب ، وفي كافة نواحي العلم وحتى الأخلاق والمثل .

٣ – أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم أو وثن قط قبل مبعثه وكذلك لم يشرب الخمر ولم يقلد العرب في تقاليدهم وعاداتهم البالية .

٤ – أن الإسلام جاء ليقضى على كل التقاليد والعادات العربية الفاسدة كما جاء ليقضى على عبادة غير الله سبحانه وتعالى

٥ – أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميًا لم يعرف القراءة والكتابة ولم يتعلم شيئًا من اليهود أو النصارى أو غيرهم وهذا دليل على أن القرآن لم يأت به

الرسول من التوراة أو الإنجيل ولكنه كان من عند الله سبحانه و تعالى كان ينزل عليه عن طريق الوحي بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام .

٦ – أن زواج الرسول صلى الله عليه و سلم بالعديد من زوجاته لم يكن بغرض الشهوة أو المال أو غير ذلك من رغبات الدنيا ، و لكنها كانت لأغراض دينية واجتماعية أوضحها الرسول صلى الله عليه و سلم .

٧ – أن موقف قريش من الدعوة الإسلامية كان لأهداف و أسباب اقتصادية وسياسية و اجتماعية خاصة بهم .

٨ – أن الرسول صلى الله عليه و سلم قد أرسى أسس الدولة الإسلامية في المدينة لتقوم على الإخاء و المساواة و العدل و التكافل و التقوى .

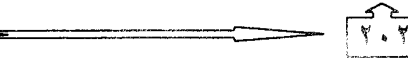
٩ – أن الفتوحات الإسلامية قد بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه و سلم لنشر الدين الإسلامي الذي أنزله الله للعالمين كافة ، و لحماية و تأمين الدولة الإسلامية الناشئة .

١٠ – أن أهل الذمة الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية أصبحوا في ذمة المسلمين و لهم ما للمسلمين من حقوق و عليهم ما على المسلمين من واجبات وتمتعوا بكافة الحريات في كل نواحي الحياة .

١١ – أن الإسلام قد وضع أسسًا و قواعد للنظام السياسي في الدولة و كذلك النظام الاجتماعي .

١٢ – أن المرأة قد تمتعت بمزايا و حقوق في المجتمع الإسلامي لم تتمتع بها المرأة في أي من المجتمعات الأخرى .

١٣ – أن جوستاف لوبون قد تعرض بالإنكار لبعض معجزات الرسول و كذلك لبعض الأشياء في العقيدة و الشريعة و التاريخ الإسلامي وفي نفس الوقت قد تعرض للكثير من الإيجابيات التي تحسب له في مجالات العقيدة والشريعة الإسلامية



١٤ - أن الدولة الإسلامية ظلت قوية مسيطرة على كل العالم طالما ظل المسلمون يحافظون على عقيدتهم و متمسكين بها ، و عندما انحرفوا عن هذا التمسك بالعقيدة و أسس الدين الإسلامي بدأت في التدهور و الانحدار .

ثانيا : التوصيات :

١ - أهمية تحقيق أو ترجمة الكتب الأجنبية ، و الرد عليها خاصة إذا كانت ذائعة الانتشار مثل هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، فقد قام الأستاذ عادل زعيتر بترجمته من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية و علق عليه ، و تعرض للأخذ منه و نقده أو الاستشهاد ببعض ما فيه الكثير من علماء الإسلام ، و قد قمت بتحقيقه تحقيقًا منهجيًا من زاوية الدعوة الإسلامية مثبتًــا ما أصاب فيه المؤلف جوستاف لوبون ، و ناقدًا ما حاد فيه المؤلف عن جادة الصواب سواء كان هذا الخطأ عمد استشراقى أم عن عدم دقة الفهم لما تعرض له من مفاهيم إسلامية . و لم أترك شيئًا في هذا الكتاب إلا و قد تعرضت لتحقيقه و نقده تحقيقًا علميًا منهجيًا من خلال المصادر الأصلية للدعوة الإسلامية معتمدًا على القرآن الكريم وعلومه والأحاديث النبوية الشريفة المثبتة و المصححة في كتب الأحاديث مثل البخاري و مسلم و غيرهما من سنن الأئمة العظام ، وكذلك كتب السيرة النبوية وغير ذلك من المراجع المتخصصة في الدعوة الإسلامية .

٢ - على الباحث المسلم أن يكون مرهف الحس يشعر بما يضر و ما ينفع عقيدته بمعنى أن يكون دارسًا متخصصًا متعمقًا في دراسة الدعوة الإسلامية و أصول البحث فيها حتى يكتسب هذه الحاسة التي لا تتوفر عند كثير من الناس، وأن يكون غيورًا على دينه و أمته الإسلامية و لا ينخدع بأساليب المستشرقين حتى يشعر بالسم المدسوس في العسل من خلال التلاعب بالألفاظ عندهم .



٣ ـ على الباحث أن يكون محبًا للعلم طاعة لله عز وجل وطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم و لا يكون كمًا مهملًا .

٤ـ إنشاء موسوعة علمية للرد على المستشرقين و معالجة هذه القضايا بمقتضى مستويات العصر الثقافية بعيدًا عن التعصب ، و التعريف الكامل و الدقيق بالإسلام و الحضارة الإسلامية ، و إبراز أهداف المستشرقين و مناهجهم .

٥ ـ إنشاء فروع للعلوم الإسلامية و الفكر الإسلامي لتقوم بترجمة و دراسة إهمال ودراسات المستشرقين في كافة اللغات و الرد عليها عن طريق العلماء المسلمين بدقة و طباعتها و نشرها و توزيعها في كافة أنحاء العالم .

٦ ـ إنشاء مؤسسة إسلامية علمية عالمية تقوم باستقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية من كافة أنحاء العالم الإسلامي و لا يكون لها ولاء إلاَّ لله سبحانه وتعالى و رسوله صلى الله عليه و سلم .

٧ ـ إنشاء جهاز عالمي للدعوة الإسلامية يقوم بعمل دائرة معارف إسلامية جديدة و تنقية التراث الإسلامي و ترجمة إسلامية لمعاني القرآن الكريم و عمل حوار مع المستشرقين المعتدلين .

و ينبثق من هذا الجهاز لجان :ـ

١ ـ لجنة التعريف بالإسلام .

٢ ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي و تنقيته .

٣ ـ لجنة الدفاع الفكري عن الإسلام

٤ ـ لجنة شئون الدعاة العالمية .

٥ ـ لجنة التعليم و التثقيف الديني و التبشير بالدين الإسلامي في العالم .

٦ ـ لجنة الإعلام الإسلامي .

المراجع

(أ)

١) **إبراهيم سليمان عيسى** :من جوانب الحضارة الإسلامية ، العدد ١٩ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٩٧ م.

٢) **إبراهيم مدكور** : المعجم الوجيز، مادة " حضر " مجمع اللغة العربية ، ١٩٩٤ .

٣) **أبو بكر الجزائري** : منهاج المسلم ، بدون تاريخ .

٤) **أحمد بن حجر آل على** : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الجامعة الإسلامية بالمدينة ، بدون تاريخ .

٥) **أحمد سمايلوفيتش** : فلسفة الإستشراق ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

٦) **أحمد شلبي** :

١ – مقارنة الأديان ، المسيحية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٥ .

٢ – موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٧ .

٧) **أحمد عبد الرحيم السايح** : يسر الإسلام و سماحته ، الأزهر جـ١٢ ، ١٩٩٩ .

٨) **آدم عبد الله الآلورى** : تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس و اليوم ، ط ٣ ، ١٩٨٨ .

٩) **أحمد عمر هاشم**: في رياض السيرة النبوية ، مكتبة النهضة المصرية ، بدون تاريخ.

١٠) **أحمد فريد** : وقفات تربوية مع السيرة النبوية ، دار ابن خالدون ، ١٩٩٣

١١) **أحمد فكرى** أثر الإسلام في العمارة و التحف الفنية ، أثر العرب و الإسلام بدون تاريخ

١٢) **أحمد محمد الحوفي** :من أخلاق النبي صلى الله عليه و سلم ، دار نهضة مصر بدون تاريخ .

١٣) **أحمد محمد بربري** :حلف الفضول ، مجلة منبر الإسلام ، مايو ١٩٦٤ م .

١٤) **أحمد محمد جمال** : مفتريات على الإسلام ، ط٣ ، بدون تاريخ .

١٥) **أنــور الجنـــدي** : صفحات من أجادنا ، العدد ٥٣ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٦٥ م .

- العالم الإسلامي و الاستعمار السياسي و الاجتماعي و الثقافي ، ط١ ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ .

١٦) **أبو الأعلى المودودى** :حقوق أهل الذمة ، بدون تاريخ .

١٧) **الألوســي** :روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، دار الفكر الهربى ، ١٩٩٧ .

١٨) **أمين أمين راشد** ، قضية التفكير في الفكر الإسلامي .

١٩) **أحمد بن علي بن حجر** :هدى الساري مقدمة فتح الباري ، ط٣ ، دار الريان للتراث ، المكتبة السلفية الإصابة في تمييز الصحابة ن جـ٧ .

٢٠) **أحمد بن على المقريزي** :إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، ط ١ ، لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة.

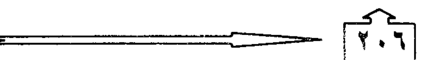
٢١) **ابن عبد الحق البغدادي** : كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

٢٢) **إسماعيل باشا** :هداية العارفين في أسماء المؤلفين و آثار المصنفين ، مطبعة وكالة المعارف ، استانبول سنة ١٩٥٥ م .

٢٣) **ابــن الأثــير** :النهاية في غريب الحديث ، المطبعة الخيرية – مصر الكامل في التاريخ ، بدون تاريخ ، جـ١٢ .

٢٤) **أحمــد محمــد علــى بيــومي** :إتحاف المسلمين بسيرة سيد المرسلين ، مطابع ياسمين – **بلبيس** .

٢٥) **ابن العماد** : شذرات الذهب في أخبار من ذهب – مطبعة دار الفكر – بيروت .



(ب)

٢٦) **البخاري** :

١ – كتاب فرض الخمس ، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم ، بدون تاريخ .

٢ – كتاب الأدب ، باب الوصايا بالجار ، بدون تاريخ .

٣ – كتاب النكاح ، باب لا ينكح الأب و غيره البكر و الثيب إلا برضاها ، بدون تاريخ .

٢٧) **بكرى شيخ أمين** :الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٢ .

٢٨) **البلاذرى** :فتوح البلدان ، ق١ ، تحقيق د./ صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ .

٢٩) **البهي الخولى** :تذكرة الدعاة ، مكتبة وهبه ، بدون تاريخ .

٣٠) **أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى** :دلائل النبوة و معرفة أحوال صاحب الشريعة ، مطبعة دار الريان للتراث ، بدون تاريخ .

(ت)

٣١) **توفيق يوسف الراعي** : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة العربية ، ط ١ ، دار الوفاء بالمنصورة ، ١٩٨٨ .

٣٢) **توماس أرنولد** :الدعوة الإسلامية ، ترجمة د./ حسن إبراهيم حسن ، د./ عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ .

٣٣) **التهامي** :مناهج المستشرقين في الدراسات العربية و الإسلامية ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، بدون تاريخ .



(ج)

٣٤) **جاد الحق على جاد الحق** : الفقه الإسلامي مرونته و تطوره ، ط٣ ، سلسلة البحوث الإسلامية ، ١٩٩٥ .

٣٥) **جبور عبد النور** : قاموس المنهل ، فرنسي عربي ، د./ سهيل إدريس ، دار العلم للملايين بيروت ، دار الأدب ، بدون تاريخ .

٣٦) **جمال الشيال** :أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوربية ، بدون تاريخ .

٣٧) **جمعة أمين عبد العزيز** :

١ – من مصادر التشريع الإسلامي القرآن و السنة ، دار الدعوة ، بدون تاريخ .

٢ – الدعوة قواعد و أصول ، بدون تاريخ .

٣ – فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين للإمام حسن البنا ، دار الدعوة .

٣٨) **جمعة على الخولى** :تاريخ الدعوة ، ط ١ ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٣٩) **جوتس سرجله** :قاموس ألماني عربي ، طبع بلبنان ، بدون تاريخ .

٤٠) **جود المهدي** :هدى النيرين في سيرة سيد الكونين ، ط١ ،جـ١ ، مطبعة الإصلاح بطنطا ، ١٩٨٣ .

٤١) **جوستاف لوبون** :

١ – حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، بدون تاريخ .

٢ – مقدمة الحضارات الأولى ، ترجمة محمد صادق رستم ، القاهرة ، ١٣٤١ .

٤٢) **الجهشيارى** :كتاب الوزارة و الكتاب ، تحقيق مصطفي السقا و آخرون ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

(ح)

٤٣) **ابن حزم** : المحلى بالآثار ، جـ٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

٤٤) د./ حسن إبراهيم حسن :

١ – تاريخ الإسلام ، ط ١٤ ، بيروت ، ١٩٩٦ ، جـ١ .

٢ – الدعوة إلى الإسلام ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٣ – النظم الإسلامية ، جـ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٩ .

٤٥) د./ حسين سعيد : الموسوعة الثقافية ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

٤٦) الحسيني: المرأة وحقوقها في الإسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ.

٤٧) الحنبلي البغدادي :جامع العلوم والحكم ، ط ٥ ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٤٨) حرية الفكر وأبطالها في التاريخ :الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ١ ، ١٩٩٨.

٤٩) د./ حمدي طه : بحوث العمليات طبع في أمريكا سنة ١٩٨٦ ، طـ٣ ، باللغة الإنجليزية ، ص ٣٨٠ .

(خ)

٥٠) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، بدون تاريخ .

٥١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، بدون تاريخ .

٥٢) خير الدين الزركلي : الأعلام ، ط٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

(د)

٥٣) أبو داود : كتاب الإمارة والفئ ، جـ٣ ، بدون تاريخ .

٥٤) ابن الربيع الشيباني الشافعي :حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار وعلى آله المصطفين الأخيار ، جـ٣ ، ط٢ ، قطر ، مطابع قطر الوطنية ، ١٩٨٢ .



(ذ)

٥٥) **الـذهبي** :سير أعلام النبلاء ، تحقيق محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمورى ، جـ١١ ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بدون تاريخ .

(ر)

٥٦) **الرازى** : مختار الصحاح ، باب وحى ، دار المعارف ، بدون تاريخ .

٥٧) **رءوف شلبى** :

١ – الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها و غايتها ، ط٣ ، دار القلم بالكويت ، ١٩٨٢ .

٢ – الدعوة في عهدها المدني ، بدون تاريخ .

٣ - عالمية الإسلام ، الأزهر ، ١٤٠٩ هـ .

٥٨) **ابـن رشـد القـرطبي الأندلسـي** : بداية المجتهد و نهاية المقتصد ، ج٢ ، دار الكتب الحديثة ، بدون تاريخ .

٥٩) **رفاعة الطهطاوي**: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز ، المطبعة النموذجية – الحلمية الجديدة – القاهرة .

(ز)

٦٠) **زكريا هاشم زكريا** :المستشرقون و الإسلام ، لجنة التعريف بالإسلام ، ١٩٦٥ .

٦١) **زكى محمد حسن** : تراث الإسلام في الفنون الفرعية و التصوير و العمارة ، ط١، دار الكتاب العربي السورية ١٩٨٤ .

٦٢) **الزمخشرى** : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، جـ٣ ، ط ١ ، سنة ١٣٥٤ هـ

٦٣) **زيعزيد هونكة**: شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون و آخر ط ٨ ، بيروت ١٩٩٣ .

٦٤) زينب رضوان : الإسلام و قضايا المرأة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

(**س**)

٦٥) **سعاد ماهر** : أثر الحضارة العربية في العصر الإسلامي على أوروبا من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية ، مجلة الأمة ، نوفمبر ١٩٦٦ .

٦٦) **سعد أبو الرضا** :

١ – أثر الإسلام في انتشار اللغة العربية ، مجلة الأمة ، العدد ٥٧ ، ١٩٨٥ .

٢ – الآداب الإسلامية و أثرها في آداب الغرب مجلة الأمة ، العدد ٤٩ ، ١٩٨٤ .

٦٧) **ابن سعد** : السيرة النبوية من الطبقات الكبرى ، م ١ ، الزهراء للإعلام العربي ، بدون تاريخ .

٦٨) **سعيد حوي** : محمد رسول الله ، بدون تاريخ ، الإسلام ، جـ٢ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٧ .

٦٩) **سعيد عاشور** :

١ – أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، الأنجلوا المصرية ، ١٩٦٧ .

٢ – الحركة الصليبية ، جـ١ ، بدون تاريخ .

٧٠) **سهير القلماوى وآخر (الأدب)**: كتاب العرب و الإسلام في النهضة الأوربية الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر ١٩٧٦ .

٧١) **السهيلى** : الروض الأنف ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون تاريخ .

٧٢) **السيد سابق** :

١ – فقه السنة ، جـ ٣ ، بدون تاريخ .

٢ – العقائد الإسلامية ، بدون تاريخ .

٧٣) **سيد قطب** : في ظلال القرآن ، م ٦ ، دار الشروق .

٧٤) **سيد محمد منور سنينار** : اللغة العربية و أثرها على لغات الهند ، مجلة الأمة ، العدد ٤٨ ، ١٩٨٤ .

٧٥) **السيوطي** :

١ – في الجامع الصغير ، جـ ٢ ، بدون تاريخ .

٢ – أسباب النزول ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٨٦ .

٣ – تاريخ الخلفاء، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ

٤ – الحاوي للفتاوى ، جـ ٢ ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

٧٦) **ل . أ . سيديو** : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، بدون تاريخ .

(ش)

٧٧) **الشـامي** : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق د./ مصطفي عبد الواحد ، القاهرة ١٩٩٧ .

٧٨) **ابن شداد** : النوادر السلطانية ، بدون تاريخ .

٧٩) **الشعراوي (محمد متولي)** :

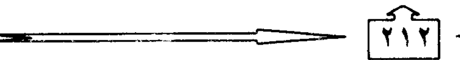
١ – الإنسان مسير أو مخير ، إعداد عبد القادر أحمد عطا ، دار التراث العربي بدون تاريخ .

٢ – المرأة في القرآن الكريم ، كتاب أخبار اليوم ، ١٩٩٨ .

٣ – الفتاوى ، علق عليه د./ السيد الجميلي ، دار الفتح للإعلام العربي

٨٠) **الشهرستانى** :الملل والنحل ، جـ ١ ، تحقيق أمير على مهنا وآخر ، ط ٥ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٦ .

٨١) **الشوكانى** :نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ، تحقيق طه عبد الرءوف ، سعد مصطفي محمد الهوارى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون تاريخ .



٨٢) **شعيب الأرنئوط** : صحيح ابن حبان بتركيب ابن بلبلان ، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية .

(**ص**)

٨٣) **صالح بن عبد الله بن حميد** : موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، م٢ ، مؤسسة دار الوسيلة للنشر والتوزيع بالسعودية ، بدون تاريخ .

٨٤) **صبري أبو الخير** : الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب بالزقازيق ، ١٩٨٧ .

(**ط**)

٨٥) **الطبري** :

١ – جامع البيان عن تأويل آيات القرآن ، جـ١٣ ، دار الفكر .

٢ – تاريخ الأمم والملوك ، المجلد الثاني ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

٣ – تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ، بدون تاريخ .

٤ – مختصر تفسير الطبري ، تحقيق الشيخ محمد على الصابوني ، م١ ، دار التراث العربي بالقاهرة ، ١٤٠٢ هـ .

٥ – جامع البياني في تفسير القرآن ، جـ٢٣ ، دار الجبل ، بيروت ، بدون تاريخ .

٨٦) **د./ طه حسين** : الفتنة الكبرى ، دار المعارف ، بدون تاريخ .

(**ع**)

٨٧) **عباس العقاد** :

١ – الإسلام دعوة عالمية ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٩٩ .

٢ – أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ .



٣ – حقائق الإسلام و أباطيل خصومه ، دار نهضة مصر ، بدون تاريخ .

٤ – الإسلام في القرن العشرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بدون تاريخ .

٨٨) **عبد الجليل شلبي** : رد مفتريات على الإسلام ، ط ١ ، ص ٥٤ – ٥٨ ، الكويت ، ١٩٨٣ .

٨٩) **عبد الحليم الجندي** :

١ – أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، ط ٢ ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

٢ – مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ط ٣ ، دار المعارف ، ١٩٩٣ .

٣ – أبو حنيفة ، ط ٣ ، دار المعارف ، ١٩٩٢ .

٩٠) **عبد الحليم محمود** : محمد رسول الله صلى الله عليه و يلم ، دار الكتاب اللبناني ، بدون تاريخ .

٩١) **عبد الحميد حمدان** : طبقات المستشرقين ، مكتبة مدبولى ، بدون تاريخ .

٩٢) **عبد الحليم منتصر (علوم و طبيعة)** : كتاب آثر العرب و الإسلام في النهضة الأوروبية ، بدون تاريخ .

٩٣) **الشيخ / عبد الرحمن بن ناصر السعدي** : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨ .

٩٤) **عبد العزيز آل الشيخ** : تاريخ نجد ، جـ ١ ، بدون تاريخ .

٩٥) **عبد الفتاح شحاتة** : تاريخ العرب و عصر الرسول ، ط ٣ ، ١٩٥٤ .

٩٦) **عبد الكريم الخطيب** :

١ – التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته، ط ١، بدون تاريخ.

٢ – الخلافة و الأمانة ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

٣ – الدعوة الوهابية ، بدون تاريخ .

٩٧) **عبد الكريم زيدان :**

١ – أصول الدعوة ، ط ٣ ، ١٩٧٦ .

٢ – أحكام الذميين و المستأمنين في دار الإسلام ، مكتبة القدس ، بدون تاريخ .

٩٨) **عبد الله سمك** : الإستشراق بين الجحود و الإنصاف ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٩٩) **عبد الله عبد الحي** : التبشير و الإستشراق خططًا و منهجًا و تطبيقًا ، ط ١ ، دار الطباعة المحمدية ، ١٩٩٣ .

١٠٠) **عبد الله بن العباسي الجرارى**: تقدم العرب في العلوم و الصناعات وأستاذيتهم لأوروبا ، ط١ ، دار الفكر العربي ، ١٩٦١ .

١٠١) **عبد الله ناصح علواني**: محاضرة في الشريعة الإسلامية و فقهها و مصادرها دار السلام للطباعة و النشر بدون تاريخ .

١٠٢) **عبد المتعال محمد الجبري :**

١ – المرأة في التطور الإسلامي ، بدون تاريخ .

٢ – السيرة النبوية و أوهام المستشرقين ، مكتبة وهبة ، بدون تاريخ .

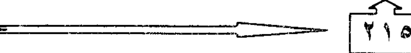
٣ – الحضارة و التمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى ، ط١ ، مكتبة وهبة القاهرة ، ١٩٩٣ .

١٠٣) **عبد المجيد الزنداني** : توحيد الخالق ، جـ١ ، جدة ، دار المجتمع للنشر ، ط ٢ ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ .

١٠٤)**عبد المنصف محمود**: دحض شبهات و مفتريات حول الإسلام، القاهرة، ١٩٨٤

١٠٥) **عبد المنعم صالح العلى** :تهذيب مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ، الإمارات العربية المتحدة ، وزارة العدل و الأوقاف ، ط١ ، ١٤٠٢ هـ .

١٠٦) **الشيخ / عبد الوهاب النجار** : قصص الأنبياء ، مؤسسة الحلبي للنشر القاهرة ، بدون تاريخ .



١٠٧) **عبد الوهاب خلاف** : علم أصول الفقه ، ط ٨ ، مكتبة الدعوة الإسلامية بدون تاريخ .

١٠٨) **عرفه سالم حسن سيف الدين** : دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني ، حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد العاشر ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م .

١٠٩) **عز الدين الخطيب التميمي** : التآمر على اللغة العربية ، مجلة للأمة العدد ١٠ ، ١٩٨١ م .

١١٠) **العسقلاني** : فتح الباري ، جـ٧ ، ط ٣ ، المكتبة السلفية ، ١٤٠٧ هـ .

١١١) **عطية الإبراشي** : عظمة الرسول ، بدون تاريخ .

١١٢) **عفيف عبد الفتاح طبارة** : روح الدين الإسلامي ، ط ١٩ ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ .

١١٣) **على على منصور** : الدين وقوانين الأحوال الشخصية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، بدون تاريخ .

١١٤) **على محفوظ** : هداية المرشدين ، طريق الوعظ والخطابة ، ط ٩ ، دار الإعتصام، ١٩٧٩ .

١١٥) **على فكرى**: أحسن القصص، جـ٢، ط ٤، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٦ م .

١١٦) **على على شاهين** : دراسات في الإستشراق ورد شبهة المستشرقين حول الإسلام ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٩٢ م .

١١٧) **على حسن الخربوطلى** :

١ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٢ ـ الإسلام وأهل الذمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، ١٩٦٩ .

٣ - العرب في أوروبا ، المكتبة الثقافية ، العدد ١٤٣ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ م .

١١٨) على عبد الواحد وافى: حقوق الإنسان في الإسلام و نهضة مصر ، بدون تاريخ .

١١٩) عماد الدين خليل :

١ - المستشرقون و السيرة النبوية ، جـ١ ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ، بدون تاريخ .

٢ - دراسة في السيرة ، دار الوفاء بالمنصورة ، بدون تاريخ .

١٢٠) عمر عبد العزيز قريش :

١ - التعصب الصليبي ، جـ٢ ، ط ١ ، دار الاستقامة ، ١٩٩٦ م .

٢ - سماحة الإسلام ، جـ٣ ، ط ١ ، دار الاستقامة ، ١٩٩٠ .

١٢١) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، مطبعة الترقي ، دمشق .

(ف)

١٢٢) فتحية النبراوى : تاريخ النظم و الحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

١٢٣) الفخر الرازي : التفسير الكبير ، ط ٣، دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ.

١٢٤) فؤاد محمد النادي : طرق اختيار الخليفة ، ط ١ ، جامعة صنعاء ، ١٩٨٠ م .

(ق)

١٢٥) قاسم عبده قاسم :

١ - ماهية الحروب الصليبية الأيدلوجية ، الدوافع ، النتائج ، عالم المعرفة ، العدد ١٤٩ ،١٩٩٠ م ١١٧ القحطانى .

٢ - الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى : الشيخ محمد عبد الوهاب ، بدون تاريخ

١٢٦) **القاموس المحيط** : جـ١ ، بدون تاريخ .

١٢٧) **القرطبي**: الجامع لأحكام القرآن، م ٧ ، جـ ١٤ ، دار علوم القرآن ، بدون تاريخ .

١٢٨) **ابن قيم الجوزية** :

١ – واد المعاد في هدى خير العباد، جـ١، دار الريان التراث ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٢ – مدارج السالكين ،جـ ٢ ، دار البيان العربي ، بدون تاريخ .

(**ك**)

١٢٩) **الكتاب المقدس** : الإصحاح الثاني والعشرون .

١٣٠) **ابن كثير** :

١ – البداية والنهاية ، جـ ٢ ، دار الفكر العربي بدون تاريخ .

٢ – تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣ – قصص الأنبياء ، دار القلم ، بيروت ، بدون تاريخ .

(**ل**)

١٣١) **لويس المعلوف** : المنجد في اللغة ، ط ١٠ ، دار المشرق ، بيروت ، بدون تاريخ .

(**م**)

١٣٢) **الماوردى** :

١ – الأحكام السلطانية ، بدون تاريخ .

٢ – أدب الدنيا والدين، تحقيق حمزة النشرني وآخرون، القاهرة، بدون تاريخ

١٣٣) **المباركفورى** : الرحيق المختوم ، مؤسسة قرطبة ، بدون تاريخ .

١٣٤) **مجلة الأزهر** : شار من قاع الإمام محمد عبده ، ١٤١٨ هـ .

١٣٥) **مسلم** : استئذان الثيب بالنطق والبكر بالسكوت، م ٣، جـ٩ ، بدون تاريخ .



١٣٦) المسعودي : مروج الذهب و معادن الجوهر ، المجلد الثاني ، دار الفكر ، بدون تاريخ .

١٣٧) منبر الإسلام :

١ – العدد ٢ ، يونيو ، ١٩٩٨ .

٢ – دار الإفتاء ترد على أكاذيب مكسيم رودنسون، يونيو ١٩٩٨ م، العدد ٢

٣ – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،أثر كتب الملوك و الرؤساء ، ١٩٧١ .

١٣٨) ابن منظور : لسان العرب ، جـ٦ ، دار المغارف ، بدون تاريخ .

١٣٩) منيب محمد ربيع : ضمانات الحرية في النظام الإسلامي و تطبيقاتها سلسلة البحوث الإسلامية السنة الرابعة عشر ، الكتاب الثاني القاهرة ، ١٩٨٣ .

١٤٠) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، جـ٢ ط ٣ ، بدون تاريخ .

١٤١) الإمام محمد أبو زهرة :

١ – تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

٢ – محاضرات في النصرانية ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

٣ – أصول الفقه ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

١٤٢)محمد أحمد الغمراوى: الإسلام في عصر العلم، دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ

١٤٣) محمد أمان بن على الجامى : أضواء على طريق الدعوة إلى الإسلام ، الرياض إدارة البحوث العلمية ، ١٩٨٤ .

١٤٤) محمد الخضري :

١ – إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، دار الفكر ، بدون تاريخ .

٢ – محاضرات في تاريخ الإسلام ، جـ١ ،ط ٤ ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

٣ – نور اليقين ، ط ٢٤ ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .



١٤٥) **محمد البهي** : الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم، ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٩٨٠ م .
١٤٦) **محمد السيد محمد يوسف** : التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ط ١ ، دار السلام ، ١٩٩٧ م .
١٤٧) **محمد الأنور أحمد البلتاجي**: من وصايا القرآن، ط ١، دار التراث العربي، ١٩٨٤م
١٤٨) **محمد إبراهيم الفيومي** : الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ
١٤٩) **محمد الغزالي** :

١ – فقه السيرة ، دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨٣ م .
٢ – إحياء علوم الدين ، م ٢ ، بدون تاريخ .
٣ – مع الله ، دراسات في الدعوة والدعاة ، ط ٥، دار الكتب الإسلامية، ١٩٩٠.
٤ – التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ .
٥ – دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطامع المستشرقين، ط ٤، القاهرة ، ١٩٧٥ .
٦ – مائة سؤال عن الإسلام ، ط ٥ ، دار ثابت ، ١٩٩٦ م .

١٥٠) **محمد بكر إسماعيل** : قصص القرآن ، ط ٢ ، دار المنار، ١٩٩٧ م .
١٥١) **محمد حسين هيكل** : حياة محمد ، ط ١٦ ، دار المعارف ، بدون تاريخ .
١٥٢) **محمد خليفة حسن** : آثار الفكر الإستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، ط ١ ، دار عين ، ١٩٩٧ م .
١٥٣) **محمد رجب الشتيوي** :

١ – الدعوة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة وط ١ ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .
٢ – النصرانية ، دراسة مقارنة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .

١٥٤) **محمد رضا** : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٥٥) **محمد سعيد رمضان البوطي** : فقه السيرة ، ط ٧ ، دار الفكر ، بدون تاريخ .
١٥٦) **محمد بن سعيد سالم القحطاني** :
١ – الولاء و البراء في الإسلام ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ .
٢ – الحكمة في الدعوة إلى الله ، بدون تاريخ .
١٥٧) **محمد سليم العوا** : في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ط ٦ ، المكتب المصري الحديث ، ١٩٨٣ م .
١٥٨) **محمد طلعت أبو صير**: الدعاة إلى الله في القرآن الكريم و مناهجهم ، ١٩٨٦م.
١٥٩) **محمد عزت الطهطاوي** : التبشير و الإستشراق ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
١٦٠) **محمد عبد العظيم الزرقاني** : مناهل العرفان في علوم القرآن ، جـ٢ ، مطبعة عيسى الحلبى ، بدون تاريخ .
١٦١) **محمد عبد القادر أبو فارس**: السيرة النبوية دراسة تحليلية، ط ١، دار الفرقان ١٩٥٨ م .
١٦٢) **محمد على الصابوني** :
١ – شبهات و أباطيل حول تعدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ١٩٨٠ م .
٢ – التبيان في علوم القرآن ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨١ م .
١٦٣) **محمد عبد الله الخطيب** :
١ – " الهجرة " مقال بمجلة الدعوة ، العدد ٤٣ ، محرم ١٤٠٠ هـ .
٢ – نحو جيل مسلم ، المركز الإسلامي ، بدون تاريخ .
١٦٤) **محمد عمارة** : تيارات الفكر الإسلامي ، دار الشروق ، بدون تاريخ .
١٦٥) **محمد قطب** : المستشرقون و الإسلام ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٩ م .

١٦٦) **محمد منير الغضبان :**

١ – فقه السيرة ، بدون تاريخ .

٢ – المنهج الحركي للسيرة النبوية ، الأردن ، بدون تاريخ

١٦٧) **الشيخ محمد متولي الشعراوي** :معنى الهجرة ، الأخبار في ٩ / ٤ / ١٩٩٩ م .

١٦٨) **محمد محمود الصياد (جغرافيا)** : أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوربية بدون تاريخ .

١٦٩) **محمد كامل حسين (الطب و الأقربازين)** :أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوربية ، بدون تاريخ .

١٧٠) **محمد نعيم ياسين** : الإيمان ، أركانه ، حقيقته ، بدون تاريخ .

١٧١) **محمد يوسف موسى**:نظام الحكم في الإسلام، دار الفكر العربي، بدون تاريخ .

١٧٢) **محمد عبد العزيز داود** : القضايا الاجتماعية في ضوء النظم الإسلامية الطاووس الذهبى مبلبيس ، بدون تاريخ .

١٧٣) **محمود السيد الطنطاوي** : نبينا محمد المثل العلى للإنسانية ، مجلة منبر الإسلام ، ١٩٧١ م .

١٧٤) **د./ محمود حمدي زقزوق :**

١ – الإستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة، بدون تاريخ.

٢ – الإسلام في مواجهة حملات التشكيك ، ط ٢ ، العدد ٤٦ ، وزارة الأوقاف القاهرة ، ١٩٩٩ م .

١٧٥) **أ . د./ محمود محمد رسلان :**

١ – فجر الدعوة الإسلامية ، ط ٢ ، ١٩٩٢ م .

٢ – الدعوة الإسلامية في مصر منذ الفتح حتى آخر عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .



رسالة ماجستير، مكتبة كلية أصول الدين و الدعوة بالمنصورة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م. تحت رقم ٣٥.

١٧٦) **محمود الحويرى** : مصر في العصور الوسطى، ط ١، دار عين للنشر، ١٩٩٧ م.

١٧٧) **محمود قطام**: الجوانب العلمية في الحضارة الإسلامية، مجلة الأمة، العدد ٤١، جمادى الأولى، ١٩٨٤ م.

١٧٨) **الإمام الأكبر / محمود شلتوت** :

١ – الإسلام عقيدة و شريعة، ط ٣، دار الشروق، بدون تاريخ.

٢ – من توجيهات الإسلام، ط ٨، دار الشروق، ١٩٨٢ م.

١٧٩) **محمد محمود الصواف** : زوجات الرسول صلى الله عليه و سلم الطاهرات وحكمة تعددهن، دار الاعتصام، بدون تاريخ.

١٨٠) **مصطفي محمد البسيوني** : مجلة منبر الإسلام، ١٤٢٠ هـ.

١٨١) **مصطفي الرافعي** : الإسلام نظام إنساني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ١١، ١٩٦٤ م.

١٨٢) **مؤرخ مجهول** : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د./ حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٣ م.

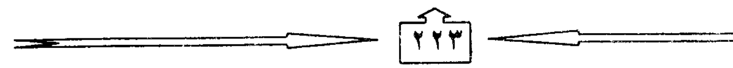
١٨٣) **مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي** : نور الأنصار في مناقب آل بيت النبي المختار، دار الكتب العامة، بيروت، بدون تاريخ.

١٨٤) **موريس بوتاى** : القرآن و التوراة و الإنجيل و العلم، الفتح العربي للإعلام بدون تاريخ.

١٨٥) **مناع القطان** : مباحث علوم القرآن، ط ٦، القاهرة، ١٤٠٨ هـ.

١٨٦) **محمد عطية الأبراشي** : عظمة الرسول.

١٨٧) **نجيب العقيقي** : المستشرقون، ط ٣، دار المعارف، ١٩٦٤ م.



١٨٨) **مصطفي العظمى** : مغازى الرسول صلى الله عليه و سلم لعروة بن الزبير منشورات مكتب التربية العربي بدول الخليج .

(و)

١٨٩) **وحيد الدين خان** : المرأة بين شريعة الإسلام و الحضارة الغربية ، ترجمة سيد رئيس أحمد الندوى ، دار الصحوة للنشر ، ١٩٩٧ م .

(هـ)

١٩٠) **ابن هشام** : السيرة النبوية ، تحقيق محمد بيومى ، ط ١ ، جـ ١ ، دار الحرم للتراث ، ١٩٩٥ م .

١٩١) **هيتشكوك و آخر** : أثر العربى في حضارة العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، ط ١ ، دار عين للنشر ١٩٩٩ م .

(ى)

١٩٢) **د./ يوسف القرضاوى** :

١ – غير المسلمين في المجتمع الإسلامى ، بدون تاريخ .

٢ – الحلال و الحرام في الإسلام ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣ – حقيقة التوحيد ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ م .

٤ – مدخل لمعرفة الإسلام ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٦ م .

٥ – ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ، ط ١ مكتبة وهبة ، ١٩٩٦ م .

٦ – الفقه الإسلامي بين الأصالة و التجديد ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٩ م .

٧ – مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ، بدون تاريخ .

٨ – كيف نتعامل مع السنة النبوية ، ط ٢ ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، ١٩٩٠م

٩ – فتاوى معاصرة ، دار الوفاء .

١٩٣) **ياقوت الحموي** : معجم البلدان.

